الدكتور محمد حلمي محمد أحمد

كلية دار العلوم — جامعة القاهرة

الخلافة والدولة

في العصر العباسي

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة نهضة مصر بالفجالة

١٨ شارع كامل صدقي

الدكتور محمد حلمي محمد أحمد
دار العلوم — جامعة القاهرة

الخلافة والدولة
في العصر العباسي

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة نهضة مصر بالفجالة
١٨ شارع كامل صدقي

الخلافة والدولة

في العصر العباسي

تأليف

الدكتور محمد حلمي محمد أحمد
كلية دار العلوم — جامعة القاهرة

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة نهضة مصر بالفجالة
١٨ شارع كامل صدقي

الطبعة الأولى

١٣٧٨ - ١٩٥٩

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله

فاتحة كل خير

وتمام كل نعمة

بين يدى الكتاب

واجه المسلمون عند وفاة الرسول ﷺ مشكلة خطيرة ذات طابع دستورى ، إذا سمحنا لأنفسنا باستعمال هذا المصطلح الحديث ، تلكم هى مشكلة رئاسة الدولة . وقد استطاع المسلمون أن يتغلبوا على هذه المشكلة دون توجيه مباشر من الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ، إذ أنه لم يترك فيهم نصا أو عملا يرشدهم إلى طريقة اختيار هذا الرئيس الجديد .

واستطاعت الجماعة المسلمة أن تسترشد بالتقاليد القديمة التى جاء الإسلام فأقرها وأكدها وهى التقاليد الخاصة بقيادة الجماعات إذ يختار لهذه القيادة أصلح الناس لها من وجهة نظر الجماعة . وهذا يعطى الحق لهذه الجماعة فى التشاور والمناقشة حتى تهتدى إلى رئيسها الجديد ، وكانت نتيجة الشورى التى دارت بين المسلمين عندئذ إنشاء منصب جديد هو منصب « الخلافة » الذى حمل صاحبه لقب الخليفة ، ثم فيما بعد لقب أمير المؤمنين ، ثم عرف أيضاً باسم الإمام فى بعض الظروف .

وكان إنشاء هذا المنصب ليتولى صاحبه قيادة الجماعة المسلمة بعد أن ترك الرسول صلوات الله عليه أمر هذه الجماعة إليها تدبره وحدها . وقيادة الرسول كانت شاملة لأمور الدين والسياسة والإدارة والحرب جميعا ؛ ومن الطبيعى أن تصبح هذه الوظائف كلها من اختصاصات المنصب الجديد .

ثم جاء عصر الفتوحات الإسلامية الكبرى وكانت نتيجته أن اتسع نطاق الدولة الإسلامية وتعددت الشعوب التى تكون الأمة . وكان لهذه الشعوب

تاريخها القديم ونظم حكمها التى مارستها عبر الأجيال ؛ ولكل منها ، تبعاً لهذا ، فهمها الخاص فى أمر رئاسة الدولة وفى من يشغل هذا المنصب .

واحتفظت الجماعة المسلمة بتماسكها إلى حد كبير طوال عهدى الراشدين والأمويين كما احتفظت الخلافة بمكانتها الرئيسية وبسيطرتها المباشرة على جميع أنحاء الدولة الإسلامية .

ولكن اختلاف السياسات التى اتبعها الخلفاء وعمالهم ، وسخط بعض الجماعات العربية المسلمة على بعض الأسس الدستورية التى وضعها الأمويون وطبقوها بشأن الخلافة أتاحا الفرصة للعناصر غير العربية كى تتناول منصب الخلافة بالنظر وتخضعه لتجاربها القديمة فى حكوماتها التى سبقت حكومة الإسلام . وفى هذه المرحلة وجدت شخصيات وجماعات لم تكن راضية عن أوضاعها فى الحكومة الإسلامية ، ولكنها لم تجرؤ على الخروج الظاهر على الحكم الإسلامى من حيث هو . فحاولت هذه الشخصيات والجماعات أن تدلى بدلائها فى الحركات التى ظهرت ضد حكم الأمويين بصفة خاصة متسترة وراء شعارات علوية أو خارجية محاولة بذلك أن تهدف إلى تفكيك وحدة الأمة الإسلامية ومن ثم إلى إضعاف السيطرة الإسلامية ، دينية ومدنية ، على هذه الدولة المترامية الأطراف .

وكانت الدعوة العباسية استغلالا ذكيا لهذه الحركات الظاهرة والمستترة وكان قيام الدولة العباسية نتيجة مباشرة لتطور هذه الحركات .

وشعرت بعض العناصر بخيبة أمل لقيام خلافة العباسيين ، ووجد بعض آخر فى قيام هذه الخلافة أملا كبيراً وخطوة واسعة لتحقيق الهدف الذى كانت ترمى إليه . وكان على الخلفاء العباسيين أن يعملوا للاحتفاظ بالوحدة وجمع الكلمة وللقضاء على الفتن وعناصر الفساد ، ولكن حوادث التاريخ

برهنت على أن الخلافة العباسية عجزت منذ أوائل عصرها عن تحقيق هذا الهدف فنشطت العناصر الهدامة ، وتفككت الدولة ، وساءت أحوال الأمة الإسلامية .

وعُمِّرَت الخلافة العباسية أكثر من خمسة قرون . ولكن هذا لم يكن عن إيمان بحق العباسيين فى الخلافة ، ولا عن قدرتهم على الاحتفاظ بسيطرتهم قوية فعالة ، ولا عن وهن فى العناصر التى كانت تهدف إلى تحطيم الخلافة الأموية من قبل ؛ ذلك أن هذه العناصر لم تكن تهدف إلى تحطيم الخلافة لأنها أموية وإنما كانت تهدف إلى تحطيمها لأنها كانت مظهراً لوحدة الأمة الإسلامية وقوة مسيطرة على الدولة جميعها ؛ وفى عهد العباسيين لم تعد الخلافة مظهراً لهذه الوحدة فقد تفككت وحدة الدولة وتوزعت أقاليمها المختلفة بين خلافات ثلاث . . أموية فى الأندلس . . وفاطمية فى مصر . . وعباسية فى العراق ؛ وإلى دويلات صغيرة أو كبيرة محلية حتى أصبحنا ، على سبيل المثال ، نجد فى منطقتى الجزيرة العراقية والشام دويلات مستقلة تتركز حول مدن متفرقة وتتنافس فى السيطرة فى غفلة من بغداد وفى غفلة من القاهرة .

« فالخلافة » لم تكن الهدف وإنما كانت الدولة والأمة هى الهدف . وقد انقسمت الدولة وتفككت الأمة فلتعمَّر الخلافة العباسية ماشاء الله لها أن تعمر حتى يضع حداً لهذا العمر الطويل عدو خارجى يتمثل فى التتار الذين أسقطوها سنة ٦٥٦ هـ ، ثم تقدموا فى زحفهم المدمر المخرب حتى بلاد الشام لولا . . لولا يقظة مصر التى وضعت حداً لهذا الزحف المدمر ثم بدأت فى رد المهاجمين على أعقابهم . . ثم أراد الله أن يدخل هؤلاء المتبربرون فى دين الله أفواجا .

وهذا الكتاب محاولة لدراسة تاريخ الدولة فى عهد الخلافة العباسية وقد تركزت هذه الدراسة حول علاقة الخلافة بالدولة وتركزت داخل هذا الإطار حول مقر الخلافة بالعراق لأن التطورات التى مرت بها الخلافة كانت تعكس آثارها خارج العراق وتنتقل إلى الأقاليم المختلفة .

وحوادث التاريخ ، وتواريخ الخلفاء ، وسير رجال الدولة ، ليست هدفا لهذه الدراسة وإنما هدفها ،كما ذكرت ، الدولة كمظهر ، والأمة كوحدة . ولهذا جاءت الحوادث التاريخية وأسماء الخلفاء ورجال الدولة فى أثناء الدراسة فى مجال التمثيل والتوضيح .

وأرجو أن أكون قد نجحت فى جهدى هذا الذى حاولت به دراسة تاريخ الدولة الإسلامية فى ظل العباسيين دراسة موضوعية تتخلص من قيود التقليد الذى لا يضيف إلى ما عرف فى القديم شيئاً من الجديد .

وَمَا تَوْفِيقِى إِلاَّ بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ .

دار العلوم فى { رمضان سنة ١٣٧٨ / مارس سنة ١٩٥٩ }

محمد حلمى محمد أحمد

الفصل الأول

تطور مشكلة الخلافة

حتى قيام الدولة العباسية

بهجرة الرسول ﷺ إلى المدينة التى ضمت المجتمع الإسلامى المنظم فى أول صوره أصبح الرسول عليه السلام رئيسا سياسيا لهذا المجتمع ، يدير شئونه ، ويحتفظ بالانسجام بين العناصر المختلفة التى تكونه . ولهذا أصدر عليه الصلاة والسلام بيانه السياسى الذى نظم علاقة المهاجرين بالأنصار ، وعلاقتهما معاً باليهود ، كما حدد فيه موقف المدينة فى مجموعها من القوى الخارجة ، وقد اشتمل هذا البيان السياسى على الأسس الرئيسية الآتية :

أولا : المسلمون أمة واحدة من دون الناس ، ينصر بعضهم بعضا ، ويقيمون علاقاتهم على أساس من التعاون والتكافل .

ثانياً . اليهود أحرار فى علاقاتهم الشخصية وفى معتقداتهم الدينية ، لا يجبرون على الدخول فى الإسلام . ومن دخل منهم فى عهد المسلمين فإن له منهم النصر والعون .

ثالثاً : فض المنازعات الداخلية والخصومات المحلية بالوسائل السلمية والإعراض عن مبدأ التعصب القبلى الذى كان يتحكم فى علاقات العرب بعضهم ببعض فى جاهليتهم .

رابعاً : على سكان المدينة ، مسلمين ومعاهدين ، مهمة الدفاع عنها أمام الخصوم ، يداً واحدة وقلباً واحدا ؛ ولا ينفرد فريق منهم بعقد أى صلح مع الأعداء إذا دعى إلى ذلك .

خامساً : لا يجـير أحد من سكان المدينـة قريشا أو يناصرها أو يتحالف معها .

سادساً : يتولى الرسول ﷺ تنظيم شئون المدينة ويرجع إليه فى كل أمر يختلف فيه الناس باعتباره صاحب السلطة العليا .

ثم نما المجتمع الإسلامى واتسع نطاق نفوذه ، فزادت مسئولية الرسول ﷺ وتنوعت جوانبها من سياسة وحرب واقتصاد ، وذلك بالإضافة إلى المهمة الكبرى التى بعث من أجلها ، وهى الدعوة الدينية الجديدة ، فكانت حكومة الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، قديرة على مواجهة هذه المسئولية المتنوعة ، ومن ورائها الوحى الكريم الذى يأتى من عند الله بالقواعد التنظيمية ، العامة فى مجموعها ، والفصيلية فى بعض ظروفها ومناسباتها . فكانت حكومة الرسول ، صلوات الله عليه ، بشكلها هذا ، حكومة دينية دنيوية ، تعتمد فى سلطتها التنفيذية والتشريعية على عقيدة الناس التى يوضحها قول الله تعالى : « وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى . مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى . وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى . إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى. عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى» .

وقد سوّى النبى ، صلوات الله عليه ، بحكومته وبدينه الذى جاء به بين الناس جميعا ، ودعا إلى طرح العصبية القبلية ودعوى الجاهلية ، وحث على تكوين عصبية من نوع جديد هى العصبية فى الله : «وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا» . وكوّن قومية جديدة يستوى الناس جميعا فى ظلها هى القومية

الإسلامية ، ولا فضل لعربى على عجمى فيها إلا بالتقوى ؛ والناس تحت لوائها سواسية كأسنان المشط .

° ° °

ثم انتقل الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، إلى جوار ربه ، وعادت مقاليد هذه الأمة الإسلامية من بعده إلى الجماعة ، جماعة المسلمين ، لا وحى يرشدهم ، ولا نبىّ يتمتع بالعصمة عن الخطأ ويتنزه عن الزلل ، يصرّف أمورهم ويحتفظ بوحدتهم . . . وكانت وفاته ، صلوات الله عليه ، فى المدينة حيث يتوفر العدد الكبير من الزعماء والقادة الذين يمثلون العناصر المختلفة للجماعة المسلمة حينئذ : ففيها المهاجرون من قريش وغيرها ، وفيها أصحاب المدينة الأصليون ، الأوس والخزرج ، وهما فريقان متنازعان فى جاهليتهما ، لم يستقرّ أمرهما أو تخف حدة اضطرابهما حتى وجدا فى الإسلام شفاء ناجعاً لأحقادهما .

ومن الطبيعى أن يدرس كل من هؤلاء وأولئك موقفه من هذا المشكل العظيم بعد أن وضع أبو بكر رضى الله عنه حداً لما أثير حول صحة نبإ وفاته صلى الله عليه وسلم . ولهذا أسرع الأنصار ، أوسهم وخزرجهم ، إلى منتدى لهم عرف بسقيفة بنى ساعدة وأرادوا أن يبايعوا واحداً منهم بالخلافة ، وكاد إجماعهم ينعقد على سعد بن عبادة . ولكن خبر هذا الاجتماع وصل إلى المهاجرين ؛ فأسرع نفر منهم وعلى رأسهم أبو بكر وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة ، واشتركوا فى المناقشة . فحذر أبو بكر بحكمته الأنصار من أن يبدءوا المجتمع الإسلامىّ بالفتنة ، واستجاب الجمع ، بعد مناقشة ، إلى رأى أبى بكر ؛ وساعد على هذه الاستجابة المخاوف التى بدأت تجد طريقها إلى نفوس كل من جماعتى الأوس والخزرج . وحسم الموقف أبو بكر رضى

الله عنه حين دعا الناس إلى بيعة عمر أو أبي عبيدة . . وتقدم عمر إلى أبي بكر يبايعه قبل أن يفلت الزمام وتبدأ المناقشة من جديد وهو يقول : « ألم يأمر النبي بأن تصلى أنت بالمسلمين ؟ ! فأنت خليفته ، ونحن نبايعك فنبايع خير من أحب رسول الله منا جميعاً » . ثم بايع أهل السقيفة ، وكانت هذه هى البيعة الخاصة . ثم بايع الناس فى المسجد بعد ذلك مقرّين رأى أهل السقيفة وكانت هذه هى البيعة العامة . ولم يشذ عن هذا الإجماع إلا نفر يسير ، لم يلبثوا بعد قليل أن دخلوا فيما دخلت فيه جماعة المسلمين .

وهكذا لم يطل الأمر بالمسلمين فى مناقشتهم حتى كانوا قد تجمعوا مرة أخرى تحت لواء واحد حمله أبو بكر الذى أدرك أنه لن يتمكن من السير خطوة واحدة إلا مستنداً إلى تأييد الناس وعونهم له . فأعلن سياسته ودستوره الذى سيحتكم معهم إليه فى قوله « إن أحسنت فأعينونى وإن أسأت فقومونى » وفى قوله « أطيعونى ما أطعت الله ورسوله فيكم ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم » .

وبهذا اجتاز المسلمون هذه الأزمة فى سلام ، بوحى من إدراكهم للموقف ، وتقديرهم للظروف الجديدة التى وضعهم الإسلام فيها . وبهذا أيضاً أصبح للمسلمين الحرية الكاملة فى أن يختاروا من الحكام ومن نظم الحكم ما يتلاءم مع أحوالهم وينسجم مع تطور حياتهم .

* * *

وبعد هذا بنحو سنتين قدر للمسلمين أن يمروا بتجربة أخرى من نوع جديد ، وهى أيضاً خاصة برئاسة الدولة . ذلك أن أبا بكر رضى الله عنه أحس بدنو أجله ، وتذكر الأزمة التى أعقبت وفاة الرسول صلى الله عليه

وسلم ، وخشى أن يتجدد النقاش حول الرئاسة ، أى الخلافة ، وهو فى هذه المرة قد لا تؤمن عواقبه ، وكثير من قادة الرأى متغيبون عن المدينة فى جيوش الفتح الإسلامى . نظر أبو بكر حوله يستعرض أصحابه ويبحث عن رجل يجمع إلى الشدة فى غير عنف لينا فى غير ضعف يولّيه الأمر من بعده . فوجد هاتين الصفتين متوفرتين فى عمر بن الخطاب ، وهو إلى جانب هذا سياسىّ حكيم ربما يريد الأمر فيرى فى طريقه إليه عقبة فيدور حتى يصل إليه . فعزم أبو بكر امره على اختيار ابن الخطاب خليفة للمسلمين . ولكنه لم ينفرد بهذا القرار ، بل أخذ يستشير من حضره بالمدينة من قادة المسلمين واحداً بعد آخر، حتى وجد منهم تأييداً لرأيه وتزكية لعمر . فسجل قراره فى وثيقة أعلنها على الناس يرشح فيها عمر بقوله : « إنى استعملت عليكم عمر بن الخطاب . فإن برّ وعدل فذلك علمى به ورأيى فيه ، وإن جار وبدّل فلا عِلم لى بالغيب ، والخير أردت ، ولكل امرئ ما اكتسب » .

وبهذا وضع أبو بكر سنة جديدة فى اختيار الخلفاء ذلك أنه عيّن ، أو فى الأقل رشّح ، من يتولى أمور المسلمين بعد وفاته ، أو بعبارة أخرى : اختار وليّا لعهده فى حياته ، ولم يترك الأمر للمسلمين يتشاورون فيه بعد وفاته ، كما حدث عقب وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإن كان قد حاول جهده الاحتياط فى الاختيار باستشارة الصحابة وبتقييد عمر وتحميله المسئولية الكاملة فى تصرفاته « فإن برّ وعدل فذلك علمى به ورأيى فيه وإن جار وبدّل فلا علم لى بالغيب والخير أردت » .

• • •

وسنّ عمر بن الخطاب طريقة ثالثة قبيل وفاته مدفوعا إلى ذلك برأى بعض القادة عندئذ إذ دخلوا عليه ، بعد أن أصابه أبو لؤلؤة بخنجره فى

مقتل ، وقالوا له : « يا أمير المؤمنين لو استخلفت ! » فقال : « إن أستخلف فقد استخلف من هو خير مني ، وإن أترك فقد ترك من هو خير مني . ولن يضيع الله دينه » . ثم أعيد عليه الحديث مرة أخرى فقال : « عليكم بهؤلاء الرهط الذين مات الرسول وهو عنهم راض .. علي بن أبي طالب .. وعثمان بن عفان .. وسعد بن أبي وقاص .. وعبد الرحمن بن عوف .. والزبير .. وطلحة » . على أن يكون معهم عبد الله بن عمر وليس له من الأمر شيء ، ويختار الخليفة من الفريق الذي يؤيده ابن عمر في حالة تساوى الجمعين في الرأى . ومع هذا خاف عمر أن يطول النقاش ويتحزب الناس ، فجمع الستة المرشحين وقال لهم : « إني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ، ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم . إني لا أخاف الناس عليكم ، وإنما أخاف اختلافكم فيما بينكم فيختلف الناس . فإذا مت فتشاوروا ثلاثة أيام ولا يأتين اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم » .

وانتهت المناقشات التي أعقبت وفاة عمر في اجتماعات متعددة ، كان آخرها في المسجد الجامع بطريقة علنية ، أمام الرأى العام ، باختيار عثمان ابن عفان خليفة للمسلمين ، وتمت بيعته في نفس الاجتماع .

وبهذا نجد أن اختيار عثمان للخلافة قد جمع بين مظهرى الانتخاب والتعيين ذلك أن عمر عهد بالأمر إلى ستة يبحثونه ويقطعون فيه برأى فكان هذا ترشيحا وتزكية لشخصية واحدة شائعة في هؤلاء الستة لا يتعداها الاختيار إلى غيرها . ومن جهة أخرى نجد أنه قد أتيح لهؤلاء الستة ، الذين هم « رؤساء الناس وقادتهم » ومثلو الاتجاهات المختلفة ، أن يتشاوروا في أمر الخلافة ، ثم عرضت نتيجة هذه الشورى على الرأى العام في المسجد

الجامع فى المرحلة الأخيرة وتمت بذلك البيعة لعثمان .

* * *

ويختلف الأمر عن هذا تمام الاختلاف عند اختيار على بن أبى طالب، ذلك أن أمور الناس اضطربت بعض الاضطراب فى عهد عثمان ، وقدمت بعض الوفود فى أواخر هذا العهد من البصرة والكوفة والفسطاط ، وانضمت إليها بعض الجماعات الموجودة فى المدينة ، وناقش الجميع عثمان فى بعض الأمور التى أنكروها ، وكانت المناقشة ثائرة غاضبة ومرت بمراحل متتابعة انتهت بمقتل عثمان . ثم تجمع هؤلاء الثائرون حول علىّ الذى تردد اسمه فى مناسبات متعددة أثناء الثورة ضد عثمان ، وأعلنوا عليا خليفة للمسلمين ، فقبل بعد تردد ، وبايعه أهل المدينة .

وهكذا كان اختيار على وليد حركة ثورية اشتركت فيها بعض الأمصار الإسلامية . ويلاحظ فى هذه المناسبة أن كثيراً من قادة المسلمين خارج الحجاز لم يبايعوا عليا ولم يوافقوه فى رضاه باختيار الثائرين له وإن كان عامة أهل المدينة قد أقروا هذا الاختيار . فكانت النتيجة الحتمية لهذا الموقف أن انقسم المسلمون فئتين كبيرتين ، اشتعلت بينهما الحروب التى لم تكد تنتهى حتى تولد عنها فئة ثالثة هى فئة الخوارج التى غضبت على علىّ وعلى منافسيه جميعا .

* * *

من هذه الدراسة المفصلة بعض التفصيل لتطور منصب الخلافة فى العصر الأول ، عصر الخلفاء الراشدين ، نود أن نلاحظ أن مبدأ الشورى كان حقيقة معترفا بها فى جميع المراحل . وإن اختلفت درجة الاعتماد على هذا المبدأ وطريقة تطبيقه :

فقد خضع اختيار أبي بكر لخلافة المسلمين لرأى أصحاب السقيفة من مهاجرين وأنصار، إذ تناقشوا فى الموقف وانتهى نقاشهم بقرار عرض على المسلمين فى مسجدهم الجامع فى اليوم التالى فأقروا ما وصل إليه مجلس السقيفة .

وفى اختيار عمر لم يستأثر أبو بكر برأيه الذى أملاه عليه تغيب عدد كبير من قادة الرأى العام المسلم فى حروب الفتح ، وإنما استشار أصحابه بعد أن اتضحت الفكرة فى رأسه . ومعنى هذا أن قادة المسلمين ، الموجودين بالمدينة ، قد استشيروا أيضا ، وإن كانت هذه الشورى على نطاق ضيق ، ذلك أن رأيهم قد أخذ فى شخصية واحدة رشحها أبو بكر . ومع هذا فقد حاول أبو بكر أن يبرىء نفسه من عواقب هذا الاختيار المصحوب بالاستشارة بأمرين : فقد عرض نتيجة الشورى على جماعة المدينة ، وحمّل عمر المسئولية وأشهد — فى ذلك — الناس حين قال « فإن برّ وعدل فذلك على به ورأيي فيه ، وإن جار وبدل فلاعلم لى بالغيب والخير أردت . »

وتطبيق هذه القاعدة التىوضعها أبو بكر فى وثيقته إلى جانب الأساس الذى وضعه حينما ولى الخلافة إذ قال : « وإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم » يجعل الأمر أولا وأخيراً فى أيدى المسلمين ، فلهم كل الحق فى أن يرفضوا رأى أبي بكر إن تبينوا فيه بالتجربة شيئا من العيوب .

وقد كان للشورى كذلك مكانها فى اختيار عثمان . ذلك أن عمر اجتهد فى الاختيار حتى اطمأن إلى ترشيح هؤلاء الرهط الذين مات الرسول صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض ليكون الخليفة من بينهم . ثم كلفهم بالمناقشة فى مدة محدودة تنتهى برأى محدّد حول خليفة يعرض أمره على الناس جميعا . فهو انتخاب من درجتين ، وشورى على نطاق أكثر ضيقا

من شورى مجلس السقيفة وإن كانت أكثر تنظيما، ذلك أنها قصرت على الزعماء الذين يتطلع الناس إليهم ويأتمرون بأمرهم، وقد كاف هؤلاء الزعماء الستة، وحدهم، بالتشاور فى الأمر، خلال ثلاثة أيام ولا يأتى اليوم الرابع إلا وقد عرف الناس أميرهم.

أما اختيار علىّ فقد انبعث من صميم عامة الناس الذين يمثلون الأمصار المختلفة، ففيهم من مصر ومن العراق ومن الحجاز. والواقع المسلّم به أن هذا التمثيل من الأمصار المختلفة لم يكن كافيا، فهو لم يعبر عن آراء بقية المسلمين، من غير الثائرين على عثمان ومن المعتزلين بأنفسهم عن الفتنة وشررها. ولكن عثمان قد قتل، ولابد للمسلمين ممّن يتولى أمورهم، ولابد كذلك من أن ترضى الفئة الثائرة عن الوالى الجديد حتى لا تتفاقم الفتنة. ولعل قادة المسلمين فى المدينة قد فهموا المشكلة على هذا الوضع إذ بايعوا عليا بعد مقتل عثمان، وإن كانت هذه البيعة لم تعالج الخلاف بطريقة حاسمة، فقد خرج أهل الشام على علىّ بزعامة معاوية وبتحريضه، ثم ذهب علىّ نفسه ضحية هذه الأزمة، وانتهى باستشهاده عهد الخلفاء الراشدين.

° ° °

ونقطة ثانية ترتبط بمشكلة الخلافة أثارها بعض الباحثين المتأخرين، وفيهم بعض المستشرقين، تلكم هى ما يزعمه البعض من أن ولاية أبى بكر ثم عمر، كانت نتيجة تفاهم سابق قُصد به قطع الطريق على الأنصار الذين كانوا، كما قيل، يعدّون للأمر عدّته قبل وفاة الرسول، صلى الله عليه وسلم، بأيام؛ كما قصد به حرمان على وآل النبىّ، عليه السلام، جميعا من أن يتولوا زعامة المجتمع الإسلامى الجديد، وهى الزعامة التى كان على والعباس قد

فكرا فيها حين قال العباس لعليّ : « ياأبا الحسن . كيف أصبح رسول الله ؟ » فقال : « أصبح بحمد الله بارئا . » فقال العباس : « ياعليّ . إنى والله لأعرف وجوه بنى عبد المطلب عند الموت . فانطلق بنا إلى رسول الله ، فإن كان هذا الأمر فينا ، وإلاّ كلمناه فأوصى بنا الناس » . فقال عليّ للعباس : « لا أفعل . والله لئن مَنَعَنَاه لا يُؤْتيناه أحد بعده . »

ويشرك هؤلاء الزاعمون أبا عبيدة بن الجراح مع أبى بكر فى هذه المؤامرة المزعومة ، ويستدلون على هذا بقيلة عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين نصحه بعض أصحابه بأن يستخلف ، حين أحسّ بالموت ، ذلك أنه قال « لوكان أبو عبيدة حيّا استخلفته . »

ويزيد هؤلاء فيقولون إن خلافة أبى بكر ثم عمر أتاحت للأمويين أن ينظموا صفوفهم وأن يتعاونوا على تقديم عثمان على آل النبى ، عليه السلام ، بعد وفاة عمر ، ثم على إبعاد آل هاشم جميعا عن زعامة العرب ورئاسة الدولة الجديدة .

ونحن نضع أمام هؤلاء الزاعمين الحقائق الآتية :

أولا : تلقى عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، نبأ وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم باضطراب شديد ، وكاد اضطرابه ينتهى به إلى مقاتلة من يصرّح بهذا النبأ ويصرّ على صحته . وقدردّه إلى وعيه أعز أصحاب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وهو أبو بكر ، إذ قام فى الناس خطيبا متزنا متماسكا ، داعيا الناس إلى الوحدة والتمسك بما كان يدعو إليه محمد بن عبد الله صلوات الله عليه: « من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حيّ لا يموت . وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ! » .

فلا غرابة فى أن يقتنع عمر بأنّ أبا بكر ، وهذه حاله ، إلى جانب ما عرف عنه فى حياة الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، خير من يصلح لقيادة المسلمين فى هذه الظروف العصيبة . وقد برهنت الحوادث ، وبخاصة حادثة حروب الردّة ، على أن أبا بكر الحازم كان جديرا بما وضع فيه من ثقة .

ثانيا : جاء النبى صلى الله عليه وسلم فوحد بين العرب المتنافرين المتباعدين بالدعوة إلى عصبية جديدة هى العصبية فى الله ، وبالدعوة إلى ترك ما عداها من عصبيات فى القبيلة أو الجنس . ثم توفى ، صلى الله على وسلم ، فجأة تاركا عبئاً كبيراً فى يد العرب من غير أن يعين من يقوم عليه ويرعاه . فمن الطبيعى أن يدور حول هذا الأمر نقاش بين العرب الذين اعتادوا الشورى فى جاهليتهم ، والذين استمسكوا بها ووسعوا مجالها فى إسلامهم ، والذين كانوا فى حاجة شديدة إليها فى هذه الفترة الحرجة . فتشاوروا ، واختلفوا ، وانتهى خلافهم بعد زمن قصير بارتضاء أبى بكر لتولى زمام أمورهم . ومن رحمة الله بالمسلمين أن الوعى الإسلامى القوى عندئذ قطع الطريق على الفتنة التى كادت تطل برأسها ، فى سقيفة بنى ساعدة ، بسبب هذا الأمر الجليل ، وهو قيادة العرب أجمعين ، ورعاية شئون هذا الدين .

ثالثا : لم يتحدث أحد فى مؤتمر السقيفة عن حق آل البيت ، وعلىّ خاصة ، فى الخلافة ؛ فلم يكن هناك من داع إلى التآمر على إبعاد هؤلاء أو تقديم غيرهم ، بل سارت الأمور سيرا طبيعيا فى مناقشة هادئة ، أو ثائرة ، بين من توهموا أنهم أصحاب الحق ، مهاجرين وأنصارا ؛ وانتهت هذه المناقشة إلى استقرار الأمر لأبى بكر .

رابعا : كان العرب فى جاهليتهم يُكبرون ذوى السنّ ، ويَقدرونهم

ويكلون إليهم أمورهم فى قبائلهم . وقدردّت وفاة الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، هؤلاء العرب إلى تقاليدهم القديمة يستوحونها فى أمرهم . فمن المعقول أن يفكروا فى ذوى السن منهم وبخاصة إذا اجتمع لهم ، فى هذا الظرف الجديد ، دين وعقل وحكمة . وواضح أن عليًّا ، كرّم الله وجهه ليس من ذوى السن المتقدّم ، كما أنه لم يتمرس بما تمرّس به الشيوخ الكبار من خبرة وتجربة ، وإن كان من السابقين إلى الإسلام . فمن الطبيعى ، فى ضوء هذه التقاليد أن ينصرف النظر عنه إلى الشيوخ ، وأن ينحصر النقاش فيمن يصلح من هؤلاء الشيوخ ليتولى رئاسة هذه القبيلة الكبيرة الموّحدة فى ظل الدين الجديد .

خامسا : يدل الحديث الذى دار بين العباس وعلىّ رضى الله عنهما، قبيل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، على أن عليًّا ، كرّم الله وجهه رأى أن الأمر ليس فقط بمجرد القرابة والصلة من رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وبأنه ليس حقا لآل البيت دون سواهم ؛ كما رأى ألاّ يناقش الوضع مع الرسول ، عليه السلام ، حتى لا يحرم نفسه وقرابته من حق مشاع بين المسلمين جميعا ، وهو الخلافة ، إذا حدث ونصّ رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، على حرمانهم منه .

ويدل هذا الحديث أيضا على أن العباس لم يجرؤ على المطالبة بالخلافة لنفسه ، مع أنه عم النبي ، صلى الله عليه وسلم ، لا ابن عمّه ، وله من القرابة وتقدم السّنّ عندئذ مايؤهله لها ؛ وذلك لأنه أدرك أيضا أنه لم يكن من السابقين إلى الإسلام . فالقرابة من الرسول مع السبق إلى الإسلام وحدهما غير كافيين . وكبر السن والخبرة والحكمة والتجربة وحدها ليست كافية إن

لم يصحبها جميعا سبق إلى الإسلام وطول جهاد إلى جانب الرسول ، ﷺ ، لإعلاء كلمة الله وخدمة دينه .

وهكذا يمكننا أن نقول إن مشكلة الخلافة عندما نشأت بعد وفاة الرسول ، ﷺ ، مباشرة لم تأخذ الشكل الذى أخذته بعد ذلك بتقدم الزمن وتطور الحوادث ، ولم يكن هناك أىّ داع مستمد من الدين أو من تقاليد العرب القديمة التى اعترف بها الدين يدعو إلى أن تتخذ هذا الشكل . وهذا يعنى ايضا أن مايحاول بعض المؤرخين أن يستنتجوه من تآمر بين أبى بكر وعمر وأبى عبيدة على أمور المسلمين للاستئثار بها دون أهل البيت ليس إلا حديثا هزيلا يعوزه ما يؤيده من وقائع التاريخ وحقائقه .

وما ذكره عمر عندما حضرته الوفاة عن أبى عبيدة : « لوكان أبو عبيدة حيا استخلفته » حديث له بقية ، ذلك أنه أو ضح هذا بقوله : « فإن سألنى ربى ، قلت سمعت نبيك يقول إنه أمين هذه الأمة » . وقد قال عمر شيئا يشبه هذا عن شخصية أخرى أيضا : « ولوكان سالم مولى أبى حذيفة حيا استخلفته ، فإن سألنى ربى قلت : سمعت نبيك يقول إنه شديد الحب لله » . فالأمر لم يَعْدُ أن يكون اجتهادًا من عمر فى النظر فى أمور المسلمين انتهى به إلى تعيين مجلس الستة لاختيار الخليفة ، وقد أشرنا إلى ذلك من قبل .

° ° °

ونقطة ثالثة لايسعنا المرور بها دون أن نتحدث عنها ، وذلك لصلتها المباشرة بقيام دولة العباسيين ، هى العلاقة بين العلويين والعباسيين فى تطور مشكلة الخلافة ذلك التطور الذى انتهى ، سنة ١٣٢ هـ ، بقيام دولة عباسية أعلنت الحرب على العلويين بعد أن تظاهر مؤسسوها بأنهم إنما يعملون لرفع الغبن عن بنى عمومتهم .

يحاول كثير من المؤرخين أنه يثبت أن عليّ بن أبي طالب ، كرّم الله وجهه ، كان صاحب الحق الأول فى خلافة الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، وأن كثيرا من العناصر العربية وغير العربية ، لم تدخل فيما دخلت فيه الجماعة أيام أبي بكر وعمر إلاّ عن أمل فى أن يعود الأمر إلى نصابه ويتسلم عليّ قيادة المسلمين . ثم يذكر المؤرخون المسلمون أن بعض العناصر ، أو الشخصيات ، التى كانت تؤمن بهذا الحق لم تكتف بأن تقف موقفا سلبيا من تطورات الحوادث ، وإنما حاولت القيام بعمل إيجابى تحقق به الهدف الذى كانت تؤمن به . ويذكر هؤلاء المؤرخون أن من أبرز الشخصيات التى بدأت باتخاذ هذا الموقف الإيجابى عبد الله بن سبأ اليمنى ، الذى كان يهوديا قبل إسلامه ، وينسبون إليه أنه كان يقف فى طريق عليّ ، كرم الله وجهه ، صائحا : أنت أنت . أنت هو ؛ يرمز بذلك إلى حلول الروح الإلهيّة فى عليّ ، ويدعو إلى أنه صاحب الحق فى الخلافة بسبب ذلك إلى جانب قرابته من الرسول[1] .

وسواء أصحت هذه القصة المنسوبة إلى عبد الله بن سبأ أم أعوزها البرهان فمن المؤكد الثابت أن انتخاب عثمان بن عفان ، رضى الله عنه ، للخلافة فى مجلس الستة شابه شىء من عدم الرّضا ، إذ انحصر الأمر فى نهاية المناقشة ، بتوجيه عبد الرحمن بن عوف ، بين عليّ وعثمان . فدعا ابن عوف عليّا وقال له : « عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله ، صلى الله عليه وسلم ، وسنة الخليفتين من بعده » . فقال عليّ : « أرجو

(١) قيل إن عبد الله بن سبأ شخصية خيالية من اختراع العرب . ومناقشة هذه الفكرة ليست فى صميم موضوعنا ، ونكتفى هنا بأن نلاحظ أن الروايات العربية تذكر أن ابن سبأ قام بدعايته فى الحجاز والكوفة والبصرة ومصر ؛ وأن الثورة التى قامت ضد عثمان بالمدينة ، وهى ليست على إنكار أوجدل ، كان فيها ممثلون لكل من البصرة والكوفة ومصر !

أن أفعل وأعمل بمبلغ علمي وطاقتي». فاستدعى عبد الرحمن بن عوف عثمان بن عفان وأعاد عليه ما قاله لعليّ ، فقال : « نعم » ! فبايعه عبد الرحمن بن عوف بالخلافة ، ثم أخذ الناس يبايعونه . وعندئذ قال عليّ بن أبي طالب : « سيبلغ الكتاب أجله » . وبدأ بعض المجتمعين في المسجد يتحدثون معترضين ، فشق عليّ الصفوف وتقدم إلى عثمان مبايعاً ، وحال بهذه الخطوة دون اشتعال الفتنة .

واجتمع رأى القوم على عثمان الذى لم يستطع أن يفي بوعده الذى قطعه على نفسه بأن يعمل « بكتاب الله وسنة رسوله وسنة الخليفتين من بعده » ؛ وساءت سياسته في الناس برغمه فثار الناس . ووالاه عليّ ، كرم الله وجهه بالنصح ، ولكنه كان نصحاً إلى ضياع ، إذ لم يسمع عثمان ، دائما ، أو غالبا ، إلى رأى عليّ . واضطربت الأمصار ، ووفد الساخطون على المدينة ، وقتل عثمان ، وبايع الثائرون عليا ، وخرج معاوية برجاله بالشام يطالب بدم عثمان .

وبدأت العصبية القاتلة تعمل عملها وتنفث سمومها بين فريق المسلمين . وفي هذه الفتنة نجد أن الهدف الظاهر من ثورة الأمصار كان إصلاح الولاة ، وإن كان اسم عليّ قد تردد في أثناء هذه الثورة ؛ وأن الهدف الظاهر من ثورة معاوية ورجاله كان المطالبة بدم عثمان ، وأن المطالب بهذا الدم أمير للمؤمنين معترف به من جماعتهم ، فيما عدا أهل الشام ؛ وأن الحكم بين الفريقين السيف ، والمؤامرات ، والدعوة العصبية التي حاربها الإسلام .

فالفتنة في أولها ليست نزاعا بين العلويين وغير العلويين ، وليست حول الخلافة وفيمن تكون : أفي آل البيت أم في غيرهم .

ثم تتطور الأمور في عهد عليّ ، وتتفاقم وتنتصر جيوش أمير المؤمنين

التى اجتهدت فى إخماد الفتنة وفى رد المسلمين إلى كلمة الله ، لولا دسيسة أخيرة يائسة تظهر فى شكل الاحتكام إلى كتاب الله ، فيزداد التفرق بين المسلمين . ثم يقتل علىّ ، ويبايع أهل الكوفة ابنه الحسن ، ويدرك الحسن أنه غير أبيه، وأن كثيرا ممن ناصر أباه إنما ناصره لشخصه ولمكانته السابقة فى الإسلام إلى جانب ابن عمه صلى الله عليه وسلم . كما يرى أن كثيراً من أهل الكوفة الذين كانوا أنصارا لأبيه أصبحوا من جماعة الخوارج . فيخلع الحسن نفسه ويسلم الأمر إلى معاوية ، وينتقل زمام المسلمين إلى نوع آخر من الناس ، وتوافق الجماعة وتطيع فيما عدا فريق الخوارج .

وفى هذه المرحلة يتولى عبد الله بن عباس إمارة البصرة من قبل علىّ أمير المؤمنين ثم يعتزلها قبيل مقتل علىّ ، أو بعده ، ويرحل إلى الطائف مقيما بها ، ويوليه معاوية بعطاياه ويظهر له احترامه . ويبقى عبد الله بالطائف حتى ينتقل إلى جوار الله سنة ٦٨ هـ .

وإلى هنا يبدو بوضوح أن فكرة « التشيع » لم تكن قد ظهرت بشكلها الذى عرفه التاريخ فيما بعد ، كما يظهر أن المسلمين قد التأم جمعهم وتوحدت كلمتهم بخلافة معاوية .

ويظل الهدوء سائدا ، بصفة عامة ، فى ظل معاوية حتى يبايع لابنه يزيد ، فتهب الزوبعة من جديد ، وتخرج عليه جماعات مختلفة من المسلمين فى أماكن متفرقة ، من هاشميين وعلويين وخوارج شراة . ويكاتب أهل الكوفة الحسين ابن علىّ ، فسار إليهم بروح فدائية ، فى جمع قليل على معرفة بخذلان أهل الكوفة لأبيه ، ثم لأخيه ، ورغم نصيحة كبار أهل البيت له بالإقامة ، وقتل الحسين ، رضى الله عنه ، فى الطريق إلى الكوفة ، ونكل بأهل بيته أشد تنكيل .

وكما أشعل مقتل عثمان فتنة من نوع خاص ، أثار استشهاد الحسين فتنة

من نوع جديد ، اشترك فيها بنو هاشم الذين أدركوا ، عندئذ ، ما ينتظرهم من مصير على أيدى الأمويين .

والتقت أهداف بعض العناصر الساخطة ، وبخاصة من جماعة الموالى ، ومن الفرس عامة ، بأهداف الهاشميين ، والعلويين، فخرج المختار بن أبى عبيد الثقفى بالكوفة ، مبايعا ولدا ثالثا لعلىّ هو محمد بن الحنفية ، زاعما أنه هو الذى أرسله للأخذ بثأر الحسين، ولقّبه « بالمهدىّ » . ولكن عبد الله بن الزبير[1] نجح فى القضاء على ثورة المختار ، وساعده على هذا ما ظهر للهاشميين من عدم إخلاصه وما شاب حركته من مبادىء مبهمة غامضة .

وهنا نتوقف قليلا لنلاحظ أن آل العباس لم يتقدموا الصفوف فى الحركات التى ظهرت منذ عهد عثمان ؛ وأن عليّا وابنه الحسين كانا من أعزّ ضحايا هذه الحركات ؛ وأن الحسن بن علىّ ضحية أخرى وإن لم يستشهد مثل أبيه وأخيه ؛ وأن رابع المطالبين بالخلافة كان من ولد علىّ أيضاً . وهكذا تتعاون الظروف على حصر الأمر فى علىّ وأولاده ، مع أن كثيراً من الهاشميين ومن غيرهم ، قد أصابهم شىء من الضّرّ بالسجن أو بالتعذيب .

ونلاحظ أيضاً أن انتقال الخلافة ، فعلا أو مطالبة ، إنما كان من على إلى الحسن ثم إلى الحسين ثم إلى محمد بن الحنفية .

ولكن محمد بن الحنفية ينزع ثقته من المختار ، داعيته ، ويبايع بعد هذا عبد الملك بن مروان . ومع هذا بقى قوم ممن تشبعوا بدعاية المختار ، على ولائهم له رغم هذه البيعة ، ثم بايع بعض هؤلاء ، بعد وفاته ، ابنه أبا هاشم .

ويعترف أبو هاشم أيضاً بخلافة الأمويين ويزور الخليفة سليمان بن عبد الملك

---

(١) وكان هو أيضا قد خرج بالحجاز وعظم أمره فانضمت إليه مصر والبصرة ثم العراق إلى أجل .

فى دمشق ويقيم فى جواره فترة ، ثم يرحل عائداً إلى الحجاز ، ويعرّج على بنى عمه من آل العباس بالحيمة ، إنقطاعهم من بنى أمية ، يستريح من وعكة ألمّت به ، فتشتد علته ويحس بقرب منيته ، فيَـذيع فى أتباعه أنه أقام آل العباس أوصياء على دعوته .

وينتقل ولاء هذا الفرع من الشيعة إلى آل العباس الذين عملوا بحكمة ودهاء ، فى صبر وأناة ، على جمع العلويين ، والهاشميين ، والساخطين من غير العلويين والهاشميين ، فى حركة واحدة منظمة يستردون بها السيطرة من الأمويين . وكانت دعوتهم فى ذلك « للرضا من آل محمد » ، وهو هدف يجمع ، من غير شك ، قلوب أنصارهم على اختلاف نزعاتهم ؛ وبه تمكنوا من الدعاية ، ثم من العمل ، لإعلان الدولة العباسية فى سنة ١٣٢ هـ .

الفصل الثاني

قيام الخلافة العباسية

اجتمعت كلمة المسلمين على معاوية بعد تنازل الحسن بن على عن الخلافة، ومن لم يرض من المسلمين عن الأوضاع الجديدة اعتزل النشاط العام . وبهذا استقر الأمر بعد أن مر المسلمون بتجربة قاسية جعلتهم شيعا وفرقا متنافرة منذ أواخر عهد عثمان .

لكنّ هذا الاجتماع حول راية معاوية كان بمثابة هدنة مؤقتة فى ميدان ممتلىء بالمتفجرات مضطرب بالإحن والعداوات . ولذا كان من المتوقع أن تشتعل الفتن من جديد بمجرد اقتراب عود الثقاب من مخزن المتفجرات .

وقد كان معاوية نفسه مُشعل الثقاب عندما أفصح عن عزمه على البيعة لابنه يزيد من بعده . وأدت خلافة يزيد وتوليه أزمة أمور المسلمين إلى شعور شامل بالسخط وعدم الرضا ، ذلك الشعور الذى تجمع ليظهر فى حركات ثورية ثلاثة من نوع واحد وإن اختلف القائمون بها طبيعة وميولا. فنى الكوفة حركة هادئة تدعو الحسين بن على إلى القدوم إلى العراق حيث يعلنه أهلها خليفة للمسلمين ، ويعقب هذه الدعوة مقتل الحسين ثم ثورة المختار بن أبي عبيد الثقفى ودعوته لمحمد بن الحنفية ، ابن على . وفى المدينة ثار أولاد الأنصار غضبا لهذا الدين الذى جاهد آباؤهم لإعلاء كلمته ، فإذا

بآل أمية ينحرفون به عن طريقه المستقيم ويجعلون منه ملكا عضودا يخدم أغراضهم ، ويستخدمونه للتنكيل بأهله العاملين به من أهل مدينة الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه . وفى مكة يتجمع الهاشميون ، بعامة ، حول ثائر ثالث على بنى أمية هو عبد الله بن الزبير الذى فاز فى حركته بتعضيد لم يحظ به أولاد الأنصار فى المدينة أو أنصار العلويين بالكوفة ، إذ نجح فى إعلان نفسه خليفة وانضمت إليه مصر والعراق ، وفكرت الشام نفسها فى البيعة له لاضطراب الأمر عندئذ داخل البيت الأموى .

والذى يعنينا فى هذه المرحلة هو أن نلاحظ أن العباسيين كانوا قد استقروا فى الحميمة ، قريبا من دمشق ، مستمتعين بإقطاعهم الذى فازوا به من معاوية ، مسالمين لبنى أمية . وأن مسير الحسين إلى الكوفة كان برغم مشورة أهل بيته وبقية أقربائه من الهاشميين الذين كانوا يرون ، عندئذ ، أن الثمرة لم تكن قد نضجت بعد ، أو أن الحسين رضى الله عنه لم يكن ليستطيع قطفها ، وإن استطاع قطفها لم يكن ليحسن الانتفاع بها . وأن نلاحظ كذلك أن عبد الله بن الزبير نفسه لم يكن يستطيع ، رغم هذا ، أن يدعو لنفسه والحسين مقيم فى مكة ، ولكنه استطاع بعد هذا أن يظهر دعوته وأن يقبض على محمد بن الحنفية ، أخى الحسين ، ويحبسه فى سجنه ؛ ثم ، بعد فرار ابن الحنفية إلى العراق ، يوجه جيوشه للقضاء على ثورة المختار بن أبى عبيد ، داعية ابن الحنفية .

فالعلويون فى هذه المرحلة ضعفاء ، والعباسيون مسالمون معاهدون . ولكن نهاية هذه المرحلة تتيح الفرصة لمن يستطيع انتهازها ، وقد كان هؤلاء المنتهزون من جماعة الفرس ومن الموالى الساخطين الذين تشبعوا

بفكرة الحق الإلهي وتظاهروا بحمل الراية العلوية بعد أن سقط صاحبها — الحسين — شهيداً في ميدان الحق .

ويظهر المبدأ الشيعي عندئذ فكرة واضحة لها أنصار يؤازرونها من العامة وقادتهم . وإن أظهر العلويّ صاحب الدعوة سخطه عليها سارع الأنصار من القادة إلى إعلان أن الإمام إنما يفعل هذا « تقية » ، وإن توفى أو اختفى أعلن الأنصار أنه لم يمت وأنه سيعود من غيبته « ليملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا » . ومن الطبيعي أن هذه الأفكار الغريبة لم تكن لترضى العلويين آل البيت فكانوا ينكرونها ويعتزلون القائلين بها وينفضون أيديهم منها . وهذا يفسر الانقسام المستمر في الحركة الشيعية الحزبية ، التي لم تبدأ خالصة نقية ، إذ كان أصحاب هذه الأفكار يلتمسون من الشخصيات العلوية ، دائما ، من يستترون وراءه ويتظاهرون بالدعوة له . وهو يفسر أيضا ضعف الحركة العلوية الخالصة التي كان يعوزها من يعمل لها عن عقيدة ويجاهد في سبيلها عن إيمان .

وعلى أية حال فقد التف قوم حول أبي هاشم بن محمد بن الحنفية يدعون له ، بعد وفاة أبيه[1] ، وفعل أبو هاشم ما فعله أبوه من قبله إذ اعترف بخلافة الأمويين . وفي عودته من زيارة قام بها لسليمان بن عبد الملك ، مرّ

---

(١) زعم قوم في هذه المرحلة المبكرة أن محمد بن الحنفية لم يمت وأنه الإمام المهدى الذى سيعود ليملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا وفى ذلك يقول شاعرهم :

ألا إن الأئمة من قريش ... ولاة الحق أربعة سواء
علي والثلاثة من بنيه ... هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط إيمان وبر ... وسبط غيبته كربلاء
وسبط لا يذوق الموت حتى ... يقود الخيل يقدمها اللواء
تغيب لا يرى فيهم زمانا ... برضوى ، عنده عسل وماء

على الحميمة حيث يقيم بنو عمومته العباسيون ، وهناك دهمه المرض ، فقيل إنه ظن أن سليمان بن عبد الملك دسّ له السم ، فتنازل عن حقه فى الإمامة لعلى بن عبد الله بن العباس ، وانتقل ولاء أنصاره إلى الفرع العباسىّ الذى بدأ منذئذ جهوداً منظمة انتهت بإعلان الدولة العباسية .

ولا يهمنا هنا أن نفصّل الحديث عن هذه الجهود التى قام بها العباسيون سرا وعلنا ، حتى انتهى الأمر بتسليمهم زمام الأمور ، ولكننا نلاحظ فى هذه الجهود أمورا رئيسية نودّ إبرازها وتقريرها بوضوح .

نلاحظ أولا أن العباسيين كانوا يبذلون كل طاقة ممكنة حتى يصرفوا نظر الأمويين ورجالهم عن المركز الرئيسى لنشاطهم التنظيمى وهو الحميمة حيث قام محمد بن على ، فى حياة أبيه ، ثم بعد وفاته فى سنة ١١٧ هـ ، على تنظيم الدعوة واختيار الدعاة والنقباء الذين حملوا عبئها فى الكوفة وفى خراسان. وقد حاولوا كذلك أن يكون الطريق الذى يسلكه الدعاة فى ترددهم بين خراسان والحميمة من الطرق الرئيسية التى يكثر استخدامها حتى لا ينكشف السر فى كثرة تردد الدعاة جيئة وإيابا بين الشرق والغرب . ولهذا اختير طريق الكوفة — خراسان التجارى ، وتزيّا الدعاة والنقباء بزىّ التجار ، وتظاهروا فعلا بالاشتغال بالتجارة، ولم يُسمح لأحد منهم بالاتصال بالحميمة إلا عن طريق المشرف على الدعوة بالكوفة . وهكذا لم ينكشف أمر الحميمة إلا فى آخر مراحل الحركة وقبيل انتقال أقطاب البيت العباسىّ إلى العراق سنة ١٣٢ هـ .

ونلاحظ ثانيا أن معظم النقباء والدعاة ما كانوا يعرفون ، عن يقين ، شخصية الإمام الذى كانوا يدعون له ، وإنما كانوا يدعون « للرضا من آل محمد » . وهى دعوة غامضة يظنها العلويون المخلصون وأنصارهم من أجلهم

ويعتقد الخراسانيون أنها إنما تعنى صاحب « الحق الإلهى » ويُحسن العباسيون استخدام الفريقين واستغلالهم ، وهم بهذا أيضا يزيدون فى تعمية الأمر على الأمويين ورجالهم ، إذ يتركون الأمويين على اعتقادهم بأن القائمين على هذه الدعوة المستورة إنما هم من بيت علىّ .

ونلاحظ ثالثاً أن العباسيين كانوا يقدّرون أنهم لن يجدوا ، فيما بعد ، تأييداً من العلويين ، أو من الهاشميين أو من العرب عامة . ولهذا انصرف جل اهتمامهم إلى اختيار الأنصار من الفرس عامة ، والخراسانيين خاصة ؛ وإلى أن تكون المراكز الرئيسية فى الدعوة لهؤلاء وللموالى الذين اشتد اتصالهم بهم . وفى توجيهاتهم لخاصّة الدعاة كانوا يوضحون سرّ هذا المسلك ، فمن ذلك قول محمد بن على فى خطاب له إلى بعض دعاته :

« أما الكوفة وسوادها فشيعة علىّ وولده ؛ وأما البصرة وسوادها فعثمانية تدين بالكف وتقول : كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل ؛ وأما الجزيرة فحرورية مارقة ، وأعراب أعلاج ، ومسلمون فى أخلاق النصارى ؛ وأما أهل الشام فليس يعرفون إلاّ آل أبى سفيان وطاعة بنى مروان ، وفيهم عداوة راسخة ، وجهل متراكم ؛ وأما مكة والمدينة فقد غلب عليهما أبو بكر وعمر ... ولكن عليكم بخراسان ، فإن هناك العدد الكثير والجَلَد الظاهر ، وهناك صدور سليمة ، وقلوب فارغة ، لم تتقسمها الأهواء ، ولم تتوزّعها النحل ، ولم يقدح فيها فساد . وهم جند لهم أبدان وأجسام ، ومناكب ، وكواهل ، وهامات ، ولحى ، وشوارب ، وأصوات هائلة ، ولغات فخمة ، تخرج من أجواف منكرة ... وبعد ؛ فإنى أتفاءل إلى المشرق مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق » ⁽¹⁾.

فنى هذا النص دراسة تحليلية لمناطق التجمع العربية ، وميول كل فريق منها ، ومدى ما يُتَـوقَّع منها من مؤازرة وتأييد لقضية العباسيين ؛ وهو مدى محدود ، بل هو فى الواقع غير موجود .

ولهذا لا نستغرب من إبراهيم الإمام ، العباسى ، القائم على الدعوة بعد وفاة محمد بن على ، أن يقول فى نصيحته لأبى مسلم .

« . . . وإن استطعت ألاّ تدع بخراسان لسانا عربيا فافعل . . . !! فأيُّما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله . . . !! » .

ونلاحظ رابعا تقدير العباسيين لخطورة العنصر العربى فى تجمعه وتكتله ، أو فى الأقل فى سَلْمه ومهادنته ، على حركتهم ودعوتهم ؛ ولذلك يضعون نصب أعينهم أن يشيعوا فيه الفرقة والتنازع ، وأن يزيدوا نار العصبية التى كانت قد اشتعلت بين بعض قبائله ، وبخاصة فى خراسان ، لهيبا وضراما ، حتى يكون هذا التفكك فى الوحدة العربية عاملا من عوامل انتصارهم فى مرحلة الإعداد ، ثم عند العمل الجدّىّ لإقامة بنيان الدولة ، ثم عند توطيد أركانها فور إعلانها . ويدلنا على هذا نصيحة إبراهيم الإمام ، مرّة أخرى ، لأبى مسلم عندما وجهه إلى خراسان وفيها من العرب يمنيون ومضريون وربعيون . يقول الإمام :

« . . . انظر هذا الحىّ من اليمن وحُلّ بين أظهرهم ، فإن الله لا يتم هذا الأمر إلاّ بهم ؛ وانظر هذا الحى من ربيعة فاتهمهم فى أمرهم ؛ وانظر هذا الحىّ من مضر ، فإنهم العدو القريب الدار ، فاقتل من شككت فيه ، ومن كان فى أمره شبهة ، ومن كان فى نفسك منه شىء » !!

وقد عمل أبو مسلم بهذه النصيحة ، فقيل إنه قتل من اتهمه ، ووقع

فى نفسه منه شىء ، نحو ستمائة ألف شخص . وعندما قرر بدء النشاط الحربى وجد أن نصر بن سيّار ، والى الأمويين على خراسان وزعيم المضريين ، يحاول الاتفاق مع شيبان الحرورى زعيم الربعيين والخارج على بنى أمية غضبا لله ؛ وقد كتب نصر إلى شيبان : « إن شئت فكُفّ عنى حتى أقاتله ، وإن شئت فاتفق معى على حربه حتى أقتله أو أنفيه » . فعمل أبو مسلم على استمالة زعيم اليمنيين ، على بن الكرمانى ، ثم على استخدامه فى الحيلولة دون تحالف الربعيين والمضريين ، ثم اجتهد فى الوقيعة بينه وبين المضريين .

ثم نشبت الحرب بين اليمنيين والمضريين ، وتظاهر أبو مسلم بنصرة اليمنيين حتى بدأت المعركة فتسلل إلى مرو ، حيث دار الإمارة ، وتسوّرها ، واحتل دار الإمارة والقتال على أشده بين نصر بن سيّار الوالى المضرى وعلى الكرمانى الزعيم اليمنى ؛ فأمر الفريقين أن يكفّا عن القتال ، ودخل القصر وهو يتلو قول الله تعالى : « وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ ، هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ » . !!

وكان من مبادىء أبى مسلم التى يشيعها بين جنوده : « أكثروا ذكر الضغائن فإنها تبعث على الإقدام » .

وبعد فقد أحسن العباسيون اختيار الأنصار ، واستغلال الأهل والأقارب ، وانتهاز الفرص ، وتوقيت الحركة . . . ! وجلس أبو العباس السفاح أخيرا على منبر الكوفة ، مريضا ، ووقف بين يديه عمه داود ابن على يقول : « إنّا والله ماخرجنا لنحفر فيكم نهرا ولا لنبنى فيكم

قصرا . . . إنما أخرجنا الأنفة من ابتزازهم حقنا ، والغضب لبني عمنا ، وما كرثنا من أموركم وبهظنا من شئونكم . ! . . . » ألا وإنه ما صعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب ، وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد » ، وأشار إلى السفاح . فكان هذا إعلانا بقيام دولة بني العباس وزوال ملك بني أمية . . . ولله في خلقه شئون « يُعطِي المُلْكَ مَنْ يَشاء ، وَيَنزِعُ المُلْكَ مِمَّنْ يَشَاء ! » .

الفصل الثالث

محاولات العباسيين للاستقرار

يميل كثير من المؤرخين إلى تصوير قيام الدولة العباسية بأنه انتصار للعنصر الفارسي على العنصر العربي ، ذلك الانتصار الذى جاهد الفرس لتحقيقه منذ قضى الإسلام المنطلق من شبه الجزيرة العربية على أمجادهم وسيطر بنجاح على أوطانهم . ويوضح هؤلاء المؤرخون رأيهم هذا بموقف الأمويين من الموالى فى عهدهم إذ جعلوا من هؤلاء الموالى طبقة تتواضع فى مكانتها عن طبقة الأرستقراطية العربية ، لايجوز لها أن تدّعى لنفسها مساواة بالعرب الأمجاد ، أو تتطلّع إلى تحقيق ما دعا إليه الإسلام من أنه « لافضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » .

ولهذا انتهز الفرس فرصة خروج العلويين على الدولة الأموية ، فى مناسبات مختلفة ، فأيدوهم فى خروجهم واستتروا وراء حركتهم علّهم يستطيعون زعزعة بنيان الدولة العربية الأموية ، ومن ثَمّ يستعيدون لبلدهم عزه ومجده وينشرون سلطانهم على أنقاض الحكم الأموىّ .

والواقع أن حلول العباسيين محل الأمويين فى زعامة الدولة الإسلامية لم يكن مجرد تغيير فى الأسرة الحاكمة ، وإنما كان ثورة فى تاريخ الإسلام تم التمهيد لها وتنفيذها خلال مدة طويلة ، بحكمة وحذر وبصبر ودقة . وائتلفت فى سبيل نجاحها فئات مختلفة جمعت بينها رغبة مشتركة قوية هى إسقاط

الحكم الأموى . أما مايحدث بعد ذلك ، أى بعد تحقيق هذا الهدف القريب ، فأمر تقرره الظروف ، ويكون الفوز فيه للدهاء والحذر ، والسرعة والبصر .

والعلويون ، كما لاحظنا فى الفصل السابق ، متنافرون متباعدون ، لاتجمعهم كلمة واحدة ، ولا يستندون إلى أنصار مخلصين مؤمنين بهم ، ولا يرضون عما يُدَس على حركتهم من مبادئ ملتوية غامضة تتنافى مع صراحة الإسلام ووضوحه وما يدعو إليه من عدالة اجتماعية شاملة .

والمتهزون ، وفيهم عندئذ كثير من الفرس ، لايجرءون على الظهور فى حركات ثورية قومية ، ولا يستطيعون مقاومة واضحة للحكم الإسلامى الأموى رغم ماقرره ، من الناحية العملية ، من الطبقية التى جعلت العرب فى مكان الصدارة وأخرت غيرهم إلى ماوراء ذلك . ووسيلة هؤلاء المتهزين ، إذن ، للتعبير عن سخطهم وللتنفيس عن شعورهم ، اشتراكهم فى الحركات الثورية ضد الدولة ، وفيها حركات الخوارج وحركات العلويين . وقد أتاحت لهم حركات العلويين بصفة خاصة فرصا ذهبية لتفريق الوحدة العربية واستغلال العصبية الجاهلية فى هذا السبيل . وبهذا خضعت الحركة العلوية ، لا العلويون أنفسهم ، لتوجيهات هؤلاء المتهزين ولسيطرتهم .

والعباسيون رغبوا فى أن يكون لهم من الأمر شىء بتعاونهم مع العلويين ؛ ولكن هؤلاء ، بوضوحهم وصراحتهم وباستقامتهم ، لم يستسلموا لسياسة العباسيين الموجهة المتأنية الدبلوماسية ؛ فانصرف هؤلاء عنهم ، ولم يشتركوا فى حركاتهم الثورية ضد الأمويين . وبقى العباسيون فى عزلتهم المسالمة للأمويين حتى أتاح لهم أبو هاشم ، حفيد علىّ كرم الله وجهه ، فرصة العمل حين أدلى بحقه فى الإمامة إليهم ، فأحسنوا اختيار الأنصار ،

واستغلال الأهل والأقارب ، وانتهاز الفرص وتوقيت الحركة ، ونجحوا في إقامة دولة تزعموها زمنا يزيد عن خمسة قرون .

وبهذا نستطيع أن نقول إن العامل العنصرى كان عاملا رئيسيا فى الثورة على الأمويين ، وأن العباسيين اعتمدوا فعلا على العنصر الفارسى فى الدعوة لحركتهم وفى إقامة دولتهم رغم اشتراك العنصر العربى ، إلى حدما ، فى الدعاية وفى الجيش الزاحف لتقويض أركان دولة الأمويين . ولكن لايسعنا إلا أن نفرق فى المعسكر الفارسى بين العامة والخاصة ، بين الشعب والزعماء . فالشعب فى مجموعه استجاب للدعوة «للرضا من آل محمد» ، وعمل أفراد هذا الشعب فى سبيلها ، لعلهم بذلك يعيدون «الحق الإلهى» لأصحابه ، وهم بذلك أيضا يعملون على تحسين مستواهم الاجتماعى ولتحقيق مبدأ المساواة الذى دخلوا الإسلام مطمئنين إلى تحقيقه وإن كان الأمويون لم يلتزموا بتطبيقه . أما الزعماء فقد تستروا وراء العلويين ، وعرضوا خدماتهم على العباسيين ، قبل إقامة دولتهم ، هادفين إلى أن يعود أمر بلادهم إليهم وإلى أن يكبحوا جماح العنجهية العربية المسيطرة عليهم .

أما العباسيون أنفسهم فقد رسموا خطتهم على أساس من الاستعانة بكل القوى الممكنة ومن استغلال الأخطاء التى وقع فيها الأمويون ، ثم على أساس أشد عمقا من هذين وهو القضاء على مصادر القوة والخطر إنْ فى الإفراد وإنْ فى الجماعات ، وسواء أكانت هذه القوة فى العرب أم بين الفرس ، ليكون لهم ، وحدهم ، السلطان والنفوذ وليشيع الضعف والتخاذل والتفكك بين من عداهم . أى أن العباسيين كانوا ، منذ اللحظة الأولى ، على بيّنة من أهداف الجماعات المختلفة التى ناصرتهم ؛ جماعة العلويين ، بعض التكتلات العربية ، جماعة الزعماء الفرس ، جماعة الفرس من العامة ؛

وقدَّروا السياسة التى يتبعونها معهم إن قدر لهم النجاح بإقامة الخلافة العباسية .

* * *

وفى شهر ربيع الأول من سنة ١٣٢ هـ (أكتوبر سنة ٧٤٩) وجَّه أبو العباس السفاح حديثه إلى أهل الكوفة من منبرها ، معلنا قيام الخلافة العباسية مبينا سياستها معهم : « وإنى لأرجو ألا يأتيكم الجور من حيث أتاكم الخير ، ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح ، وما توفيقنا — أهل البيت — إلا بالله ! يأهل الكوفة ، أنتم أهل محبتنا ، ومنزل مودتنا ، أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك ، ولم يثنكم عنه تحامل أهل الجور عليكم ، حتى أدركتم زمننا ، وأتاكم الله بدولتنا ، فأنتم أسعد الناس بنا ، وأكرمهم علينا ... » . ثم أكمل داود بن على ، عم الخليفة ، الحديث نيابة عن أبى العباس فقال : « إنا والله ما خرجنا فى هذا الأمر لنكثر لجينا ولا عقيانا ، ولا لنحفر نهراً ، ولا لنبنى قصراً ، وإنما أخرجنا الأنفة من ابتزازهم حقنا والغضب لبنى عمنا ، وما كرثنا من أموركم ، وبهظنا من شئونكم . ولقد كانت أموركم ترمضنا ونحن على فرشنا ، ويشتد علينا سوء سيرة بنى أمية فيكم ، وخرقهم بكم ، واستذلالهم لكم ، واستئثارهم بفيئكم وصدقاتكم ومغانمكم . لكم ذمة الله ، وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وذمة العباس رحمه الله ، أن نحكم فيكم بما أنزله الله ، ونعمل فيكم بكتاب الله ، ونسير فى العامة منكم والخاصة بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم . . . » .

فالعباسيون ، كما ذكر السفاح وعمه ، أهل بيت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، والعلويون بنو عمومتهم المستضعفون الذين ثار العباسيون غضبا لهم ، والسياسة التى يقوم عليها الحكم الجديد كتاب الله وسنة رسوله ،

صلوات الله عليه ، وإصلاح الأخطاء التى ارتكبها الأمويون بسوء سيرتهم واستذلالهم الناس واستئثارهم بالفىء والصدقات والمغانم . وهذه سياسة جديرة بتأييد الفرس والموالى خاصة الذين عانوا من الأرستقراطية العربية فى عصر الأمويين الشىء الكثير . وهى كذلك جديرة بأن تتيح للعباسيين فرصة الانصراف إلى توطيد أركان حكمهم وتثبيت قواعده وتقوية بنائه .

وقد بادر العباسيون فور إقامة دولتهم إلى تنفيذ خطتهم التى أشرنا إليها فى نهاية الفقرة الأولى من هذا الفصل وهى القضاء على مصادر القوة والخطر إن فى الأفراد وإن فى الجماعات ، وسواء أكانت هذه القوة فى العرب أم بين الفرس . ويتبين هذا بوضوح فى موقفهم من الأمويين ، والعلويين ، والفرس ، وهو ما نزمع الحديث عنه الآن بشىء من التفصيل .

أولا : مع الأمويين :

بنى العباسيون سلوكهم مع الأمويين الذين انهارت دولتهم على أساسين ، أولهما القضاء على كل نفوذ لهم بين أنصارهم والمتعصبين لهم حتى لا يفكروا فى استعادة سلطانهم ؛ وخير وسيلة لتحقيق هذا الهدف هى القضاء على الأمويين أنفسهم . وثانيهما الانتقام الشخصى منهم لما قدموه إليهم ، وإلى الهاشميين عامة ، من إساءة أيام حكمهم . وكلا الأساسين يقضى بتتبع الأمويين أينما كانوا لاستئصال شأفتهم إن كان إلى ذلك من سبيل .

وقد بدأ التنكيل بالأمويين فور قيام الخلافة العباسية ، ومن أمثلة ذلك ما حدث لمروان بن محمد آخر خلفائهم فقد تتبعه عبد الله بن على بالشام حتى لجأ مروان إلى مصر ، وهناك لحقته جيوش العباسيين عند قرية بوصير فقُتل مروان وأرسلت رأسه إلى عبد الله بن على بالشام ؛ وقد أرسلها

عبد الله بدوره إلى أبى العباس السفاح الذى خرّ ساجدا لله ثم رفع رأسه وقال : « الحمد لله الذى أظهرنى عليك ، وأظفرنى بك ، ولم يُبق ثأرى قِبلك وقبل رهطك أعداء الدين[1] » . وزاد على ذلك ترديده لقول الشاعر :

لو يشربون دمى لم يَرْوَ شاربهم ... ولا دماؤهم للغيظ تُروينى

ومن ذلك أيضاً ما فعله السفاح بسليمان بن هشام بن عبد الملك الذى كان فى مجلسه مطمئنا إلى الأمان الذى حصل عليه من الخليفة ، وإذا بِرَجُل لأبى العباس ينشده :

لا يغرّنك ما ترى من رجال ... إنّ تحت الضلوع داء دويّا

فضع السيف وارفع السّوط حتى ... لا ترى فوق ظهرها أمويّا

فأمر السفاح فى الحال بقتل ضيفه سليمان .

وقد تتبع عبد الله بن على بالشام من كان من الأمويين رجالا أو أطفالا أو نساء فقتلهم ، ولم يفلت منهم إلا القليل هربوا إلى الأندلس ، وإلاّ بعض الأطفال الرُضّع . ثم زاد على ذلك فنبش قبور أساطينهم معاوية وابنه يزيد وعبد الملك بن مروان وغيرهم ، فلم يجد لأحد منهم جدثا سليما إلا هشام بن عبد الملك فأخرجه وضربه بالسياط ، وصلبه وأحرقه ، وبث رماده فى الهواء . ثم أنشد متشفيا :

بنى أمية : قد أفنيت جمعكم ... فكيف لى منكم بالأول الماضى

يطيّب النفس أن النار تجمعكم ... عُوّضتمُ من لَظاها شرّ مُعتاض

وسلك نواب العباسيين بالحجاز والجزيرة العراقية وواسط وغيرها

---

(١) كان مروان بن محمد قد قبض على إبراهيم الإمام ، أخى السفاح ، وسجنه وقد مات إبراهيم فى عهده .

Hamza Khalifa

نفس المسلك مع الأمويين وأنصارهم حتى قال السفاح أخيراً : « ما أبالى متى طرقنى الموت ، فقد قتلت بالحسين وبنى أبيه من بنى أمية مائتين ، وأحرقت شلو هشام بابن عمى زيد بن على ، وقتلت مروان بأخى إبراهيم ! ! » .

واستمرت هذه السياسة الانتقامية بعد أبى العباس السفاح ماكان إلى ذلك من سبيل ، حتى فى عهد أكثر الخلفاء العباسيين تسامحا واعتدالا ، ونعنى به المأمون الذى أمر بلعن معاوية على منابر بغداد ، وأرسل الكتب إلى الحواضر الإسلامية يأمر نوابه بمثل ذلك .

وتجاوزت سياسة العباسيين مع الأمويين هذا المظهر الانتقامى إلى مظهر آخر سياسى ذلك أن الأندلس استقبلت بعض الهاربين من آل أمية ورحبت بهم ، فتولوا زمامها وأخرجوها عن طاعة آل العباس . وأدرك هؤلاء عجزهم عن استعادة نفوذهم على الأندلس والقضاء على الأمويين بها وأرادوا الوقيعة بينهم وبين جيرانهم الفرنجة ، فأرسل أبو جعفر المنصور الهدايا إلى پيپين (Pepin) مع رسل أقاموا عنده سنين وأنشئوا علاقات صداقة بين الفرنجة والعباسيين . وتأكدت هذه العلاقة الطيبة بين الفريقين أيام المهدى خليفة العباسيين وشارل مارتل ، وكانت الرسل والهدايا المتبادلة بين هارون الرشيد وشارلمان ذروة هذه السياسة التى لم تفلح فى ردّ الأندلس إلى حكم العباسيين أو فى القضاء العاجل على سلطان الأمويين بها[1] .

---

(١) كان أبو جعفر المنصور يظهر قلقه كثيرا من عبد الرحمن بن معاوية بن هشام صاحب الأندلس فى عهده كما كان يقدر عزيمته وجهاده . قال يوما لبعض أصحابه : أخبرونى عن صقر قريش ، من هو ؟ قالوا : أمير المؤمنين الذى راض الملك ، وسكن الزلازل ، وحسم الادواء ، وأباد الاعداء . قال : ما صنعتم شيئا . قالوا : فمعاوية . قال : ولا هذا . قالوا : فعبد الملك ابن مروان . قال : ولا هذا . قالوا : فمن يا أمير المؤمنين ؟ قال : عبد الرحمن بن معاوية الذى عبر البحر ، وقطع القفر ودخل بلدا أعجميا منفردا ، فمصر الأمصار ، وجند الأجناد ، ودون =

ثانيا : مع العلويين :

عندما أعلن أبو العباس قيام خلافة العباسيين ، بالكوفة ، قام عمه عبد الله بن على يوضح سياسة العباسيين ، ومهد لهذا بقوله : « . . . إنما أخرجنا الأنفة من ابتزازهم حقنا ، والغضب لبنى عمنا ، وما كرثنا من أموركم . . . » . فكان الغضب لما أصاب العلويين أيام الأمويين من الدوافع التى برر بها العباسيون خروجهم على الأمويين وعملهم طوال ثلاثين سنة ، أو أكثر من ثلاثين سنة ، على تقويض بنيان حكمهم . وأتم عبد الله بن على بيان السياسة الجديدة من نفس المنبر وفى نفس المناسبة فلم ينس أن يمجد علىّ بن أبى طالب فى حديثه إذ قال : « . . . الا وإنه ما صعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الا أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد ! » .

ولكن تطور الحوادث بعد ذلك لم يلبث أن بيّن ، فى سرعة وبوضوح ، أن العلويين غير مطمئنين إلى الوضع الذى استقرت عليه الأمور ، « فالرضا من آل محمد » لم يكن ليكون ، من وجهة نظرهم ، إلا واحداً منهم ؛ كما أن كثيراً من أنصار الدعوة العباسية السرية كانوا يوافقون العلويين فى هذا الاعتقاد . وهذا أبو سلمة الخلال ، الذى عرف بلقب وزير آل محمد ، يفكر ، بعد أن كادت الحركة السرية والنشاط الحربى ينتهيان إلى قيام الخلافة العباسية ، فى إعلان الخلافة علوية وقد كتب فعلا إلى ثلاثة من زعماء البيت

= الدواوين ، وأقام ملكا بعد انقطاعه بحسن تدبيره . وشد شكيمته أن معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان وذللا صعبه ، وعبد الملك ببيعة تقوم له عقدها ، وأمير المؤمنين يطلب غيره واجتماع شيعته ، وعبد الرحمن منفرد بنفسه ، مؤيد برأيه ، مستصحب لعزمه .

العلوى يدعوهم فيه ، واحداً بعد الآخر ، إلى قبول منصب الخلافة ، ولكنه لم ينجح فى هذه المحاولة[١] .

كما بيّن ، فى سرعة وبوضوح أيضاً ، أن العباسيين أنفسهم لم يكونوا ليقدموا ثمرة جهودهم الصابرة الطويلة لقمة سائغة للعلويين برغم استخدام اصطلاح « الرضا من آل محمد » كشعار غامض التف حوله أنصار العلويين بخراسان والعراق وغيرهما للتخلص من سيطرة الأمويين .

والأمثلة الآتية تصور العلاقة بين العباسيين والعلويين :

١ — عندما أعلنت خلافة العباسيين امتنع محمد بن عبد الله ، النفس الزكية من بنى الحسن بن على بن أبى طالب، عن بيعة أبى العباس السفاح وأبى جعفر المنصور . وخشى المنصور عاقبة هذا الموقف فعمل جاهدا على تغييره ؛ ولكن محمد بن عبد الله اتخذ لنفسه ملجأ اختفى فيه عن أعين المنصور ورجاله ونجح المنصور بدهائه فى إخراجه من مخبئه ، ثم وجه إليه جيشا قويا بقيادة عيسى بن موسى ، ابن عم المنصور ، التقى بجيوش النفس الزكية ، قريبا من المدينة . وسقط الشريف العلوى صريعا فى الميدان بعد أن تفرق عنه معظم أنصاره وتركوه يلاقى مصيره المحتوم أمام جيوش تفوقه عدة وعددا . وأشبه مصرعه بهذا ، ماحدث للحسين بن على كرم الله وجهه عند كربلاء وقد تفرق عنه هو أيضا أصحابه وقعد أهل الكوفة عن نصرته[٢].

---

(١) هؤلاء الثلاثة هم : جعفر الصادق الذى رفض قائلا : مالى ولأبى سلمة وهو شيعة لغيرى ، وعبد الله المحض الذى كاد يقبل فقال له جعفر الصادق : متى صار أهل خراسان شيعتك ، أأنت وجهت إليهم أبا مسلم هل تعرف أحدا منهم باسمه أو بصورته وهل يعرفونك ؟ وعمر بن زين العابدين الذى رد الكتاب قائلا : أنا لا أعرف صاحبه فأجيبه .

(٢) قيل إن العباسيين بايعوا النفس الزكية بالخلافة فى مرحلة الدعوة السرية ضد الأمويين ، =

ولم يكن خروج محمد بن عبد الله المظهر الوحيد لثورة العلويين فى عهد المنصور ، ذلك أن أخاه إبراهيم بن عبد الله خرج أيضا بالبصرة نصيرا لأخيه النفس الزكية وتقوية لحركته التى ظهرت بالحجاز ، ولكن إبراهيم انتهى إلى مثل مصير أخيه ، وعلى يد نفس القائد الذى أوقع بأخيه .

ويلاحظ فى هذه الثورة العلوية المزدوجة أنها لم تقتصر على الحرب المادية فى ميدان القتال ، وإنما صحبتها حرب سياسية تمثلت فى خطب زعماء الفريقين ، إبراهيم ومحمد ابنى عبد الله وأبى جعفر المنصور ، وفى المكاتبات التى تبودلت بين محمد والمنصور وكلها تؤكد أن العلويين لم يكونوا راضين بخلافة العباسيين ، كما أن هؤلاء لم يفكروا فى أن يكون جهدهم الذى بذلوه إنما قصد به خدمة آل على وتنصيبهم رؤساء للدولة الإسلامية .

(ا) خطب محمد ، النفس الزكية فى المدينة منددا بالمنصور وقومه : « أيها الناس ! إنه كان من أمرنا وأمر الطاغية عدوّ الله أبى جعفر مالم يخف عليكم من بنائه القبة الخضراء التى بناها معاندا الله فى ملكه وتصغيرا للكعبة الحرام . وإنما أخذ الله فرعون حين قال أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى . وإن أحق الناس بالقيام بهذا الدّين أبناء المهاجرين الأولين والأنصار المواسين . اللهم إنهم قد أحلّوا حرامك ، وحرموا حلالك ، وأمنوا من أخفت ، وأخافوا من أمنت ، اللهم فأحصهم عددا ، واقتلهم بددا ، ولا تغادر منهم أحدا » .

ويلاحظ فى هذه الخطبة أن النفس الزكية لم يدّع أن أحق الناس بالإمامة هم أولاد علىّ وحدهم ، بل لم يقصر الحق فيها على آل البيت ، وهو ما ادعاه

= كما بايعه جمع كبير من الهاشميين ، وكان من بين المبايعين أبو جعفر المنصور نفسه . ولهذا لعد محمد النفس الزكية من بيعة السفاح بالمدينة ، وكان القائم على هذه البيعة بها أبو جعفر المنصور ، كما امتنع كذلك عن بيعة المنصور عندما تولى الخلافة .

العباسيون ، وإنما ذكر أن « أحق الناس بهذا الدين أبناء المهاجرين الأوّلين والأنصار المواسين » . وذلك لأن العلويين اعتزلوا النشاط السياسى بعد مأساة كربلاء ، إلى حد كبير، ووجهوا معظم جهودهم توجيهاً دينياً من الحجاز ، وبصفة خاصة من المدينة، وعاش معهم هنـاك جمع من الصحابة الأولين والتابعين العاكفين ، ومن هؤلاء أولاد « المهاجرين الأولين والأنصار المواسين » . ولهذا نجد النفس الزكية إنما يتحدث فى الخطبة السابقة عن « هذا الدين » لا عن الإمامة أو الخلافة .

(ب) ومن خطبة للمنصور فى جمع من الخراسانيين يوضح سبب قسوته مع بنى عمه العلويين : « ... وإن أهل بيتى هؤلاء من ولد على بن أبى طالب تركناهم والذى لا إله إلا هو والخلافة ، فلم نعرض لهم فيها بقليل ولا كثير ، فقام علىّ بن أبى طالب فتلطّخ وحكّم عليه الحكمين ، فافترقت عنه الأمة ، واختلفت عليه الكلمة ، ثم وثبت عليه شيعته وأنصاره وأصحابه وبطانته وثقاته فقتلوه . ثم قام من بعده ابنه الحسن فوالله ما كان فيها برجل ؛ قد عرضت عليه الأموال فقبلها ، فدسّ إليه معاوية : إنى أجعلك ولى عهدى من بعدى ، فخدعه ، فانسلخ له مما كان فيه ، وسلمه إليه ، فأقبل على النساء يتزوج فى كل يوم واحدة فيطلقها غداً ؛ فلم يزل على ذلك حتى مات على فراشه . ثم قام من بعده الحسين بن على فخدعه أهل العراق وأهل الكوفة وأهل الشقاق والنفاق والإغراق والفتن ، أهل هذه المدرة السوداء (الكوفة) ، فوالله ماهى بحرب فأحاربها ولا سلم فأسالمها، فخذلوه وأسلموه . ثم قام من بعده زيد بن علىّ فخدعه أهل الكوفة وغرّوه ، فلمّا أخرجوه أظهروه وأسلموه ، وقد كان أتى محمد بن على (بن عبدالله بن عباس) فناشده وسأله ألا يقبل أقاويل أهل الكوفة ، وقال : إنا نجد فى بعض علمنا أنّ بعض أهل

بيتنا يصلب بالكوفة وأنا أخاف أن تكون ذلك المصلوب . وناشده عمى داود بن علىّ وحذره غدر أهل الكوفة ، فلم يقبل ، وأتم على خروجه فقتل وصلب . ثم وثب علينا بنو أمية فأماتوا شرفنا وأذهبوا عزّنا ، والله ما كانت لهم عندنا ترة يطلبونها ، وما كان ذلك كله إلا فيهم وبسبب خروجهم عليهم . ثم بعثكم الله لنا شيعة وأنصاراً ، فأحيا شرفنا وعزّنا بكم أهل خراسان ، ودفع بحقكم أهل الباطل وأظهر حقنا وأصار إلينا ميراثنا عن نبينا صلى الله عليه وسلم . فلما استقرت الأمور فينا على قرارها من فضل الله علينا وحكمه العادل لنا وثبوا علينا ظلما ، وحسداً منهم لنا وبغيا ، لما فضلنا الله به عليهم وأكرمنا به من خلافة وميراث نبيه صلى الله عليه وسلم » .

ونلاحظ على هذه الخطبة الخطيرة أموراً عدة توضح موقف العباسيين ومسلكهم . أولها : أن قادة البيت العباسى فى العصر الأموى كانوا يحاولون دائماً تثبيط همة العلويين ومنعهم من الخروج على بنى أمية ، أوفى الأقل كانوا يمتنعون عن تأييد بنى عمهم فى ثوراتهم التى أشعلوها غضباً لله ، مع أن هذا التأييد كان سيشد من عضد العلويين الثائرين ويساعد على تجميع الرأى العام الهاشمى . وبهذا ترك العباسيون العلويين وحدهم لمحاولاتهم القاصرة التى انتهت باستشهاد بعض أخيارهم .

وثانى ما يلاحظ على هذه الخطبة أن العباسيين ، ويمثلهم المنصور فى هذه المناسبة ، لم يكفهم أنهم اضطهدوا أبناء عمومتهم الذين خرجوا عليهم ، وإنما أرادوا أن يهدموا الدعوة العلوية من أساسها ويثبتوا زيفها وفسادها . وفى سبيل هذا تتبعوا قادة البيت العلوىّ وأصوله بالتجريح والهجوم ، فلم يسلم منهم علىّ كرم الله وجهه الذى حكم عليه المنصور بسوء السياسة حتى « تلطخ وحكّم الحكمين ، فافترقت عنه الأمة واختلفت عليه الكلمة » ، والحسن

رضى الله عنه ، الذى قبل الرشوة من معاوية وانصرف إلى ملاذّه الخاصة يتزوج ثم يطلق ليتزوج مرة أخرى ... وغير هذين من أشراف البيت العلوى الذين لم يسلموا من لسان المنصور وجوارح كلمه .

وثالث مانلاحظه أن العباسيين رأوا أنهم أحق الناس بالخلافة ، فهم أهل البيت ، وهم ورثة النبي صلى الله عليه وسلم من دون علىّ وأولاده . ولذلك لم يكن فى نيتهم مطلقاً حين استعانوا بالخراسانيين ، وبالعلويين ، أن يسلموها إلى أولاد على برغم ماقيل من أنهم إنما بدءوا يفكرون فيها ويعملون لها منذ أتاهم أبو هاشم بن محمد بن الحنيفة عن قومه فى مجاهدة الأمويين من أجلها .

ومع هذا ، يذكر العباسيون أنهم خلّوْا بين العلويين وبينها ، لم ينازعوهم إياها ، مع أنهم أحق بها ، حتى تولاها علىّ ، كرم الله وجهه ، وفشل ثم قتل ، وتولاها الحسن فخدع وتنازل ، وحاولها غيرهما بعدهما فعجزوا أو سقطوا دونها ، وتجاوز الأذى فى هذه المراحل كلها العلويين إلى العباسيين ، إذ وثب عليهم بنو أمية ، كما يقول المنصور ، فأماتوا شرفهم وأذهبوا عزهم ! فإذا بالعلويين الآن يثورون على العباسيين ، كما يقول المنصور أيضاً ، « ظلما وحسداً منهم لنا وبغياً !! فضلنا الله به عليهم وأكرمنا به من خلافة وميراث نبيه صلى الله عليه وسلم :

جهلا علينا وجبناً عن عدوهم لبئست الخلتان : الجهل والجبن »

(حـ) وكتب المنصور إلى النفس الزكية : من عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله « إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِى الأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا ، أَوْ يُصَلَّبُوا ، أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ ،

أوْ يُنفَوْا مِنَ الأرْضِ ، ذٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنيَا ، وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ . إلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ ، فَاعْلَمُوا أنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .ـ ولك عهد الله ، وميثاقه ، وذمته ، وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم ، إن تبت ورجعت من قبلُ ، أن أؤمنك وجميع ولدك وإخوتك وأهل بيتك ، ومن اتبعكم ، على دمائكم وأموالكم ، وأسوغك ما أصبت من دم أومال ، وأعطيك ألف ألف درهم وما سألت من الحوائج ، وأنزلك من البلاد حيث شئت ، وأن أؤمن كل من جاءك وبايعك ، واتبعك ، أو دخل في شيء من أمرك ، ثم لا أتبع أحداً منهم بشيء كان منه أبداً » .

(و) وقد أجاب النفس الزكية على كتاب المنصور بآخر جاء فيه :

« من عبد الله المهدي محمد بن عبد الله إلى عبد الله بن محمد . طسم . تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ المُبِينِ . نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . إنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأرْضِ وَجَعَلَ أهْلَهَا شِيَعاً ، يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ ، يُذَبِّحُ أبْنَاءَهُمْ ، وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ، إنَّهُ كَانَ مِنَ المُفْسِدِينَ . وَنُرِيدُ أنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأرْضِ ، وَنَجْعَلَهُمْ أئِمَّةً ، وَنَجْعَلَهُمُ الوَارِثِينَ . وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأرْضِ ، وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ . ـ وأنا أعرض عليك من الأمان مثل الذي عرضت عليّ ، فإن الحقّ حقنا ، وإنما أدعيتم هذا الأمر بنا ، وخرجتم له بشيعتنا ، وحظيتم بفضلنا . . . . . ولك الله عليّ إن دخلت في طاعتي وأجبت دعوتي ، أن أؤمنك على نفسك ومالك ، وعلى كل أمر أحدثته ، إلا حدّاً من حدود الله ، أو حقا لمسلم أو معاهد ، فقد علمت ما يلزمك من ذلك » .

ومقارنة هذين الاقتباسين بعضهما ببعض تكشف لأول وهلة عن الفارق الكبير فى المبادئ والأساليب ، فالمنصور يعطى « عهد الله ، وميثاقه، وذمته ، وذمة رسوله ﷺ » على أمور تخالف هذا كله ، وليس له كأمير للمؤمنين حق التصرف فيها بالأسلوب الذى عرضه فى خطابه ، متجاوزاً عن حقوق الناس فى الدماء والأموال إن كان محمد النفس الزكية ، أو من اتصل به ، قد أصاب منها شيئاً ، مضحياً بذلك فى سبيل استقرار الأمر له وعدول النفس الزكية عن ثورته . وهى بعد ذلك وعود يبدو منها عدم جدّيتها وتتسم بطابع الدهاء المكشوف .

أما النفس الزكية فيعطى من الأمان مثل ما عرض المنصور لكنّه يقيد هذا الأمان تقييداً دقيقاً بعدم مجاوزته حقاً من حقوق الله أو من حقوق الناس ، ويقول للمنصور بشأن هذين الأمرين « فقد علمت ما يلزمك من ذلك » ! وضوح وصراحة وقوة تستند إلى الإيمان ، ولا تستهدف المصلحة الخاصة على حساب المصلحة العامة ، ولا تتقيد بما يغضب الله أو يضيع حق الناس الذين ادّعى العباسيون حق السيطرة عليهم وخرج النفس الزكية غضباً لهم : « إلاّ حداً من حدود الله ، أو حقاً لمسلم أو معاهد » . . . !

٢ — وفى الحجاز ، الموطن المختار للعلويين ، قامت ثورة أخرى ، سنة ١٦٩ هـ ، تشبه ثورة النفس الزكية ، وإن كانت أقل منها خطرا . ذلك أن العلويين كانوا قد ركنوا إلى الهدوء بعد مقتل النفس الزكية وأخيه ، لكن عامل الهادى على المدينة ، عمر بن عبد العزيز بن عبدالله ، اتهم بعض العلويين وفيهم الحسن بن محمد النفس الزكية ، بشرب الخمر ، فأخذهم وأقام عليهم الحدّ ثم زاد على ذلك أن جعل الحبال فى أعناقهم وطاف رجاله بهم فى المدينة . فذهب إليه الحسين بن على بن الحسن محتجا على سوء معاملته لأهل بيته

فردّهم عامل المدينة من مطافهم وحبسهم يوما وليلة ، ثم أطلقهم على أن يظلوا تحت المراقبة ، فاختفى الحسن بن محمد النفس الزكية أياما ، وعاد والى المدينة إلى تتبع العلويين طلبا للهارب . وانتهت هذه الفتنة إلى خروج الحسين ابن علىّ على الخليفة الهادى وإلى بيعة جمع من أهل المدينة له بالخلافة . وقد انضم إلى هذه الحركة بعض الكوفيين الذين كانوا عندئذ بالمدينة . ثم خرج الجميع فى اتجاه مكة فقطع عليهم جيش العباسيين الطريق ، ودارت معركة بين الفريقين عند وادى « فخ » ، الذى يبعد عن مكة بنحو ستة أميال، تقرر فيها مصير العلويين وكثر فيها ضحاياهم ، وفيهم الحسين بن على زعيمهم . وقد بلغ من كثرة التنكيل بالعلويين فى هذه المعركة أن قرنها المؤرخون ، لهولها ونتائجها ، بمعركة كربلاء فقال بعضهم « لم تكن مصيبة بعد كربلاء أشد وأفجع من فخ » .

وطابع هذه المعركة يشبه طابع معركة كربلاء إلى حد كبير ، فأنصار الحسين بن على بن أبى طالب فى معركة كربلاء قلة معدودة ولم يكن الثائرون مع الحسين بن على بن الحسن عند فخ كثرة ملحوظة ، وشهداء معركة كربلاء من العلويين كثيرون ويشبه هذا شهداء معركة فخ . وقد أعقب استشهاد الحسين بن على بن أبى طالب فى كربلاء حركة ثورية أخرى بالكوفة ، وأعقب معركة فخ ثورتان علويتان ببلاد الديلم وفى شمالىّ إفريقية ، وانتهت الأخيرة بقيام دولة الأدارسة .

٣ — نجا من معركة فخ علويان أخوان هما يحيى وإدريس ابنا عبد الله ابن الحسن بن الحسن بن على ، فذهب أولها إلى بلاد الديلم وجمع حوله الأنصار ثم أعلن الثورة أيام هرون الرشيد وكان قد خفف الرقابة على العلويين، فأهاجته ثورة يحيى وأرسل إليه جيشاً فى خمسين ألفا بقيادة الفضل بن يحيى

البرمكى . وقد استطاع الفضل بحسن تصرفه أن يصالح يحيى وأن يحصل على أمان له من الرشيد ، وبهذا انتهت الثورة . ولكن الرشيد لم يلبث بعد هذا أن استفتى الفقهاء محاولا إبطال الأمان فأفتى بعضهم وجهة نظر الرشيد ، فأمر بحبس يحيى فى داره .

أما إدريس فقد فر إلى مصر ، ثم خرج منها إلى شمالىّ إفريقية ؛ وفى المغرب الأقصى التف حوله أهلها من البربر وأعلن خروجه على الرشيد سنة ١٧٢ هـ . وعجز الخليفة عن القضاء على ثورته لبعد المسافة ، فلجأ إلى الحيلة ودسّ عليه من تظاهر بالإخلاص له حتى صار من خواصه ثم دسّ له السم فمات سنة ١٧٧ هـ . ولكن أتباعه انتظروا أمة له كانت حاملا حتى وضعت ولدا حمل اسم أبيه فبايعه أهل المغرب الأقصى بالخلافة ، وظهرت بذلك دولة الأدارسة . وقد لفت قيام هذه الدولة نظر جماعة الشيعة فيما بعد إلى بلاد المغرب التى صارت منذئذ أرضا خصبة للدعاية الشيعية كما يبرهن على ذلك قيام الدولة الفاطمية فيها ، فى نهاية القرن الثالث الهجرى .

وهكذا نجد العباسيين الأوائل يوالون أبناء عمومتهم العلويين بالحرب والتنكيل ، كما نجد هؤلاء ثائرين ساخطين على بنى عمومتهم العباسيين ما وجدوا إلى ذلك من سبيل .

ولكننا نجد بعض الخلفاء يتبع سياسة المسالمة مع العلويين ، وبخاصة بعد أن تضاءل نشاطهم وقل خطرهم . وقد رأينا مثلا لهذا فى الرشيد الذى انصرف عن التعرض لهم حتى قامت ثورة يحيى بن عبد الله ببلاد الديلم وثورة أخيه إدريس بن عبد الله بالمغرب الأقصى .

وقد كان المهدى شديد التسامح معهم فأطلق المسجونين منهم وخفف

الرقابة عليهم . ويقال إن سبب ذلك أنه قام مرة للصلاة فقرأ قول الله تعالى:
« فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ »
فلما انتهى من صلاته أمر بإطلاق سراح العلويين ، وفيهم موسى بن جعفر الذى
كان فى سجن الربيع بن يونس . وقد استدعى المهدى موسى بن جعفر وقال
له : إنى قرأت هذه الآية فخفت أن أكون قد قطعت رحمك ، فوثق لى أنك
لا تخرج علىّ . فحلف له موسى ألاّ يخرج عليه ، فأطلقه . والواقع أن
سياسة المهدى مع العلويين كانت مظهراً من سياسته مع الناس جميعا ، فقد
أطلق المسجونين السياسيين الذين أمر أبوه المنصور من قبل باعتقالهم ،
وحاول أن يصبغ عهده بصبغة العدالة ورعاية صوالح الناس عامة ، فأصلح
الطرق وحفر الآبار وأنشأ الجداول والحيضان ، وجلس للمظالم . وبهذا لم
تكن سياسته المتسامحة مع العلويين مقصودة لذاتها وإنما كانت مجرد مظهر
من مظاهر اهتمامه بتغيير الأوضاع التى سادت فى عهد والده الخليفة أبى جعفر
المنصور من قبله .

أما المأمون فقد حاول فعلا أن يحسّن علاقته بالعلويين وأن يعوضهم
بعض ما أصابهم من ضرّ فى العهود العباسية التى سبقته . وقد أرسل أحد نوابه
إلى المدينة يحث العلويين المقيمين بها على الرحلة إلى مرو ، حيث كان المأمون
يقيم ، ففعلوا ، فاستقبلهم المأمون بترحيب وإجلال عظيمين وخصّ زعيمهم
علياً الرضا بن موسى الكاظم بالإجلال والتكريم .

وقد زاد المأمون على هذا أن بايع علياً الرّضا بولاية العهد وزوّجه ابنته
أم حبيب ، كما زوّج ابنته الثانية من محمد الجواد بن علىّ الرضا . ولم يكفه
ذلك تكريماً للعلويين فضرب الدراهم باسم علىّ الرضا وأمر بذكر اسمه على
المنابر ولبس الخضرة ، شعار العلويين ، وخلع السواد ، شعار العباسيين . ثم

استدعى مشيريه الحسن بن سهل وأخاه الفضل وقال لهما : « إنى عاهدت الله إن ظفرت بالمخلوع (أى بالأمين) أخرجت الخلافة إلى أفضل آل أبى طالب ، وما أعلم أحداً أفضل من هذا الرجل على وجه الأرض » .

وقد يقال إن هذا الاتجاه من المأمون كان خطوة سياسية يقصد بها اكتساب ولاء الخراسانيين الشيعيين ، الذين كان المأمون يقيم بين ظهرانيهم فى فترة النزاع بينه وبين أخيه الأمين ، حتى يضمن بذلك فوزه فى هذا النزاع .

لكن سياسة المأمون بعد هذا تدل على أنه كان مخلصاً فى سياسته الودّية مع العلويين ؛ وذلك أن المأمون أصرّ على موقعه الودّى منهم ، حتى بعد وفاة علىّ الرضا ، ودخل بغداد فى ملابسه الخضراء مغضباً العباسيين أهل بيته ، وتابعه بنو هاشم وأهل بغداد ، مضطرين ، فى لبس الملابس الخضراء حتى وصلته مكاتبات من بعض آل بيته ، ومن بعض الخراسانيين أيضاً ، ومن بعض قواده ، وفيهم طاهر بن الحسين ، تشير عليه بأن يعود إلى لبس شعار العباسيين ، ففعل . ولكنه لم يطّرح سياسة التودد إلى العلويين ، ولم ينس ذلك حتى وفاته إذ أوصى أخاه المعتصم بهم : « وهؤلاء بنو عمك أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب ، رضى الله تعالى عنه ، فأحسن صحبتهم ، وتجاوز عن مسيئهم ، واقبل من محسنهم ؛ وصلاتهم فلا تغفلها فى كل سنة عند محلها ، فإن حقوقهم تجب من وجوه شتى » .

ثالثاً : مع الفرس :

اعتمد العباسيون اعتماداً كلياً على الفرس ، والخراسانيين بصفة خاصة ، فى الدعاية لقضيتهم ثم فى إقامة دولتهم . ثم أدركوا بعد ذلك أنهم أصبحوا قوة ممتازة فى الدولة ، وهو أمر لا يتفق مع السياسة العباسية التى تجد

أمنها وسلامتها فى القضاء على مراكز القوة أيا كان مصدرها . وقد طبّق العباسيون هذه السياسة على الفرس أيضاً ، وكان من أمثلة هذا الحادثان الآتيان .

١ — أبو مسلم[١] . شاب ذكى من خراسان اتصل بالعباسيين فى فترة الدعوة السرية لدولتهم فكان من أقوى العاملين لها ، ثم تولى تنفيذ الخطة الحربية التى بدأت الزحف الخراسانى نحو العراق فالشام وانتهت بإسقاط الأمويين . وقد اعتمدت هذه الخطة ، كما ذكرنا ، على إذكاء نار العصبية بين الجماعات العربية المقيمة بخراسان ، وعلى استغلال مبدأ « الحق الإلهى » فى تجميع الخراسانيين حول « الرضا من آل محمد » . وقد أظهر أبو مسلم براعة ودهاء وقدرة وكفاية فى خدمة العباسيين قبيل نجاح دعوتهم وبعدها ، حتى أصبح من عُمد الدولة الذين استندت إلى قوتهم ، وارتفع شأنه حتى اعتمد عليه المنصور فى إخماد حركة عمه عبد الله بن على الذى كان يطمع فى الخلافة من بعد أبى العباس السفاح . وبهذا أصبح أبو مسلم الشخصية الثانية فى الدولة العباسية بعد أبى جعفر المنصور[٢] » .

وقد اعتد أبو مسلم بقوته واستهان ، إلى حدّ ما ، بالمنصور فى أثناء خلافة أبى العباس السفاح وبعد وفاته . وكان من مظاهر مسلكه هذا أنه تقدم أبا جعفر فى موسم الحج ، وكان السفاح قد عينه أميراً على الموسم ، وأنفق الأموال

---

(١) من سادة خراسان وكان يسمى ابراهيم بن عثمان ويكنى أبا اسحاق ؛ فلما اتصل بإبراهيم الإمام أمره بتغيير اسمه إلى عبد الرحمن بن مسلم وكناه أبا مسلم . وقيل إنه كان مولى لبنى معقل العجل ، ورآه بكير بن ماهان داعية العباسيين بالكوفة فأحب أن يضمه إلى أصحابه ، فاشتراه من سادته بأربعمائة درهم ، ثم أرسله بكير بعد مدة إلى ابراهيم الإمام بالحميمة .

(٢) اعتمد أبو العباس السفاح أول خلفاء العباسيين على شخصيات ثلاثة فى توطيد أركان الخلافة الجديدة هم عمه عبد الله بن على ، وأخوه أبو جعفر المنصور ، وأبو مسلم الخراسانى .

الكثيرة فى إصلاح الطرق وفرق الهبات بين العرب ، وهو شيء يخالف طبيعة المنصور الذى عرف بالحرص حتى اتهم بالبخل ؛ فحفظ له المنصور هذا . وعندماتوفىالسفاح كتب أبو مسلم إلى المنصور يعزيه ، وكانا عائدين من الحج ، ولكنه لم يهنئه بالخلافة ولم يتوقف فى طريقه انتظارا لقدوم الخليفة الجديد . وعندما نجح أبو مسلم فى إخماد حركة عبد الله بن علىّ بالشام والجزيرة أرسل المنصور من يحصى الغنائم فرفض أبو مسلم وهمّ بقتل الرسول وقال : «أمين على الدماء خائن فى الأموال» !! . وعندما كتب المنصور إليه : «إنى قد وليتك مصر والشام فهى خير لك من خراسان» . غضب أبو مسلم وعصى أمر الخليفة قائلا «هو يولينى الشام ومصر ، وخراسان لى» !! .

لهذا كله ، ولمثله ، قرر المنصور التخلص منه بقتله ، واستعمل فى ذلك الحيلة والدهاء . فقد كتب إليه يستدعيه إلى بغداد وتقاعس أبو مسلم عن الاستجابة وأزمع السير إلى خراسان . فعيّن المنصور نائب أبى مسلم بخراسان والياً عليها ؛ فكتب هذا إلى أبى مسلم يمنعه من المجيء إلى خراسان قائلا : «إنّا لم نخرج لمعصية خلفاء الله وأهل بيت نبيه ﷺ ؛ فلاتخالفنّ إمامك ، ولاترجعنّ إلاّ بإذنه» . وزاد احتيال المنصور لتحقيق هدفه ففرّق العطايا والمناصب بين بعض رجال أبى مسلم حتى يعمل على خذلانه وتفريق صحبه من حوله .

واضطر أبو مسلم إلى القدوم إلى بغداد ونجح المنصور فى قتله . وبعد التخلص منه دعا أبو جعفر المنصور بجعفر بن حنظلة ، أحد رجاله ، وسأله : «ما تقول فى أبى مسلم» ؟ فقال : «يا أمير المؤمنين إن كنت أخذت شعرة من رأسه فاقتل ، ثم اقتل ، ثم اقتل» ! فقال المنصور : «وفقك الله» . ثم

قال : « قم وانظر أبا مسلم مقتولا » . فقال جعفر : « يا أمير المؤمنين ، عُدّ من هذا اليوم لخلافتك » ! .

٢ — البرامكة . لاحظنا فى السياسة التى اتبعها المنصور مع أبى مسلم أن الخليفة إنما قرر التخلص من قائده الكبير بسبب المكانة التى صار إليها حتى أصبح خطرا يتهدد قوة العباسيين . ولكن تنكيل المنصور بأبى مسلم لم يكن يعنى الانصراف عن الفرس كقوة رئيسية تعتمد عليها الدولة ، بل كان يعنى التخلص من شخصية خطيرة الشأن تهدد كيانها . ولهذا فرّق المنصور فى سياسته بين الشخص والشعب ، فقضى على الزعيم واسترضى الأتباع ، وعيّن نائب الزعيم فى مكانه واليا على خراسان وفرّق الأعطيات والمناصب فى بعض رؤساء الجماعة الخراسانية . وبهذا احتفظ المنصور بتأييد الفرس ونصرتهم برغم قضائه على أهم زعمائهم .

لكنّ الرشيد حين نكّل بالبرامكة لم يكن بنفس حكمة المنصور ولا فى دهائه ، إذ أنه حينما غضب على البرامكة وقرّر التخلص منهم لم يفرق بينهم وبين أتباعهم من الفرس ، بل ارتمى فى أحضان بعض الأنصار من العرب أو رجالهم وإن لم يُعرض الإعراض كله عن جماعة الفرس . ولهذا تعتبر نكبة البرامكة أبعد خطرا على كيان الخلافة العباسية من مصرع أبى مسلم . وقد ظهر هذا الخطر فى وضوح عندما تولى الأمين الخلافة بعد أبيه ونشب النزاع بين الخليفة الجديد وأخيه المأمون ، وهو النزاع الذى صُوّر بصورة النضال العنصرىّ بين جماعتى العرب والفرس ، وهو تصوير لا يبعد كثيرا عن حقيقة المشكلة وطبيعتها .

والبرامكة أسرة فارسية دخلت فى الإسلام زمن الدعوة العباسية السرية وكانت قبل ذلك مباشرة تدين بالمجوسيّة ويشرف رأسها ، برمك ، على أحد

معابدها بمدينة بلخ . فهى أسرة كانت حديثة العهد بالإسلام عند قيام الدولة العباسية وقد اتصلت بها فور قيامها ، بعد أن اشتركت فى الدعاية لها ، وأصبح خالد بن برمك وزيرا للسفاح أول خلفاء العباسيين وإن لم يتخذ لنفسه لقب الوزير .

وظل البرامكة محتفظين بمكانتهم فى خدمة العباسيين حتى عهد الخليفة المهدى الذى اختار يحيى بن خالد البرمكى كاتبا وناصحا لابنه هارون الرشيد فأحسن أداء واجبه نحوه ورعاه كأحد أبنائه حتى كان الرشيد لايناديه إلا بلقب الأبوة[1] .

ولا يعنينا هنا أن نتحدث عن فضل يحيى بن خالد فى الاحتفاظ بولاية العهد للرشيد رغم محاولات الهادى تنحيته عنها ، ولا عن المجد الذى وصل إليه أولاد يحيى ، وبخاصة الفضل وجعفر وموسى ، فى عهد خلافة الرشيد ، فهذا حديث مشتهر لايحتاج إلى إعادة ترديد . ويكفى أن نذكر أن الرشيد قال ليحيى عندما قلده وزارته : « قلدتك أمر الرعية وأخرجته من عنقى إليك ، فاحكم فى ذلك بما ترى من الصواب واستعمل من رأيت ، واعزل من رأيت وأمض الأمور على ماترى » . فكانت هذه أول وزارة تفويض فى العصر العباسى ، بعد أن كانت الوزارة كلها وزارة تنفيذ .

ولكن الذى يهمنا الإشارة إليه أن هذا العز الذى وصل إليه البرامكة قد تحول إلى بؤس وخيبة بفعل الخليفة الذى دان لهم بمنصبه وبذيوع ذكره.

ولم تكن النكبة التى حلت بالبرامكة أمرا مفاجئا كما يحلو لكثير من المؤرخين أن يصوروها ، وإنما كانت هناك ظروف تنذر بحدوثها وتهيىء له . ومن مظاهر ذلك :

---

(١) وقد أرضعت زوجة يحيى الرشيد بلبان ابنها الفضل كما أرضعت الخيزران ، أم هارون ، الفضل بن يحيى .

ا — قرّب الرشيد جعفر بن يحيي إلى درجة كبيرة وكان ينادمه ويلازمه حتى خاف يحيي على ابنه عاقبة أمره ، فكان ينهاه ويأمره بترك منادمة الرشيد بهذه الصورة التى كان عليها . ولم يستمع جعفر لنصح أبيه حتى أعيته الحيلة فقال له : « إنى إنما أهملتك ليعثر الزمان بك عثرة تعرف أمرها ، وإن كنت لأخشى أن تكون التى لاشوى لها » ا. ولم يكتف يحيي بنصح ابنه بل اتجه إلى الرشيد أيضا وقال له : « يا أمير المؤمنين أنا والله أكره مداخلة جعفر معك ، ولست آمن أن ترجع العاقبة فى ذلك علىّ منك ؛ فلو أعفيته واقتصرت به على ما يتولاه من جسيم أعمالك كان ذلك آمن لى » . فقال له الرشيد : « يا أبت ليس بك هذا ، وإنما تريد أن تقدم عليه الفضل » ا .

ب — فى مناسبة معينة دخل يحيي بن خالد على الرشيد بغير إذن ، كعادته ، وسلّم ، فردّ عليه الرشيد فى ضعف وخفوت وإعراض ؛ ثم التفت إلى أحد الجالسين ، واسمه جبريل وقال : « يا جبريل يدخل عليك وأنت فى منزلك أحد بلاإذنك ؟ » فقال « لا ، ولا يطمع فى ذلك » . قال الرشيد : « فما بالنا يُدخل علينا بلاإذن » ا. فقام يحيي وقال : « يا أمير المؤمنين ، قدّمنى الله قِبَلك . والله ما ابتدأت ذلك الساعة ، وما هو إلا شىء كان أمير المؤمنين خصّنى به ورفع به ذكرى ، حتى إنى كنت لأدخل وهو فى فراشه ، مجرّدا حيناً وحيناً فى بعض إزاره ، وما علمت أن أمير المؤمنين كره ما كان يحب . وإذ قد علمتُ فإنى أكون عنده فى الطبقة الثانية من أهل الإذن ، أو الثالثة ، إن أمرنى سيدى بذلك »ا. وقد أمر الرشيد غلمانه بعد هذا بالإعراض عن يحيي ، والبرامكة جميعا ، فكان يحيي ربما يطلب شربة ماء فلا يحصل عليها إلا بعد أن يرسل فى طلبها مرارا .

ح — ارتاب جعفر بن يحيي البرمكى فى مسلك الرشيد نحو البرامكة

فأوصى ابراهيم بن المهدى ، من أصدقائه ، بمراقبة سلوك الرشيد فى يوم من الأيام . فجاء ابراهيم إلى جعفر فى نهاية الجلسة ، فقال جعفر : « هات ما عندك » . فقال ابراهيم : « رأيت الرجل يهزل إذا جددت ويجد إذا هزلت » ! فقال جعفر « كذا هو عندى » ! .

٤ — بعد وفاة الخيزران أم الرشيد عزل الخليفة الفضل بن يحيى البرمكى عن الحجابة وولاها الفضل بن الربيع بن يونس وقربه إليه ، وبدأ ينصرف عن الفضل بن يحيى البرمكى ، وكان إذذاك فى خراسان واليا عليها أيضا . فلما عادمن خراسان ولى الرشيد مكانه منصور بن يزيد بن مزيد ، ثم أخذ يجرد الفضل البرمكى من أعماله شيئاً فشيئاً .

وفى كل هذا الذى ذكرناه من المظاهر مايدل على أن نكبة البرامكة لم تكن أمراً مفاجئا وإنما كان البرامكة أنفسهم يحسون بقرب وقوعها كما كانوا يجدون فى تغير الرشيد أدلة تؤكدها وتنذر بها . والعجب كله ألا يأخذ البرامكة ، رغم هذا كله ، حذرهم فيعملوا على تجنب الكارثة التى حلت بهم حين أمر الرشيد بقتل جعفر وحبس يحيى وبقية أولاده وصادر أموالهم ونكل بهم .

* * *

وبهذا يتأكد ماقررناه فى أوائل هذا الفصل من أن العباسيين الأوائل بنوا سياستهم، لتمكين دولتهم ، على أساس شديد العمق هو القضاء على مصادر القوة والخطر إن فى الأفراد وإن فى الجماعات ، وسواء أكانت هذه القوة فى العرب أم بين الفرس ، ليكون لهم ، وحدهم ، السلطان والنفوذ ، وليشيع الضعف والتخاذل والتفكك فيمن عداهم .

الفصل الرابع

عوامل إضعاف الدولة فى العصر الاول

لم يكن تغيير الخلافة الأموية بخلافة عباسية إلا تغييراً فى القوة المتحكمة فى شئون المسلمين بطريقة لم تكن لترضى جميع العناصر الساخطة على بنى أمية . ومن هذه العناصر العرب العلويون ، وبقية الهاشميين من العرب ، والخوارج من عرب وغيرهم ، والفرس العلويون الذين كانوا يدينون بمبدأ الحق الإلهى فى قيادة الأمم والذين كان لهم فى البيت العلوى نسب[1] .

ومعنى هذا أنه لم يَرْضَ بقيام دولة العباسيين إلا فئة من بنى هاشم كان عليها ، وهذه ظروفها ، لتحافظ على كيان دولتها أن تلجأ إلى الدبلوماسية الحكيمة دائماً لاكتساب تأييد العناصر الثائرة أو لتهدئة ثورتها فى الأقل ، كما كان عليها أن تشفع هذه الدبلوماسية بالقوة الحازمة فى المواقف الحاسمة . وكان من الضرورى أن يكون على رأس هذه الدولة الشخصية القوية القويمة التى لا تخطىء بوضع السيف فى موضع الندى أو باستعمال اللين حيث يلزم اللجوء إلى القوة ، وقد توفر هذا الشرط فى قلة من شخصيات العصر العباسى الأول . وقد لاحظنا فى الدراسة السابقة أن الخلفاء العباسيين الأوائل اتجهوا إلى القضاء على مراكز القوة أيا كانت وأينما كانت حتى يضمنوا بذلك لأنفسهم سيطرة على جماعات ضعيفة متخاذلة ما أمكن ذلك .

---

(١) تزوج الحسين بن على بن أبى طالب الأميرة شهر بانوه ابنة يزدجرد الثالث آخر ملوك بنى ساسان .

ورأينا كذلك أن القوة العاملة الفعالة فى الدعوة لآل العباس ثم فى إقامة دولتهم كانت قوة الفرس . ودستور العباسيين فى هذه الدعوة كلمات محمد بن عبد الله بن على بن عبد الله بن العباس ، التى اقتبسناها سابقا ونعيد اقتباسها هنا ، وهى الكلمات التى نصح بها دعاته حين وجههم إلى المشرق: « أما الكوفة وسوادها فشيعة علىّ وولده ، وأما البصرة وسوادها فعثمانية تدين بالكف وتقول كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل ؛ وأما الجزيرة فحرورية مارقة ، وأعراب أعلاج ، ومسلمون فى أخلاق النصارى ؛ وأما أهل الشام فليس يعرفون إلا آل أبى سفيان وطاعة بنى مروان ، وفيهم عداوة راسخة وجهل متراكم ؛ وأما مكة والمدينة فقد غلب عليهما أبو بكر وعمر . . . ولكن عليكم بخراسان ، فإن هناك العدد الكثير والجلد الظاهر ، وهناك صدور سليمة ، وقلوب فارغة ، لم تتقسمها الأهواء ، ولم تتوزعها النحل ، ولم يقدح فيها فساد . وهم جند لهم أبدان ، وأجسام ، ومناكب ، وكواهل ، وهامات ، ولحىً ، وشوارب ، وأصوات هائلة ، ولغات فخمة تخرج من أجواف منكرة » .

ورأينا كذلك أن العباسيين بسياستهم هذه وبدعوتهم للرضا من آل محمد استغلوا ، فى براعة ، فئتين من الأنصار : الفئة الأولى جماعة العلويين الذين دانوا بولائهم للعباسيين عن طريق أبى هاشم . وقد حاول العباسيون الاحتفاظ بتأييد هؤلاء فى الدعاية ضد الأمويين ، كما استعانوا بغيرهم من العلويين الإماميين الذين رأوا قصر الإمامة على أولاد على من فاطمة ؛ فالتف هؤلاء وأولئك حول الكلمة الغامضة التى كانت مبدأ دعوة العباسيين وهى « الرضا من آل محمد » .

والفئة الأخرى الفرس وبخاصة جماعة الخراسانيين الذين دانوا بمبدأ

الحق الإلهى والذين رأوا أن تطبيق هذا المبدأ يقضى بحصر الأمر فى آل محمد، صلوات الله عليه ، وقلوب هؤلاء الفرس عندئذ ،كما قال محمد بن على ،لم تتقسمها الأهواء ولم تتوزعها النحل .

وبالسياسة التى اتبعها العباسيون ضد هاتين الفئتين منذ اللحظة الأولى لإعلان خلافتهم دبّ الضعف إلى الدولة العباسية ، بمساعدة بعض العوامل الأخرى التى أثرت فى كيانها وساعدت على سرعة تفشى الانحلال فيها قبل أن ينقضى على قيامها أكثر من قرن من الزمان.

وتتلخص هذه العوامل فيما يلى[1] :

أولا العلويون :

رأينا أن العباسيين ، منذ إعلان خلافتهم ، نكلوا ببنى عمومتهم العلويين أشد تنكيل ، واستثنينا من ذلك قلة من الخلفاء العباسيين . وسنكتفى هنا عن التفصيل بقليل من الأمثلة نسوقها فى كلمات :

فهناك ثورة النفس الزكية فى الحجاز ، وثورة أخيه إبراهيم فى العراق . ومحمد هذا هو الذى تقول بعض المصادر التاريخية إن العباسيين أنفسهم بايعوه بالخلافة فى فترة من فترات الدعوة السرية ، وكان ممن بايعه أبو جعفر المنصور نفسه ؛ ولهذا السبب لم يبايع محمد إبراهيم الإمام أو أبا العباس السفاح أو أبا جعفر المنصور . وقد كان مصير النفس الزكية وأخيه إبراهيم القتل مع كثير من شايعهما ؛ ولم يصل المنصور ، خليفة العباسيين عندئذ ، إلى هذه النتيجة إلا بعد أن لجأ إلى القسوة الشديدة مع العلويين فى مكة والمدينة إذ عذبهم وسجن أشياخهم وفيهم والد النفس الزكية الذى صودرت

(١) يضطرنا سياق الحديث هنا إلى الإشارة إلى بعض الأمثلة التى ذكرناها فى الفصل الثالث وإلى إعادة استخدامها فى صورة مركزة مختصرة .

أمواله أيضاً حين أنكر معرفته بمكان ولديه . كما استعمل المنصور الدهاء إذ دسّ على محمد النفس الزكية كتبا من الأمصار المختلفة تزعم بيعتها له وخروجها على المنصور . وأمام هذين العاملين : قسوة المنصور مع العلويين وخديعته النفس الزكية بكتبه الزائفة اضطر النفس الزكية إلى الظهور. وانتهى أمره، وأمر أخيه من بعده، إلى الاستشهاد في حرب مع جيوش المنصور[1] .

وهناك ثورة الحسين بن على بن الحسن المثلث فى المدينة ، ثم فى مكة ، فى عهد الهادى وهى الثورة التى اشتعلت نتيجة لسياسة الوالى العباسى مع العلويين فى المدينة ، إذ نكل بهم واتهمهم بشرب الخمر وجلدهم وطاف بهم شوارع المدينة . وقد انتهت هذه الثورة بعد حرب فى موقعة وادى فخ ، قريبا من مكة ، بمقتل الحسين .

لكن هذه النتيجة لم تكن حاسمة فى الموقف عندئذ ، إذ فرّ من القتل والأسر علويّان أخوان : إدريس الذى فر إلى المغرب الأقصى حيث نجح فى تكوين رأى عام مشايع له وحيث قامت الدولة الإدريسية ، بعد وفاته ، بالتفاف أتباعه حول ولده . وثانيهما يحي بن عبد الله الذى نجح فى تكوين نواة علوية ببلاد الديلم ، تحولت بعدُ إلى جماعة شيعية قوية منذ عهد الرشيد . وقد فشل الرشيد فى القضاء على دولة الأدارسة ، ونجح فى التخلص من

---

(١) ولم تقتصر ثورة النفس الزكية على الحجاز والعراق ، ذلك أنه أرسل ابنه عبد الله الى خراسان ثم الى السند فقتل بها ؛ وبعث ابنه الحسن الى اليمن لحبس بها ومات فى الحبس ؛ وسار أخوه موسى الى الجزيرة ، ومضى أخوه يحى الى الرى وطبرستان فيما بعد ، وسار إدريس كما نرى الى بلاد المغرب ، وذهب ابنه على الى مصر . . . ومن هذا يتبين أن هذه الثورة العلوية كانت شاملة قصد بها أن تعم جهات الدولة ، وأن المنصور حين لجأ الى الحزم والقسوة والدهاء فى مواجهتها إنما كان يمكن لدولته بالقضاء على الخطر الأعظم الذى يتهددها وهو خطر الحزب العلوى صاحب الحق الأول فى الخلافة من وجهة نظر كثير من المسلمين عندئذ . ومن ثم كان القضاء على هذه الثورة سببا فى تخاذل البيت العلوى وانكسار شوكته الى أمد .

شخص يحيى بن عبد الله بعد أن استقدمه إلى بغداد بأمان فى حماية وزيره البرمكى الفضل بن يحيى الذى نجح فى إخماد حركته الثورية دون إراقة دماء .

وهكذا يمكن أن نقول إن العلويين كانوا شوكة مؤلمة مزمنة فى جسم الدولة العباسية فى عصرها الأول ، وقد سببوا لها كثيراً من المتاعب بالتجائهم إلى السيف من حين إلى حين . هذا إلى جانب نشاطهم السلمى الخفى بالدعاية بين جماعات الفرس الذين كانوا قد بدءوا يخشون جانب العباسيين ، ولم يكن هذا النشاط السلمى الخفى بأقل أثراً فى مقاومة نفوذ العباسيين من النشاط الثورى الظاهر .

ثانيا : الفرس :

وهم الذين قامت الدولة على أكتافهم وبمجهودهم ، فلم تعرف لهم هذه الدولة قدرهم ، أو عرفته ، فى الواقع ، وأدركت معه مقدار خطرهم فعملت على إضعاف نفوذهم منذ اللحظة الأولى وهم فى فورة قوتهم وسلطانهم .

ومن أمثلة ذلك ما فعله أبو جعفر المنصور بأبى مسلم الخراسانى ، القائد السياسى الداهية الذى نجح فى استغلال النزاع العصبى بين القبائل العربية فى خراسان ، إذ فرق شملها ، ودس بينها ، فنشبت الحروب المحلية واستفاد بذلك آل العباس . وهو أيضاً الذى استعمل الخديعة فى الإيقاع بعبد الله ابن على ، عم المنصور ، حين ثار عبد الله بالجزيرة على الخليفة واعتمد فى الثورة على بعض العرب الشاميين فى جيشه ، فأظهر أبو مسلم فى كتاب إلى عبد الله أنه إنما جاء ليتولى الشام للمنصور لا ليحارب عبد الله . فخاف العرب الشاميون على بلادهم وأرغموا عبد الله على الخروج معهم إلى الشام ، فأسرع أبو مسلم إلى احتلال الموقع الحصين الذى كان جيش عبد الله بن على مستقراً به من قبل . وبهذا سهلت هزيمة الثائر واستقر الأمر للمنصور ، وأضاف

أبو مسلم بهذا الجهد الذي قام به بعد استقرار الخلافة العباسية يدا كبرى إلى أياديه التي قدمها لهذه الخلافة وهي في فترة النشوء .

فماذا كان جزاء أبي مسلم ؟ لقد أرسل المنصور إليه من يحصي عليه ما غنمه في المعركة بعد هزيمة عبد الله . وكان المنصور يهدف بهذا إلى إشعار أبي مسلم بأنه ليس فوق مستوى قادة الدولة ورجالها الآخرين ، ولعله كذلك هدف إلى استفزاز أبي مسلم حتى يفصح عما يضمره للدولة بعد أن أثبتت تصرفاته أنه يُدلّ بجهوده في خدمتها . وقد أدت هذه الخطوة من المنصور ، أيًّا كان هدفها ، إلى غضب أبي مسلم فكاد يفتك برسول أبي مسلم قائلا : « أكون أميناً على الدماء غير أمين على الأموال !! » . ثم أتبع المنصور هذه الخطوة بكتاب إلى أبي مسلم يعينه فيه والياً على مصر والشام ويعزله عن خراسان[١] فغضب أبو مسلم مرة أخرى وقال : « يوليني الشام ومصر ، وخراسان لي » ! ورفض هذا العرض ، فطلب المنصور من أبي مسلم ، في وضوح ، القدوم إلى بغداد ، وامتنع أبو مسلم عن إجابة المنصور وكتب إليه في جرأة وصراحة يقول : « ... وقد كنا نروى عن ملوك ساسان أن أخوف ما يكون الوزراء إذا سكنت الدهماء ، فنحن نافرون من قربك ، حريصون على الوفاء لك بعهدك ما وفيت ، حريّون بالسمع والطاعة لك غير أنها من بعيد حيث تقارنها السلامة . فإن أرضاك ذلك كنا كأحسن عبيدك ، وإن أبيت إلا أن تعطى نفسك إرادتها نقضت ما أبرمت من عهدك ضنا بنفسي » ! .

---

(١) تظاهر المنصور في هذا الخطاب برغبته في إبقاء أبي مسلم قريباً منه حتى تنتفع الدولة بخدماته . يقول المنصور : « إني قد وليتك مصر والشام فهما خير لك من خراسان . فوجه إلى مصر من أحببت وأقم بالشام حتى تكون بقرب أمير المؤمنين فإن أحب لقاءك أتيته من قريب » .

وقد انتهت هذه المحاولات من الجانبين بقدوم أبي مسلم إلى بغداد ، بعد أن ضيّق المنصور عليه الخناق ، ثم بقتله وتفرق أصحابه من حوله .

ومثل آخر لتنكيل العباسيين بالفرس يتضح فيما تحدثنا عنه في الفصل السابق بما أصاب البرامكة على يد الرشيد الذى دان لهم بمنصبه وبكثير من أمجاده التى يذكرها التاريخ له . وعلى يد الرشيد تلقى الفرس درسهم الثانى فى شكل هذه النكبة التى حلت بالبرامكة ، وكان لهذا تأثيره بعد ذلك فى سياسة الفرس عامة مع العباسيين .

ثالثاً : العرب :

لقد رأينا موقف العباسيين منهم أول الأمر فى كتاب محمد بن على إلى دعاته الذين وجههم إلى المشرق لنشر الدعوة للرضا من آل محمد ومن هذا الكتاب يبين أن العباسيين صرفوا النظر من أول الأمر عن الجماعات العربيـــة ، ولم يفكروا فى اكتساب تأييدها ، بل عملوا على إثارة الأحقاد والإحن بينها حتى تشتغل بمنازعاتها عن النشاط الذى يقوم به العباسيون ودعاتهم . بل بالغ هؤلاء فى موقفهم المعادى للعرب فنصحوا أبا مسلم ، كما رأينا بالتخلص ممن تحوم حوله شبهة مقاومة أو يشك فى موقفه من الدعوة : « وإن استطعت ألا تدع بخراسان لسانا عربيا فافعل ... !! فأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله ... !! فاقتل من شككت فيه ، ومن كان فى أمره شبهة ، ومن وقع فى نفسك منه شيء » !! .

ولا عيب على العباسيين فى هذا فعصبيتهم فى العرب قليلة ، وأنصارهم لا يكفون لإقامة دولة ممتدة الأطراف شاملة السلطان . هذا إلى أن الجماعات العربية كانت قد تفرقت فى الأقطار التى امتد إليها نفوذ الإسلام ، واشتغلت ، أينما حلت ، بمنازعاتها القبلية ، فأصبح من العسير الاعتماد عليها أو جمعها

تحت لواء واحد وإن كان صاحب هذا اللواء «الرضا من آل محمد».

وقد فقد العنصر العربي، كجنس ممتاز، كثيراً من امتيازاته التي كان يتمتع بها في عصر الأمويين، وتدهورت مكانته الاجتماعية في العصر العباسي، وتقدم عليه عنصر آخر كان يعتبر، من وجهة نظر العرب الأوائل، عنصرا أقلّ امتيازا.

ومن مظاهر تدهور مكانة هذا العنصر العربي أنه لم يعد عيبا أن يتولى زعامة المسلمين، عُرْبا وعجما، خليفة هو ابن لأمّ ولد. بل إن سيدة من شريفات العرب، هي زوجة الرشيد، كانت تتقرّب إليه بالجواري تشتريهنّ وتهديهنّ إليه، وهي تعلم أنهن سيأخذن من حظوتها لديه بنصيب كبير.

على أن العرب لم ييأسوا من استعادة مكانتهم التي كانت لهم، وقد حاولوا ونجحوا، ولكن إلى أمد قصير، إذ نجح الفضل بن الربيع، بتعاونه مع زبيدة زوجة الرشيد، في إثارة الرشيد على البرامكة حتى نكبهم، ثم في العمل لتقديم الأمين على المأمون في ولاية العهد رغم صغر سنّ الأمين وذلك لأن أم المأمون فارسية. وقد تولى الأمين الخلافة بعد وفاة الرشيد وعمل الفضل ابن الربيع إلى جانب الأمين واجتهد في حمله على خلع المأمون من ولاية العهد ولكن المأمون تمسك بحقه، ووقف الفرس، والخراسانيون منهم خاصة، إلى جانبه[1]. واشتعلت نار الفتنة ثم الحرب بين الأخوين، وقضى نجاح المأمون في انتزاع الخلافة من الأمين، الذي ذهب ضحية تآمره، على آمال العرب مرة أخرى، وإن لم يكن قد ردّ للفرس كل ما كان لهم من نفوذ في ظل العباسيين الأوائل.

---

(١) قارن هذا الموقف الذي وقفه الفرس بموقفهم من الدولة العباسية في نشأتها، ثم بموقفهم من محاولة نكبة الرشيد عن ولاية العهد.

رابعا : البيت العباسي نفسه :

أدرك العباسيون أنهم وصلوا إلى مركز الخلافة عن غير إجماع من الأمة ، وأنهم هم الذين أعلنوا أنفسهم قادة للمسلمين جميعاً[1] بعد أن خرج هؤلاء المسلمون ، فى مجموعهم ، على حكم بنى أمية . فمن الطبيعى عندئذ أن يلجأ العباسيون إلى نفس الوسائل التى أوصلتهم إلى هذا المركز للعمل على الاحتفاظ به .

ولكننا لا نلبث أن نرى فى البيت العباسى مظاهر عدم الرضا عن الحال التى آل إليها أمر بعض رجالاتهم . وقد تمثل هذا فى مظهرين رئيسيين .

أولها ، أن كثيرا من أقطاب العباسيين الذين حاربوا وجاهدوا لإعلان الخلافة العباسية ، ثم لتثبيت سلطانها ، أدركوا بعد فترة أنها ستنحصر فى فرع معين من البيت العباسى وأن جهودهم التى بذلوها ستضيع عليهم وسيجنى غيرهم ، من نفس البيت العباسى ، ثمارها وينعم بخيراتها . ذلك أن أبا العباس السفاح ولى أخاه أبا جعفر المنصور عهده من بعده وأعرض عن تولية عميه عبد الله وسليمان ابنى على ، وجاء المنصور وأخرجها أيضاً عنهما، كما أخرجها من الناحية العملية عن عم آخر هو عيسى بن موسى ، الذى كان السفاح قد عهد له بعد المنصور ، إذ أخره عن ولاية العهد وقدم عليه ابنه المهدى .

ولم يظهر سخطه من هؤلاء إلا عبد الله بن على الذى ثار على المنصور فى أوائل عهده وخاف فى ثورته أن يخذله الخراسانيون ، وهم عنصر هام فى جيشه الذى كان يستند إليه فى الشام والجزيرة . فتخلص منهم حين علم بقدوم أبى مسلم الخراسانى ، قائد جيش المنصور عندئذ ، لإخماد ثورته[2] .

---

(١) رغم محاولة أبى سلمة الخلال إقامة أحد الزعماء العلويين فى منصب الخلافة .

(٢) قيل إن عدة هؤلاء الخراسانيين سبعة عشر ألفا .

ولكن ثورة عبد الله انتهت ، رغم هذا ، بفشله ثم بهربه إلى سليمان أخيه الذى حصل له على أمان من المنصور ، ثم لم يلبث عبد الله أن وقع فى سجن المنصور وظل فيه حتى توفى ، فقيل إن المنصور قتله فى محبسه ، كما عزل المنصور عمه سليمان بن على عن ولاية البصرة . أما عيسى بن موسى الذى نحاه المنصور عن ولاية العهد وأخره عن ابنه المهدى فقد تنازل عن ولاية العهد بعد تلاعب المنصور به وقيل إنه أكره على خلع نفسه .

وثانى المظهرين أن العباسيين ساروا على سياسة تولية العهد لأكثر من واحد ، فولى أبو العباس السفاح أبا جعفر المنصور ثم عيسى بن موسى ، وولى المنصور ابنه المهدى ثم عيسى بن موسى ، واختار المهدى من بعده الهادى ثم هارون الرشيد ، وولى هذا الأمين ثم المأمون ثم المؤتمن . وقد أدى هذا كله إلى إثارة البغضاء بين أفراد البيت العباسى ، كما يظهر هذا بوضوح فى موقف الهادى من هارون وفى موقف الأمين من المأمون . وتطورت الأمور إلى ما كان ينتظر لها من نتائج إذ انتهزت بعض العناصر هذه الفرص الطيبة وساعدت على التحزب الصحيح ؛ وكان من مظاهر هذا التطور الحرب العنيفة التى اشتعلت بين الأخوين الأمين والمأمون . وقد أدرك المأمون ما وصلت إليه الحال من اضطراب وقلق فعمل على تجنب ما هدد دولة العباسيين بالانهيار ، واستخدم الأتراك يشد بهم أزر جيشه ؛ وعمل بسياسة إرضاء الطوائف وبخاصة طائفتى العلويين والفرس ؛ ولكنه فشل رغم صادق جهاده ، ودب الضعف فى الدولة ، ومهد هذا لتزايد نفوذ الترك تدريجيا على حساب قوة العباسيين :

خامسا : الأتراك :

أدرك المأمون كما قررنا شدة وطأة الفرس فى الدولة وغضب العرب

لتقدمهم عليهم ، كما أدرك عجزه عن إرضاء العلويين ، وأحسّ بما يتهدد البيت العباسىّ من خطر بسبب الاضطرابات الداخلية بين أقطاب هذا البيت . فعالج هذا كله بشيئين :

أولهما : العهد بالخلافة من بعده إلى عباسى واحد ، مع محاولة تجنب ماقد ينشأ عن سوء اختيار ولىّ العهد ، فاختار أخاه المعتصم ، ولم يقدم عليه ابنه ولم يشركه معه تجنباً للشقاق متعظاً بما دار بينه وبين أخيه الأمين ، وأمدّ المعتصم ببعض النصائح التى رغب منه أن يتبعها فى سياسته حتى يعمل على تضييق شقة الخلاف بينه وبين عناصر الاضطراب ، ومن ثمّ ينجح فى السيطرة عليها . ومما جاء فيها : « واعمل فى الخلافة إذا طوقكها الله عمل المريد لله ، الخائف من عذابه وعقابه ، ولا تغتر بالله ومهلته فكأن قد نزل بك الموت ، ولا تغفل أمر الرعية ، الرعيّة الرعيّة ، والعوامّ العوامّ ، فإنّ الملك بهم وبتعهدك المسلمين والمنفعة لهم ، الله الله فيهم وفى غيرهم من المسلمين ، ولا ينتهينّ إليك أمر فيه صلاح للمسلمين ومنفعة لهم إلاّ قدمته وآثرته على غيره من هواك ، وخذ من أقويائهم لضعفائهم ، ولا تحمل عليهم فى شىء ، وأنصف بعضهم من بعض بالحق بينهم ، وقربهم ، وتأنّهم ، وعجّل الرحلة عنى والقدوم إلى دار ملكك بالعراق ، وانظر هؤلاء القوم الذين أنت بساحتهم فلا تغفل عنهم فى كل وقت » ! .

وثانيهما : الحدّ من نفوذ كلّ من العرب والفرس بتقديم عنصر آخر هو عنصر الأتراك . ويتضح موقف المأمون من العرب من الحديث الذى دار بينه وبين أحد رجالهم وقد اعترض طريقه قائلا : « يا أمير المؤمنين انظر إلى عرب الشام كما نظرت إلى عجم خراسان » . فأجابه المأمون إجابة تحليلية تدل على فهمه للمشكلة وإحساسه بها ، كما تدل على أنه ينوى فى نفسه

أمرا يتغلب به على ما يواجهه من نزاع ، ظاهر أو خفيّ ، بين العنصرين المتحاسدين . قال المأمون فى ردّه على هذا العربىّ الشامىّ : « لقد أكثرت علىّ يا أخا الشام . والله ما أنزلت قيسا عن ظهور الخيل إلاّ وأرى أنّه لم يبق فى بيت مالى درهم واحد ، وأما اليمن فوالله ما أحببتها ولا أحبتنى قط ؛ وأما ربيعة فساخطة على الله منذ بعث الله عز وجلّ رسوله صلى الله عليه وسلم من مضر ، وما خرج منها اثنان إلا خرج أحدهما شاريا ... اعزُبْ فعل الله بك » .

ولكن هذه الحادثة والظروف التى قاساها المأمون فى مستهل عهده من حربه مع أخيه الأمين ، وغضبة البيت العباسىّ عليه حين اختار عليا الرضا، قبل قدومه إلى بغداد ، لولاية عهده ، ومحاولة الفرس استغلال الموقف للسيطرة على الدولة والخليفة معاً ، وجهت جهد المأمون إلى العمل فبادر إلى إيجاد نوع من التوازن بين القوى باستخدام الأتراك الذين خبرهم منذ كان مقيما بخراسان ؛ وساعده على هذا أن بعض ولاة الأقاليم الشرقية للدولة كانوا يرسلون عدداً كبيراً من هؤلاء الأتراك فى الخراج ؛ وبهذه الطريقة وصل «طولون» ، والد أحمد ، و «جفّ» ، جد الإخشيد ، إلى مقر الخلافة من الشرق . وهؤلاء الأتراك كانوا بصفة عامة من عنصر مغامر غير مستقر يشبه فى كثير من خصائصه عنصر الأعراب فى بداوتهم . وقد وصل بعض رؤساء هؤلاء الأتراك إلى مراكز القيادة فى الجيش أو الرئاسة فى القصر . ومن أمثلة هؤلاء «طولون» الذى تولى إمارة الستر ، « والأفشين » الذى قاد جيوش المعتصم فى مصر ، وساعده على إخماد الثورات بها ، كما ساعده بعد ذلك فى أيام خلافته .

وقد تعهد الخلفاء هؤلاء الأتراك بالتربية الحربيّة والدينية ، وفى سبيل هذا أباحوا لهم القيام بتمريناتهم فى الفروسية وفى فنون الحرب بمدينة

بغداد ، فأضروا بالأهلين وتعددت الشكاية منهم ، فنقلهم المعتصم إلى مدينة ابتناها لهم خاصة ، هى سر من رأى ، وشدّد رقابته عليهم وعاملهم بحزم ونكّل بالخارجين من رؤسائهم ؛ وممن ناله التنكيل والعقاب قائدهم العظيم « الأفشين » .

ولكن هذا لم يحل بين الأمور وتطورها إلى نتيجتها الحتمية ، وهى نجاح الترك فى السيطرة على الخلافة التى تعددت عوامل الهدم فى بنائها ، وكان نجاحهم بسبب هذا التفكك فى جسم الدولة أبعد أثراً فى نتائجه من نجاح من سبقهم من الفرس .

سادسا : الثورية المنصرية :

وتتمثل فى ثورات متعددة قامت بها طوائف من الفرس ومن غيرهم تدعو بدعاوى هدامة لمبادئ الإسلام ، وتستند إلى أسس من الوثنية القديمة ، فارسية أو تركية ، وقد حرك هذه الثورات ، إلى حد ما ، سياسة العباسيين المنكرة للجميل مع أنصارهم من الفرس ومن الخراسانيين خاصة ، ومع بعض الأتراك .

ومن أمثلة هذه الحركات الثورية حركة الراوندية[1] التى قامت فى عهد المنصور وهى الحركة التى ظهرت بعد مقتل أبى مسلم الخراسانى محاولة إحداث اضطراب فى الدولة . وقد امتد أذاها إلى بغداد بعد أن حبس المنصور من قادتها مائتى شخص رغم مبالغتهم فى الخديعة إذ أظهروا أنهم إنما كانوا يعبدون المنصور نفسه ، ولهذا كانوا يطوفون بقصره ويتصايحون بتقديسه والتسبيح باسمه . وقد خرج المنصور بنفسه لقتالهم إذ اعتبرهم ، بحق ، ثائرين سياسيين ؛

---

(١) سميت بذلك نسبة إلى مقرها الأول وهو مدينة رواند القريبة من أصبهان .

فتجمهروا حوله وكادوا يقتلونه ، ولكنه تغلب عليهم بمساعدة معن بن زائدة الذى كان مختفيا عن المنصور لميوله الأموية . وكانوا يصيحون بالمنصور ، وهو يقاتلهم ، « أنت أنت » ، يعنون أنت الله . ومن الأسس الرئيسية التى قامت عليها هذه الحركة تناسخ الأرواح ، والإباحية ، وألوهية الأئمة . وكان قادتها يزعمون أن الروح التى كانت فى عيسى بن مريم ، صلوات الله عليه ، قد حلّت فى علىّ بن أبى طالب ، ثم فى الأئمة واحداً بعد الآخر ثم فى إبراهيم الإمام العباسى .

تمكن المنصور ، حربيًا ، من إخماد هذه الثورة لكنها لم تلبث أن ظهرت بعد ذلك فى سلسلة من الحركات المتتابعة على فترات مختلفة . ومن أمثلة هذه الحلقات ثورة « المقنّع » الخراسانى فى عهد المهدى ، وقد عرفت باسم المقنعيّة ، وكان زعيمها يضع على وجهه قناعا يستره عن أتباعه يزعم أنه يرحم به عباده الذين يقول عنهم إنهم « لا يطيقون رؤيته على صورته الإلهية ومن رآه احترق بنوره » ! . وكان يزعم كذلك أن روح الله حلت فى آدم بعد خلقه ، ثم فى نوح ، ثم فى إبراهيم ، ثم فى الأنبياء واحداً بعد واحد حتى انتهت إلى محمد صلوات الله عليه ، ثم تحولت بعد ذلك إلى علىّ بن أبى طالب ثم إلى أولاده ، ثم حلت فى أبى مسلم الخراسانى ومنه انتقلت إلى المقنع نفسه .

وأسس هذه الحركة تشبه أسس سابقتها ومن أهمها فكرة الحلول ، أى حلول روح الله فى أجسام البشر ، وألوهية الأئمة . وقد خفف المقنع عن أتباعه الواجبات الدينية ، فأسقط الصلاة والزكاة والصوم والحج ، وجعل الأموال والنساء مباحين لمن آمن به .

وشملت هذه الحركة فى أوسع مجالاتها بخارى وسمرقند من خراسان

وبعض جماعات الأتراك المقيمة عند بحر قزوين . واضطر المهدى إلى أن يرسل سبعين ألف مقاتل للقضاء على هذه الحركة فنجحوا فى مهمتهم ، وشرب « المقنع » نفسه بعد أن اشتد الحصار عليه شرابا مسموما قضى عليه ، وفعل بعض أتباعه وأهله مثل ذلك .

وفى زمن المأمون والمعتصم ظهرت حركة أخرى عرفت باسم حركة الخُرّميّة البابَكية . وكانت لهذه الحركة بالذات خطورة بالغة إذ أنها امتدت إلى ارمينية ، وتحالفت عمليّا مع جيوش بيزنطة ، وهدد هذا التحالف الخلافة العباسية تهديداً خطيراً فى عهد المعتصم .

ومن أهم مبادىء هذه الحركة تأليه البشر ، وتناسخ الأرواح ، والرجعة ، واستمرار الوحى الإلهى ، وصحة جميع الأديان ، وإباحة كل ما يسر النفس وينزع إليه الطبع ، وإلغاء الفرائض الدينية[١] .

وليست خطورة هذه الثورات العنصرية فى الدعاوى التى كانت تنادى بها فقط ، بل كانت خطورتها فى دلالتها على أن الاضطرابات الاجتماعية قد امتدت إلى أنحاء مختلفة من بلاد الدولة الإسلامية . وكانت مقاومة هذه الحركات شديدة الصعوبة ، إذ أنها قامت فى دولة عصبيتها صناعية غير مستقرة ، لا يؤيدها العرب بصراحة عن ولاء ، ولا ينسى لها الفرس تنكيلها برؤسائهم ، ولا يجد الترك ، الذين دخلوا فى خدمتها حديثا ، فى مصانعتها فائدة كبيرة تعود عليهم من خلفائها . وبوساطة هذه الثورات العنصرية استطاعت بعض العناصر الهدّامة أن تظهر بوضوح وأن تدعو إلى مبادئها فى صراحة وجلاء بعد أن كانت تحاول الاحتماء بالعلويين وتزعم

---

(١) كان بدء نشاط الخرمية البابكية فى سنة ٢٠١ فى عهد المأمون ومنتهاه فى سنة ٢٢١ فى عهد المعتصم .

انها تدعو إلى استرجاع الحق لهم . وإلى هذه الحركات أيضاً يرجع السر في الخرافات والعقائد المبتدعة التي أصابت الإسلام كدين في مراحل مختلفة، والتي لا يزال المسلمون يقاسون من أضرارها في تاريخهم الحديث .

سابعا : تراخي قبضة الخلافة على الأطراف :

فقد انسلخت الأندلس عن دولة العباسيين منذ فجر الدولة إذ هرب إليها بقايا الأسرة الأموية ونجح عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك المعروف باسم عبد الرحمن الداخل في تأسيس الدولة الأموية الثانية بالأندلس في عهد المنصور . وقد أرسل المنصور إليه جيشاً من إفريقية بقيادة العلاء بن مغيث اليحصبي فانهزم العلاء وجنده وقتل منهم سبعة آلاف وحملت رءوس بعضهم إلى مكة وبها المنصور وقتئذ. وكان المنصور يبدي إعجابه بعبد الرحمن الداخل ويسميه صقر قريش : قال يوما لبعض مجالسيه : « أخبروني عن صقر قريش من هو » ! « قالوا أمير المؤمنين الذي راض الملك وسكّن الزلازل وحسم الأدواء وأباد الأعداء » . قال : « ما صنعتم شيئاً » . قالوا : « فمعاوية » . قال : « ولا هذا » . قالوا : « فعبد الملك بن مروان » . قال : « ولا هذا » . قالوا : « فمن يا أمير المؤمنين » ؟ قال : « عبد الرحمن بن معاوية الذي عبر البحر ، وقطع القفر ، ودخل بلداً أعجمياً مفرداً ، فمصّر الأمصار ، وجنّد الأجناد ، ودوّن الدواوين ، وأقام ملكا بعد انقطاعه بحسن تدبيره ، وشدة شكيمته » ! .

وفي ظل هذه الدولة الأموية الثانية أينعت السياسة والعلوم والفنون .

وبالغ العباسيون في اضطهاد العلويين فهرب أحدهم إلى شمالي إفريقية حيث ساعد أتباعه في إقامة الدولة الإدريسية العلوية ؛ وهرب أخوه إلى بلاد الديلم ، عند بحر قزوين ، حيث نجح إلى حد كبير في تكوين رأي عام شيعي .

وحاول الرشيد أن يقضى على دولة الادارسة فى أول أمرها ولكنه عالج الأمر بطريقة كانت هى فى نفسها خطراً جديداً على العباسيين، إذ أعطى الجزء الشرقىّ من شمالىّ إفريقية (بتونس) إلى إبراهيم بن الأغلب ليحول دون امتداد سلطان الأدارسة نحو الشرق فاستقل الأغالبة بعدُ بتونس .

وحاول المأمون أن يحدّ من سيطرة العلويين على اليمن، فأرسل بمحمد بن إبراهيم الزيادى ليفتحها، ففتحها ووليها، وأسس بها دولة كان كل ارتباطها فى أول أمرها بالخلافة العباسية يتمثل فى الخطبة والخراج ومن ثَمّ استقلت اليمن أيضاً وتأسست فيها الدولة الزيادية .

وبخراسان ولى ابن طاهر من قِبل المأمون أيضاً ولم يلبث بعد قليل أن نُسب إليه أنه خطب الجمعة دون أن يذكر اسم المأمون بها، وبلغ هذا الأمر المأمون،وبعد البلاغ بقليل توفىّ ابن طاهر فقيل إن المأمون أرسل من دسّ له السّم . ورغم هذا أصبحت خراسان بعده فى أسرة بنى طاهر مستقلة إلى حد كبير عن العباسيين .

وهكذا نجد موارد الخلافة العباسية فى القرن الأول من حياتها تقل بالتدريج فى الإخلاص وفى الأموال، كما نجد قوتها منهكة فى مقاومة الثورات، علوية وعنصرية، ونجدها مضطربة فى اختيار الأنصار، فتغضب فريقا وترتمى فى أحضان فريق آخر يستغلها بدوره ويعمل جاهداً على إضعافها ويزيد من متاعبها وآلامها . ونتيجة هذا كله ضعف سلطتها وانحسار نفوذها عن أقاليم الدولة وأطرافها، وتفكك وحدة الأمـــة لغيبة القوة المسيطرة التى تشيع فيها الوحدة والتماسك .

الفصل الخامس

عصر نفوذ الأتراك (١)

الأتراك عامل موجه لسياسة الدولة

تمهيد :

رأينا أن عصر المأمون شهد مقدم العنصر التركى إلى الدولة العباسية فى ظروف اتضح فيها النزاع بين العرب والفرس فى أجلى صوره ، فلم تكن خلافة الأمين إلا فرصة مهدلها وأفاد منها العنصر العربى بعد أن قضى الرشيد على نفوذ البرامكة ، ولم يكن تولى المأمون خلافة المسلمين إلا فرصة عمل لها وأفاد منها العنصر الفارسى كحركة رد فعل للانتصار الذى أدركه العرب منذ نهاية عهد الرشيد . ولكن المأمون حاول من جانبه ، باعتدا له ، أن يوجد شيئا من الاستقرار فى الدولة ، ووسيلته التى رآها مفيدة وموصلة إلى تحقيق هذا الهدف هى كبح جماح الفريقين وتخفيف حدة النزاع بينهما حتى ينصرف كل منهما عن إثارة الفتن ، خفية أو ظاهرة .

ولهذا بدأ المأمون باستخدام الأتراك الذين احتك بهم وخبرهم منذ كان مقيما فى خراسان ، فاستقدم منهم عددا ، محدودا فى أول الأمر ، ألحقهم بجيشه ليكونوا مساعدا على إقرار الأمور بإيجاد نوع من التوازن بين الفرس ، الذين تفاقم نفوذهم وسلطانهم على أيدى الفضل والحسن ابن سهل ، والعرب الذين اشتد قلقهم بعد فشل جهودهم التى حاولوا بها استعادة مكانتهم وهى المحاولة التى انتهت بمقتل الأمين .

وهذه الخطوة كانت كفيلة بأن تلقى شيئا من النجاح إن كانت الخلافة على درجة من القوة والحكمة تكفيان لإعداد هؤلاء الأتراك إعدادا مدنيا ثقافيا ينتزع منهم مظاهر عنجهيتهم ويهيئهم للحياة الحضرية الراقية التى أقبلوا عليها. ولكن الخلافة، من بعد المأمون، لم تتوفر لها هذه القوة ولا تلك الحكمة، كما أن الخلفاء الذين جاءوا بعد المأمون، والمعتصم بخاصة[1]، أسرفوا فى استخدام هؤلاء الأتراك واستكثروا منهم بصورة واضحة، حتى غدا الأتراك، وفى طبيعتهم العنصرية مغامرة وبداوة، سببا فى كثرة المتاعب التى لحقت بالشعب العراقى وبأهل بغداد بصفة خاصة. فارتفعت شكاية الناس منهم لما نال نساءهم وأطفالهم من شر هؤلاء الأتراك الذين كانوا يقومون بتمريناتهم الحربية فى الأسواق، ولا يبالون أن يصدموا الشيخ الكبير أو الصبى أو الضرير. وقد حاول بعض أهل بغداد أن ينتقم من هؤلاء الأتراك المتجبرين لما يسببونه، من أحداث فكانوا ينكسونهم عن دوابهم ويجرحون بعضهم.

وقد رأى رجل مسنّ من بغداد المعتصم منصرفا من المسجد فقام إليه متقدما بشكواه، فحال بعض الجند الأتراك بينه وبين الخليفة وآذوه فكفّهم المعتصم وسأل الشيخ عن مظلمته فقال: «يا أبا إسحاق، لاجزاك الله عن

(١) وكانت أمه تركية فاستقدم الكثير منهم من بلاد ما وراء النهر حيث كانوا يباعون فى أسواقها وألبسهم أنواع الديباج ومناطق الذهب، وحاول إعدادهم إعدادا دينيا وحربيا ثم اعتمد عليهم فولاهم حراسة قصره، وأسند إليهم المناصب الرئيسية داخل القصر وفى الجيش، ولكن هؤلاء الأتراك كانوا بعيدين عن الحضارة والعلم، وإن اعتنقوا الإسلام وتمسكوا بظاهره. واطمأن المعتصم إليهم واعتمد عليهم إلى حد كبير فبالغ فى الإكثار منهم. ولهذا يقرر كثير من المؤرخين أن المعتصم هو الذى بدأ باستخدام الأتراك وذلك برغم مجيئهم إلى دار الخلافة منذ عصر المأمون. ومن هؤلاء الوافدين على المأمون طولون والد أحمد بن طولون صاحب مصر فيما بعد.

الجوار خيرا ! جاورتنا وجئت بهؤلاء العلوج فأسكنتهم بين أظهرنا ، فأيتمت بهم صبياننا ، وأرملت بهم نسواننا ، وقتلت بهم رجالنا ! .

ولما اشتد خطر هؤلاء الأتراك فى بغداد وتعددت الشكاية منهم وأدرك المعتصم نفسه خطرهم عمل على تخفيف ضررهم بنقلهم إلى المدينة التى بناها لهم خاصة ، وهى سر من رأى ، وأخذهم بالقوة والحزم أحيانا فى سبيل التخفيف من عنجهيتهم .

ونود هنا أن نلاحظ ، مرة أخرى ، أن الأتراك دخلوا فى خدمة الدولة ليكونوا عامل توازن بين العرب والفرس وأن عددهم تزايد بدرجة واضحة فى عصر المعتصم الذى اطمأن إليهم ، إلى حد كبير ، وأسند إليهم كثيرا من المناصب العليا فى الدولة . وقد تمكن الأتراك من أن يجعلوا نفوذهم محسوسا منذ اللحظة الأولى ، وتأثيرهم فى هذا يختلف عن تأثير أسلافهم الفرس من حيث الشكل ، ذلك أن الأتراك علموا أنهم إنما جاءوا ليكونوا قوة عاملة فعالة تستند إليها الخلافة ، فعملوا بما يحقق هذا الهدف مباشرة ومن أقصر الطرق ، بينما كان الفرس يحاولون ، فى فترة نفوذهم ، إشعار الشعب ، بصفة عامة ، بحاجته إليهم ، واستخدموا فى سبيل هذا موارد الدولة المادية إلى جانب التأثير السياسى المنظم . وفى طبيعة كل من العنصرين ما يساعده على اتباع وسيلته الخاصة فى سياسته وسلوكه ، فللفرس مجد قديم وتاريخ حضرى طويل ، تدربوا فيه على الأساليب السياسية والدبلوماسية ، وقد وضعوا نصب أعينهم أن يعملوا على استعادة هذا المجد فى حكمة وفى هدوء . على حين لم يكن لهذه الجماعة التركية التى التحقت بخدمة العباسيين فى سابق تاريخها إلا وسائل الحياة البدوية المعروفة .

والواقع أن الأتراك لم يكتفوا بأن يعملوا إلى جانب الخلافة لمساعدتها على مواجهة عوامل الخطر التي تهددها من جهة الفرس وتطاولهم في نفوذهم وإنما أرادوا أن ينفردوا بالسلطان الفعلي دون الخلفاء . وإذا كان من الصعب القول بأنهم كانوا يطمعون في هذا بطريقة شعورية إرادية ، فإن من الثابت المؤكد أنهم استطاعوا أن يكونوا أصحاب السلطان المطلق المستبد في فترة امتدت نحو قرن ، كما أن من المؤكد كذلك أن الظروف التي وجدوا فيها والصفات العنصرية التي اتصفوا بها مكنت لهم ووضعتهم في مكان الصدارة . وهذه الخصائص العنصرية نفسها هي التي جعلتهم يوسّعون شُقّة الخلاف الذي ظهر بين طوائفهم المختلفة حين ظهر ، بدلا من أن يتعاونوا على رأب الصدع وجمع الكلمة .

وسنتحدث عن هذه الفترة التي سيطر فيها الأتراك من زاويتين متقابلتين نركّز الكلام في كل منهما عن عدة نقط نحاول بها أن نرسم صورة ممثلة لأحوال الدولة العامة ومظاهر قوتها وضعفها في هذا العصر .

الأتراك كعامل موجه لسياسة الدولة :

أولا : السيطرة الخلافة :

توفي الواثق بالله ، في ذي الحجة سنة ٢٣٢ ، ولم يعيّن ولي عهده في الخلافة ، وقد قيل إن بعض خاصته عرض عليه أن يوصي بالخلافة من بعده فتحرّج أن يفعل وقال « لا يراني الله متقلّدها حيا وميتا » ا وهي عبارة مشابهة لما روي عن عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، قبيل وفاته . وقد اجتمع كبار رجال الدولة ، بعد وفاة الواثق ، للنظر في اختيار الخليفة الجديد ،

وفى هؤلاء أحمد بن أبى دؤاد القاضى ، ومحمد بن عبد الملك الزيات الوزير ، وعمر بن فرج وأحمد بن خالد الكاتبان ، واثنان من القادة الأتراك هما وصيف وإيتاخ . وتناقش المجتمعون وكاد اختيارهم يقع على ولد للواثق يسمى محمدا ، وهو طفل صغير ، لولا أن تدخل وصيف القائد التركى قائلا : « أما تتقون الله ! تولّون مثل هذا الخلافة وهو لا تجوز معه الصلاة » ! فعدل المجتمعون عن اختياره وولّوا جعفر بن المعتصم الخلافة ولقبوه المتوكل على الله ، وكان مغضوبا عليه فى عهد أخيه الواثق مكروها من بعض رجالات الدولة .

وهكذا نرى أن اختيار المتوكل على الله ليتولى منصب الخلافة يرجع فى بعض ظروفه إلى توجيه أحد القواد الأتراك ، وهو توجيه تبدو فى ظاهره الرغبة فى مراعاة المصلحة العامة باختيار شخصية مناسبة لهذا المنصب الكبير. ولكن الأتراك لم يلبثوا بعد هذا أن أصبحوا أصحاب الكلمة العليا فى اختيار الخلفاء ، وفى عزلهم ، وفى تعذيبهم وقتل بعضهم . ومن أمثلة هذه السيطرة ما حدث فى تولية محمد المنتصر — وهو ابن المتوكل — الخلافة سنة ٢٤٧ ، إذ أحس الأتراك بالمحاولات التى كان المتوكل يقوم بها للتخلص من بعضهم ، فتعاونوا مع المنتصر الذى حاول أبوه أن ينحّيه عن ولاية عهده . وتم للخلفاء التخلص من المتوكل بقتله فى مجلس شرابه ، ومعه نديمه ، ثم بايعوا المنتصر خليفة للمسلمين[1] .

وبعد مقتل المتوكل وولاية المنتصر اشتدت قبضة الأتراك على الدولة ،

---

(١) ولقد رثى الشاعر البحترى المتوكل بقصيدة من أبدع ماجاء فيها قوله عن المنتصر :

أكان ولى العهد أضمر غدرة فمن عجب أن ولى العهد غادره
فلا ملى الباقى تراث الذى مضى ولا حملت ذاك الدعاء منابره

ودبّ فى قلوب العباسيين ورجالهم الخوف منهم وهيبة سطوتهم ؛ وخاف الأتراك بدورهم أن يفلت الزمام من أيديهم بعد أن بدءوا باستخدام العنف مع القوة الأولى فى الدولة ، وهى الخلافة . فأصبح من الضرورىّ ، لكى يحافظوا على بقائهم وكيانهم ، أن تستمر هذه القوة الأولى تحت سيطرتهم المباشرة فعملوا على تحقيق هذه السيطرة .

ومن الأمثلة التى توضح هذا أن الأتراك لم يحبوا أن يلى أمر المسلمين من بعد المنتصر أخوه المعتز الذى كان أبوه المتوكل يريد تقديمه على أخيه . فحسّنوا للمنتصر أن يعمل على خلع المعتز وأخيه المؤيد من ولاية العهد ؛ ولم يزالوا فى إلحاحهم وتحايلهم حتى قبل المنتصر مايطلبون ، واستدعى أخويه وجعلهما فى دار ، فقال المعتز للمؤيد : « ياأخى تُرى لم أحضرنا ؟ فقال المؤيد : ياشقىّ للخلع ! فقال لا أظنه يفعل بنا ذلك » ! . وبعد قليل جاء رسول الخليفة يطلب منهما أن يخلعا نفسيهما عن ولاية العهد فأجاب المؤيد ورفض المعتز ؛ فأفرد المعتز فى دار وعومل بعنف وقسوة حتى قبل التنازل كأخيه .

ومما يرويه المؤرخون فى هذه المناسبة أن المؤيد قال لأخيه : « ياجاهل ! تراهم قد نالوا من أبيك وهو ما هو ما نالوا ثم تمتنع عليهم ! اخلع — ويلك — ولا تراجعهم » ! . وقد كتب كلٌّ من الأميرين استقالة جاء فيها : « إن أمير المؤمنين المتوكل على الله ، رضى الله عنه ، قلّدنى هذا الأمر وبايع لى ، وأنا صغير ، من غير إرادتى ومحبتى ؛ فلما فهمت أمرى علمت أنى لا أقوم بما قلّدنى ولا أصلح لخلافة المسلمين . فمن كانت بيعتى فى عنقه فهو من نقضها فى حلّ ؛ وقد حللتكم منها وأبرأتكم من أيمانكم ، ولا عهد لى فى رقابكم ولا عقد ، وأنتم بَراء من ذلك » .

ومن بعد المنتصر ولى المستعين ، سنة ٢٤٨ ، بتولية الأتراك وحدهم ، إذ اجتمع بعضهم ، وفيهم بُغَـا الكبير وبغا الصغير وأتامش ، فاستحلفوا القادة على « أن يرضوا بما رضى به من سَمَّيْـنا » ، فكان هذا أحمد بن محمد بن المعتصم[1] .

ثم لم يلبث عدد من قادة الأتراك أن غضبوا على المستعين الذى رفض العودة معهم إلى سرّ من رأى ، فبايعوا المعتز بالخلافة واشتعلت الحرب بين الفريقين وانتهت بسجن المستعين ثم بقتله فى محبسه .

وعندما تولى المعتز الخلافة اجتمع بعض خواصه فى مجلس وأحضروا معهم بعض المنجمين وقالوا لهم : انظروا كم يعيش المعتز وكم يبقى فى الخلافة ؟ فقال بعض الظرفاء : أنا أَعْـرَفُ من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته . فقالوا : فكم تقول إنه يعيش وكم يملك ؟ قال : قدر ما يريد الأتراك ! » .

وكان المعتز هذا يخشى الأتراك أشد الخشية ، ويخاف منهم بغا الصغير بصفة خاصة ، ولهذا لم يكن مطمئنا فى نومه لا يخلع سلاحه فى ليل أو فى نهار ، وكان يقول : « لا أزال على هذه الحالة حتى أعلم : لِبُغَـا رأسى أو رأسُـه لى ! إنى لأخاف أن ينزل علىّ بغا من السماء أو يخرج علىّ من الأرض ! » .

وقد حدث للمعتز ما خافه من جانب الأتراك ، إذ اختلف معهم فى بعض الشئون المالية فدخلوا عليه يريدون محادثته فى أمرها ويعرضون عليه أن يخلصوه من عدوّه صالح بن وصيف أحد قادتهم ، فاعتذر عن لقائهم مدّعيا

---

(١) وكانوا قد قرروا ألا يختاروا أحدا من إخوة المنتصر حتى لا يعمل على الانتقام منهم لقتلهم المتوكل من قبل .

المرض ؛ فدخلوا عليه وجرُّوه من رجله ، وتعاوروه بجرابهم وأقاموه في الشمس بقميصه الملوّث بالدم يرفع رجلا ويضع أخرى من شدة الحرّ ، وأرغموه على إمضاء وثيقة تنازله عن الخلافة ثم . . . ثم سجنوه ثلاثة أيام منعوا فيها عنه الماء والطعام ، وواصلوا تعذيبه في محبسه حتى مات ! .

وهكذا تمت السيطرة الكاملة المتجبرة للأتراك على الخلافة رأس الإدارة الحكومية وعصبها.

ثانيا : الأتراك والوزارة :

لم يقنع الأتراك بسيطرتهم على الخلفاء سيطرة متجبرة وبتصرفهم الكامل في منصب الخلافة ولاية وعزلا وسجناً وتعذيباً ، وإنما أرادوا أن يمتد سلطانهم إلى الوظائف الإدارية والمالية بصفة خاصة ؛ وفي مقدّمة هذه الوظائف منصب الوزارة التي أصبحت في هذا العهد محنة شديدة لمن يتولاها من الوزراء بسبب ما ينتظره من عزل وسجن ومصادرة للأموال . وتركز عمل الوزراء في هذا العصر في الإشراف على الأموال ومحاولة الحصول عليها بأية وسيلة لسدّ حاجات الأتراك وكبار قوادهم ومقدّميهم ؛ ومن فشل منهم في توفير هذه الأموال أصبح عرضة للتنكيل به ومصادرة أمواله ، وكذلك مصادرة أموال كتابه وأقربائه إذا أريد زيادة التنكيل والتعذيب .

ومن مظاهر سيطرة الأتراك في ميدان النشاط الوزارى ما رأيناه من أن الوزير قد اشترك مع القاضي واثنين من القواد الأتراك في اختيار الخليفة المتوكل ، أى أن الوزير كانت له في هذه المناسبة بالذات ، في أوائل عهد نفوذ الأتراك ، كلمة مسموعة إلى حدّ ما . . . ولكننا نرى أن اختيار

المنتصر ، وكذلك اختيار معظم من جاء بعده من الخلفاء فى هذا العصر ، كان بيد الأتراك وحدهم ولم يعد للوزراء فيه كبير شأن .

وفى نفس هذه الفترة حاول الأتراك أن يشغلوا بأنفسهم منصب الوزارة حتى يكون الأمر كله بأيديهم ، وقد نجحوا فى ذلك فى عهد المستعين بالله الذى عين القائد أتامش وزيراً له ، بعد أن غضب الأتراك على وزيره أحمد بن الخصيب ، وكان من قبل وزيراً للمعتصم أيضاً . وقد عزل الأتراك ابن الخصيب وصادروا أمواله وأموال ولده ، ثم نفوه إلى جزيرة إقريطش .

ولكن هذه التجربة لم تنجح كثيراً بسبب ما بدأ يدب بين القادة الأتراك من حسد وغيرة وتنازع على السيطرة ، واتُّهم أتامش باستغلال أموال الدولة لنفسه خاصة ، وتآمر عليه بعض قادة الأتراك وفيهم وصيف وبغا فهرب منهم ، ولكنهم تتبعوه حتى اعتقلوه . وعندئذ قرّر الأتراك أن يعرضوا عن تولّى منصب الوزارة بأنفسهم بعد أن أدركوا أن من مصلحتهم تجنب متاعبها . وقرروا أن يتفرغوا للإشراف التام على قصر الخلافة وعلى شئون الدولة جميعاً ، وكان هذا يعنى الإشراف على الوزارة أيضاً ، وأصبح تعيين الوزراء وترشيحهم منذ ذلك الوقت يتم عن طريقهم . وقد أتاح هذا التفرغ للإشراف من جانب الأتراك الفرصة التى مكنتهم من مراقبة الدسائس والمؤامرات التى بدأت تجد بعض التأييد من الخلفاء وأعوانهم .

ومن أمثلة هذه السيطرة المشرفة على منصب الوزارة ما حدث فى عهد الخليفة المعتز بالله (٢٥٢ — ٢٥٥) إذ اختلف الأتراك فى شأن أول وزرائه جعفر بن محمود الإسكافى ، وكادت الفتنة تشتعل بينهم بسببه فتخلصوا منه بالعزل . وفى عهد المعتز أيضاً تولى الوزارة أحمد بن اسرائيل ، وكان موضع ثقة الخليفة ، وحاول أن يحدّ من استغلال الأتراك ، فدخل جمع

منهم مجلس الخليفة وقالوا يا أمير المؤمنين ليس للأتراك عطاء ولا في بيت المال مال ، وقد ذهب ابن إسرائيل وأصحابه بأموال الدنيا . ودار نقاش بين الوزير وأحد قوادهم سقط فيه القائد على الأرض مغشيا عليه من الغيظ ، فدخل الجند المجتمعون بباب الخليفة وقد شهروا سيوفهم ، فهرب المعتز من المجلس وقبض الأتراك على الوزير وأعوانه ، كما قبضوا على كاتب أم الخليفة ؛ ثم أرسل المعتز إليهم يشفع في وزيره ويرجو إطلاقه من حبسه فرفضوا ؛ وتوسطت أم الخليفة لإطلاقه وللإفراج عن كاتبها فلم يقبلوا وساطتها .

وبسبب هذه السيطرة المتجبرة على الوزارة نجد هذا المنصب وقد تدهورت مكانته وانحطت منزلته ، وغدا الوزير غير قادر على البقاء فيه فترة تكفى للشروع في أي إصلاح يعود على الدولة بشيء من الفائدة ، وكثر التغيير والتبديل في أشخاص الوزراء حتى إن عهد المعتز بالله ، وقد استمر نحو ثلاث سنوات ، شهد أربع تغييرات ؛ كما شهد عهد المقتدر اثنى عشر وزيراً ولى بعضهم الوزارة أكثر من مرة . وقد ولى المستعين بالله أبا صالح عبد الله بن محمد بن يزداد وزارته فاستطاع أن يضبط الأموال وينظم الإشراف عليها ؛ ولكنه في سبيل هذا ضيق على الأتراك بعض التضييق فلم يلبثوا ان تهددوه بالقتل فهرب ولم يستوزر المستعين بعده احدا .

وعليّ بن عيسى وزير المقتدر بالله الذي يقول فيه الصولي : « ما أعلم أنه وزر لبني العباس وزير يشبه علي بن عيسى في زهده وعفته ، وحفظه للقرآن وعلمه بمعانيه ، وكتابته وحسابته ، وصدقاته ومبراته » ، لم يلبث أن عزل عن الوزارة وأودع السجن رغم ما قام به من إصلاح .

وفي أواخر هذا العهد ، وفي عهد الخليفة الراضي على وجه التحديد ، فقد الوزراء كل ما كان لهم من نفوذ ، واقتصر عملهم على الحضور إلى القصر

فى أيام المواكب والأعياد بملابسهم الرسمية السوداء ، حاملين سيوفهم ليشاركوا فى الاحتفالات والمواكب . وأصبح تعيين هؤلاء الوزراء ، عندئذ ، من اختصاص الأمراء الأتراك .

وهكذا نجد سلطان الأتراك وسيطرتهم شاملين فى الوزارة أيضاً كما كانا نافذين فى الخلافة ؛ ونصيرهم فى هذا سلاحهم الذى كانوا يشهرونه فى وجه كل معترض لرغباتهم .

ثالثا : تفكك وحدة الأتراك وتنافسهم :

والسرّ فى هذا أن الأتراك لم يكن يربطهم بعضهم ببعض أى رباط سوى رباط العنصرية ، وكان هذا الرباط نفسه يعنى أنهم كانوا يتصفون بصفات المغامرة والمشاكسة والاعتداء أحياناً ، وعدم الخضوع أو الاستسلام ولو كان هذا الخضوع لفرد أو لجماعة من نفس الجنس ، شأنهم فى هذا شأن الأعراب البدو فى جاهليتهم يغضبون لما يمسّ حريتهم ، ويثورون على من يفكر فى السيادة عليهم أو يحاول كبح جماحهم . ثم لو فُرض وطُلب من الأتراك الخضوع ، فلمن يخضعون ؟ أللخلافة الضعيفة المتهالكة وقد عملوا منذ اللحظة الأولى على إذلالها وإخضاعها لنفوذهم وسيطرتهم ؛ ومكنتهم الخلافة نفسها من ذلك إذ أسندت إليهم ، منذ استخدمتهم ، المناصب الرئيسية فى القصور والدواوين والولايات وفى الجيش !! أم للوزراء وقد كانوا بدورهم يعانون الأمرّين من تنكيل الخلفاء بهم وغضب الأتراك عليهم ، وما يصحب هذا وذاك من مصادرة وسجن وتعذيب .. !! أم لرؤساء الأتراك أنفسهم وهم ، كما ذكرنا ، لا يرتبطون بعضهم ببعض إلاّ برباط العنصرية والجنس ؛ هذا إلى أنهم ليسوا إلاّ فئات

متباينة لكل منها زعماؤها ورؤساؤها المباشرون ، كما أن لهم من بين الكتاب من ارتبطت مصالحهم ومطامعهم بهم .

وهكذا لم يجد الأتراك ، بعد أن اطمأنوا على مكانتهم الممتازة فى الدولة وعلى سيطرتهم المباشرة عليها ، إلا أن ينصرفوا إلى منازعاتهم فيما بينهم وإلا أن يتنافسوا على مراكز الصدارة ، وفى هذا الاتجاه خطورة شديدة على كيانهم ووحدتهم .

وقد أدرك الأتراك أنفسهم مدى هذه الخطورة منذ اكتملت سيطرتهم وتأكدت سطوتهم ، وعبروا عن شعورهم نحو الخطر الذى يتهدد وحدتهم فى مناسبات مختلفة ، من بينها مناسبة انتخاب الخليفة المستعين . فقد اجتمع بعض القادة من الأتراك بعد وفاة المنتصر ، سنة ٢٤٨ ، وتناقشوا فى موضوع الخلافة لاختيار من يولونه بعد المنتصر ، وفى المجتمعين أتامش وبغا الكبير وبغا الصغير . وقد أخذ هؤلاء العهد على من يليهم فى القيادة أن يقبلوا من يختارونه للخلافة وينضووا تحت لوائه ؛ ثم اتفق هؤلاء الثلاثة الكبار على ألا يولوا أحداً من أولاد المتوكل لئلا ينتقم منهم بسبب قتلهم المتوكل ؛ ولكنهم قرروا مع هذا ألا يخرج الاختيار عن أولاد المعتصم ولى نعمتهم . فتردد عندئذ اسم أحمد بن المعتصم ، ولكن محمد بن موسى بن شاكر المنجم ، وكان ، حاضراً المجلس ، اعترض على هذا الاختيار قائلا : « أتولون رجلا يرى أنه أحق الناس بها قبل المتوكل وأنكم دفعتموها عنه ؟ فبأى عين يراكم وأى قدر يكون لكم عنده !! ولكن ولوا من يعرف فضلكم عليه ويقدر خدمتكم له » . فقبل الحاضرون جميعاً رأى المنجم إلا بغا الكبير الذى قال : « نجىء بمن نهابه ونفرقه فنبقى معه ؛ وإن جئنا بمن يخافنا حسد بعضنا بعضاً وقتلنا أنفسنا » ! .

وبهذا عبرّ بغا الكبير عن مخاوفه على قومه مدركا مقدار مايتهدد وحدتهم من خطر مُهمْ أسلحته القاتلة . وقد تحققت نظرة بغا هذه فى عهد الخليفة الذى انتخبوه فى مجلسهم ذاك ، وهو المستعين ، إذ لم يلبث أتامش أن تولى الوزارة للمستعين فاختص بعض القادة ببعض المناصب وأطلق الخليفة ، مضطراً ، يد أتامش فى الإدارة وفى الأموال ، ونقل أتامش مافى بيوت المال إلى خزائنه الخاصة وترك بعضه لأعوانه ولابن الخليفة الذى كان يتربى فى حجره ؛ وصارت الكلمة العليا للوزير وحده دون بقية القادة . فتحالف وصيف وبغا ضد أتامش ودبرا ثورة ضده ألجأته إلى قصر الخليفة مستجيراً به ، ولكن الخليفة تقاعس عن نُصرته فأراد الهرب فلم يستطع ، ووقع فى أيدى الثائرين فاعتقلوه ثم قتلوه وقتلوا كاتبه ، ونهبوا دورهما وأخذوا مافيها من أموال وفُرُش وأمتعة .

ثم اتفق وصيف وبغا على قتل باغر التركى الذى كان قد تولى مهمة اغتيال الخليفه المتوكل . وجريمة باغر التى دفعت وصيفا وبغا إلى التآمر ضده أنه جمع أعوانه الذين ساعدوه عند قتل المتوكل وأخذ عليهم المواثيق أن يعينوه فى قتل المستعين ووصيف وبغا للتخلص منهم ، وعندئذ يعلن باغر أحد اثنين ، علىّ بن المعتصم ، أو ابن الواثق ، خليفة ، وقال باغر لأعوانه : « ويكون الأمر لنا كما هو لهذين اللذين قد استوليا على أمر الدنيا وبقينا نحن على غير شىء » .

وقد نجح وصيف وبغا فى مؤامرتهما ضد باغر وتمكنا من قتله ، فثار أعوانه واضطر المتآمران إلى مبارحة سرّ من رأى إلى بغداد ، وأخذا معهما المستعين . فبايع أعوان باغر ، ومن انضم إليهم ، المعتز فى سرّ من رأى،

ونشب النزاع بين الفريقين ، وانتهى بنجاح المعتز وأنصاره و خلع المستعين وسُجن ثم راح ضحية المؤامرة .

رابعا : ثورة الجند الأتراك :

أنهكت الاضطرابات التى سببها النزاع بين زعماء الأتراك وقادتهم ، حول مكان الصدارة ، دولة العباسيين ، كما أدت إلى إفلاس الخزانة وبيت المال . وساعد على هذا تزايد ضغط الأتراك على الوزراء وكتاب الدواوين للحصول على الأموال التى تمكنهم من إرضاء جندهم وأعوانهم حتى يستمروا على ولائهم لقادتهم المتنافسين . وواصل الزعماء مطالبتهم للخلفاء بأرزاقهم وأرزاق جندهم ، وتمسكوا بمراسم التعيين وهباته التى أصبحت فرضا على الخلفاء يقدمها كل منهم لمن ساعدهم فى تولّى منصب الخلافة من القادة الأتراك والجند التابعين لهم .

ولكن الفتن المتوالية فى داخل الجماعة التركية والمطالبة المستمرة بالأموال أدت إلى عجز الزعماء بسبب المصروفات الهائلة فى هذه الفتن عن إرضاء جنودهم ، كما أدى انقسام الأتراك إلى جماعات متنافرة إلى ضعف سيطرتهم بعض الشىء على موارد الرزق وبيوت الأموال . ومن ثمّ لم يستطيعوا سدّ حاجات جندهم ورجالهم ، بل اضطرب نظام أرزاقهم ومرتباتهم ؛ ولم يسكت هؤلاء الجند عن المطالبة باستحقاقاتهم فى مناسباتها المختلفة المتعددة .

ومن أمثلة هذه الثورات التى قام بها الجند تلك الفتنة التى قامت عقب خلع المستعين وولاية المعتز . فقد اضطربت سياسة المعتز فى معاملته للقادة الأتراك بسبب انقسامهم إلى فريقين كبيرين أحدهما يناصره ويعاونه ضد الفريق

الثانى الذى كان يؤيد المستعين . وبعد مقتل المستعين واستقرار المعتز فى الخلافة لم يلتئم جمع الأتراك عن إخلاص وإنما وجد نوع من التفاهم بين الفريقين لم يؤدّ ، فى واقع الأمر ، إلى اطمئنان أحد فى الدولة سواء فى ذلك المقيمون فى سرّ من رأى والمقيمون فى بغداد . وقد أدت هذه الفوضى إلى انقطاع مرتبات بعض فرق الجند نحو أربعة أشهر فخرج جمع منهم إلى بعض قادتهم فى سرّ من رأى ، وفيهم وصيف ، وطالبوهم بأرزاقهم ؛ فتكلم وصيف وقال خذوا ترابا ، وهل عندنا مال ! وقال لهم بغا نذهب الى أمير المؤمنين فنستمدّه . وبقى وصيف مع الجند فوثبوا عليه وقتلوه وقطعوا رأسه ورفعوها على محراك تنور .

وحدثت فتنة مماثلة لهذه فى بغداد إذ انقطعت أرزاق الجنود نحو شهرين فتجمعوا داخل المدينة ومعهم الأعلام والطبول وأقاموا بيوتا مؤقتة من الخيام وأعواد القصب استعدادا لإثارة الاضطرابات . فأسرع أمير بغداد عندئذ ، وهو محمد بن عبد الله بن طاهر ، إلى علاج الأزمة علاجا مؤقتا ، فمنح الجند القادمين من جهة خراسان أرزاق شهرين وأعطى جنود بغداد القدماء دينارين لكل فارس ودينارا لكل راجل ؛ ولكنه فى نفس الوقت استعد للثورة وشحن داره بالسلاح. ولم تهدأ الثورة ، بل قرر بعض قادتها أن يمنعوا خطيب الجامع من الدعاء للمعتز على المنابر وحظروا عليه ذلك ، فتمارض الخطيب ولم يذهب إلى الجامع . ثم نشبت الحرب واستطاع محمد بن طاهر ، بالحيل والخديعة والأموال ، أن يوقع بين الثائرين وبعض قادتهم وتمكن من اعتقال رؤسائهم ، وصلب أحد قادتهم فانتهت الاضطرابات ، ولكن إلى حين .

وقد ظهرت هذه الفتنة مرة أخرى إذ ذهب الجند إلى قصر الخليفة المعتز

وحاصروه ، ودخل وفد منهم إلى الخليفة يطالبونه بأرزاقهم ويضمنون له فى مقابل هذا أن يقتلوا القائد صالح بن وصيف ، وكان المعتز يريد التخلص منه ، فلم يجد المعتز فى خزانته ما يدفعه إليهم ، فاستعان بأمه يستمدّها ولكنها رفضت أن تعينه . فاتحد الجند ضد الخليفة عندئذ وتحالفوا مع بعض المغاربة من رجال الجيش وقدّموا عليهم صالح بن وصيف عدوّ المعتز . ثم طلبوا من الخليفة أن يخرج إليهم ، فاعتذر بمرضه الذى يضعفه عن الكلام ورجاهم أن يُدخلوا إليه وفدا منهم إذا كانت هناك ضرورة ملحّة تمنع من تأجيل الحديث . فدخل إليه قوم أخرجوه وقد جرّوه من رجله وأخذوا يجزّونه بحرابهم وأوقفوه فى الشمس ، ثم انتهى أمره بخلعه وتعذيبه حتى توفى[1] .

واستفحل أمر الخلاف بين الأتراك بطريقة أدت إلى خوف الزعماء بعضهم من بعض ، وإلى إهمال رعاية شئون جندهم وبخاصة ما يتعلق منها بالأرزاق والمرتبات ، وعمت الفوضى والاضطرابات . فثار الجند مرة أخرى فى عهد الخليفة المهتدى (٢٥٥ — ٢٥٦) ، وقاموا بحركة توجهت إلى قصر الخلافة يطالبون بأن تعود للخلافة مكانتها السابقة وسيطرتها الفعلية على جميع مرافق الدولة ، ويَعِدون بأن يكونوا عونها على بلوغ هذه الغاية . وطالبوا كذلك بأن يتولى قيادة الجيش أمراء من البيت العباسى حتى تستقيم الأمور وتتوقف الاضطرابات . وتقدم الجند الثائرون هذه المطالب إلى الخليفة المهتدى فى شكل إنذار أو تبليغ يستند إلى القوة المتجمهرة أمام

(١) مما رثاه به بعض الشعراء :

لهف نفسى عليه ، ما كان أملا • وأسراه ثابتا مشروحا
ألزموه ذنبا على غير جرم فثوى فيهم قتيلا صريعا
وبنو عمه وعم أبيه أظهروا ذلة وأبدوا خضوعا
ما بهذا يصح ملك ولا يخـ زى عدو ولا تكون جميعا

القصر . فوافق المهتدى على هذه المطالب فور تقديمها ووعد بتنفيذها ، ولكنها كانت موافقة العاجز ، إذ تنازعته قوى السادة الأتراك الذين كانوا يقبضون على أزمّة الأمور فى القصر ويتجسسون على الخليفة خوفا على أنفسهم ودفعا لتآمره مع أعدائهم . واضطربت سياسة المهتدى فى تنفيذ هذه المطالب مع ما كانت تبشر به من استعادة هيبة الخلافة ومكانتها ، ومع وضوح التفكك والانقسام فى جماعة الأتراك . فيئس الجند منه وعادوا إلى تكتلهم القديم ، كلّ فئة حول زعيمها ، ولكن هذا التكتل لم يكن بنفس القوة التى كانت لهم من قبل . وخُلع المهتدى ولم يكن قد استقر فى الخلافة أكثر من أحد عشر شهرا .

خامسا : إمرة الأمراء :

شملت الاضطرابات العنيفة مقر الحكومة فى العراق ، واشتد النزاع فى مراحل متتابعة بين الأتراك الذين توزعوا بين بغداد وسر من رأى ، وتعاونت هذه الحركات الفوضوية على صرف نظر الحكومة المركزية عن التوفيق فى الإشراف على سائر بلاد الدولة خارج بلاد العراق والجزيرة . وأتاح هذا التطور فرصة عظمى لانتقاض الأطراف وتحللها من النفوذ المباشر للحكومة المركزية فتمتعت بنوع من الاستقلال الذى أتى نتيجة لعدم استقرار الأمور . وشعر ولاة الأقاليم المختلفة ورؤساء الدويلات بأن الخلافة عاجزة عن مقاومة الفساد الذى استشرى فى الجهاز الحكومى ، وبأنها أصبحت وقد فقدت الثقة فى الأتراك الذين دب الفشل فى صفوفهم وتفرقت كلمتهم ، وبخاصة بعد الصحوة المؤقتة التى انتعشت فيها الخلافة بعض الانتعاش فى عهد المعتمد على الله ، بفضل جهود أخيه الموفق ، ثم من بعده

فى عهد المعتضد بالله . أدرك رؤساء الأطراف هذه الحقائق فقبضوا أيديهم عن مساعدة الخلافة بأية وسيلة من وسائل المساعدة ، بالأموال أو بالرجال ، وانصرفوا من جانبهم إلى تقوية سلطانهم ونفوذهم فى دويلاتهم الصغيرة ، وذلك على حساب جيرانهم وعلى حساب الخلافة نفسها ، إذ لم يعد للخلافة فى أوائل القرن الرابع الهجرى سيطرة نافذة إلى أبعد من بغداد وما حولها. وكان هذا المسلك الذى سلكه رؤساء الأطراف والدويلات فى بعض صوره دفاعا عن أقاليمهم التى يحكمونها ، ودفعا لسلطة الأتراك وفرض سيطرتهم من من أن تمتد إليها ، ورغبة فى اقتطاع بعض الغنائم من ممتلكات الدولة المتداعية المتهالكة .

أما الأتراك فقد اضطربت أمورهم ومروا بمراحل قلقة بعد أن دبّ الحسد والتنازع بين رؤسائهم ، وبعد أن قامت الجند بثورات متعددة ضد هؤلاء الرؤساء .

ومن مظاهر القلق أن كثيرا منهم تقلدوا إمارات مختلفة بعيدة نسبيا عن مقر الخلافة كمصر والشام وجنوبىّ العراق ، فقبلوا هذا التقليد ، ولكنهم لم يذهبوا إلى مقر أعمالهم ، بل أقاموا فى بغداد أو سرّ من رأى وأرسلوا نوابا عنهم إلى هذه الإمارات ، وذلك ليكونوا على مقربة من تطورات الحوادث ، وليعملوا على الاستئثار بالنفوذ والسلطان دون منافسيهم أو فى الأقل يعملوا على تحسين أوضاعهم .

ومن الطبيعى أن يتبع هذا مظهر آخر من مظاهر الفشل، ذلك أن القواد الأتراك انشغلوا تماما عن الخلافة والوزارة إلى معالجة مشكلاتهم الخاصة فى الإدارة الفعلية ، وفى البحث عن مصادر الأموال ؛ فأطلقت يد الخليفة ، إلى حد ما ، فى اختيار وزرائه وطمع كثير من الجهلة والمغمورين فى الوزارة

فتطاحنوا عليها . وكان سلاح هؤلاء المستوزرين الرشوة والهدايا يقدمونها إلى الخليفة الذى كان يقبل مرحباً لإفلاس خزانته ويكثر من استبدال الوزراء مادام الثمن مغرياً .

وبمرور الزمن أحس الأتراك بقرب زوال دولتهم فانحسر كثير منهم عن مقر الحكومة المركزية إلى ولاياتهم التى تقلدوها مكتفين بها وعملوا على الاستقرار بها بعد أن فسدت أحوال الخلافة وأصبح المقام فى ظلها مُغرما وهلاكا . واقتطع بعض هؤلاء الولاة من أرض العراق التى بقيت فى يد الخلافة قطعة بعد أخرى .

وأحست الخلافة بضعف الوزراء وضياع الأملاك وإفلاس الخزانة وعجز الأتراك ، فتطلعت إلى بعض حكام الإمارات القريبة من العراق تستعين بهم علّهم ينجحون فى إنقاذ الموقف . فأرسل الراضى (٣٢٢ — ٣٢٩) إلى محمد بن رائق أمير البصرة وواسط وعينه فى منصب جديد إذ جعله « أميراً للأمراء » وفوض إليه تعيين الأمراء جميعاً وعزلهم وأطلق يده فى سلطان الدولة وشئونها جميعاً ؛ فعلت مكانته لدى الخليفة وتقدم بنفوذه على الوزراء . ويقول مسكويه موضحاً مهمة أمير الأمراء ومجال اختصاصاته : « فأنفذ إليه الراضى وعرفه أنه قلده الإمارة ورئاسة الجيش وجعله أمير الأمراء ، وردّ إليه تدبير أعمال الخراج والضياع وأعمال المعاون فى جميع النواحى وفوض إليه تدبير المملكة ، وأمر بأن يخطب له على جميع المنابر فى الممالك ، وبأن يكنى ، وأنفذ إليه الخلع واللواء » . ويقول كذلك فى أثر هذا المنصب الجديد ومدى سلطانه : « وبطل منذ يومئذ أمر الوزارة فلم يكن الوزير ينظر فى شىء من أمر النواحى ولا الدواوين ولا الأعمال ، ولا كان له غير اسم الوزارة فقط ، وأن يحضر فى أيام المواكب دار السلطان

بسواد وسيف ومنطقة ، ويقف ساكتا . وصار ابن رائق وكاتبه ينظران في الأمر كله ; وكذلك كل من تقلد الإمارة بعد ابن رائق . وصارت أموال النواحي تحمل إلى خزائن الأمراء فيأمرون وينهون فيها بما يشاءون ، وينفقونها كما يرون ويطلقون لنفقات السلطان ما يريدون ; وبطلت بيوت الأموال ، وتغلب أصحاب الأطراف وزالت عنهم الطاعة » .

وكانت النتيجة الأولى لإنشاء هذا المنصب أن أصبح الخلفاء ألعوبة في يد من يشغل منصب أمير الأمراء وطرفا في النزاع الذي ينشب بين هذا الأمير وغيره من الأمراء العاديين . ومن أمثلة ذلك أن ابن رائق ، أول أمير للأمراء في عهد الخليفة الراضي ، رأى قلة ما في يده من الأموال رغم سيطرته الكاملة على مواردها وقرر أن يعمل على توسيع نفوذه خارج بغداد وما حولها ; فتطلع إلى الأهواز ، حيث يحكم أبو عبد الله البريدي أميرها ، يريد بسط سيطرته المباشرة عليها فطلب من الراضي أن يتجه معه إلى واسط ، قريبا من الأهواز ، ليكون في حضوره تقوية جنده ، فأجابه الراضي إلى ما طلب وانطلق ابن رائق ، والخليفة معه ، إلى واسط ، ثم استعدا للسير منها نحو الأهواز . وعلم البريدي بذلك فأرسل إليهما يعدهما بأن يدفع ثلاثمائة وستين ألف دينار سنويا إلى خزانة الدولة يحملها منجّمة على شهور السنة . فأجاب الراضي وابن رائق بقبول هذا ومن ثمّ عادا إلى بغداد .

وكانت النتيجة الثانية لإنشاء هذا المنصب أن أصبح هو أيضا باختصاصاته الواسعة محل تنافس الأمراء الآخرين وفي مقدمتهم أبو عبد الله البريدي صاحب الأهواز الذي كان ابن رائق يطمع في إخضاعه لسلطانه . كما أن بعض أعوان ابن رائق رغبوا في هذا المنصب لأنفسهم ، ومن هؤلاء بجكم الذي قيل إنه أعلن عصيانه على ابن رائق ومنع عنه أموال واسط ، واستعان

ببعض خاصة الخليفة على ولاية منصب أمير الأمراء . ثم تقدم بجكم من واسط إلى بغداد واشتبك مع جنود ابن رائق فى عدة معارك انتهت بهزيمة ابن رائق وفراره . ودخل بجكم بغداد فرحّب به الخليفة الراضى وأنعم عليه بسبع خلع وقال له : « قد جعلتك أميرا للأمراء » ، وعقد له اللواء . فقال بجكم له : « يا مولاى . ما أريد إلا أن تزاح علتى فى أرزاق أصحابى وقت استحقاقهم » . ولم يكن ابن رائق قد استقر فى منصب أمير الأمراء أكثر من اثنين وعشرين شهراً . وبقى بجكم فى منصبه نحو سنتين ازداد فى أثنائهما اضطراب الأمور وفسدت أحوال بغداد حتى بات الناس وهم لا يأمنون على أنفسهم ولا على أموالهم .

* * *

ويمثل الفوضى التى وقعت فيها الخلافة بسبب الأتراك بصفة عامة ما تحدث به الراضى بالله إلى بعض خاصته إذ قال :

« كأنى بالناس يقولون أرضى هذا الخليفة بأن يدبّر أمره عبد تركى حتى يتحكم فى المال وينفرد بالتدبير ؟ ! ولا يدرون أن هذا الأمر قد أُفسد من قبلى وأدخلنى فيه قوم بغير شهوتى . فسُلمت إلى قوم يتسحّبون علىّ ويجلسون فى اليوم مرات ويقصدوننى ليلا ، ويريد كل واحد منهم أن أخصّه دون صاحبه وأن يكون له بيت مال خاص . وكنت أتوقّى الدماء فى ترك الحيلة عليهم إلى أن كفانى الله أمرهم . ثم دبّر الأمر ابن رائق ، فدبّره أشد تسحُّبا فى باب المال منهم وانفرد بشربه ولهوه ، ولو بلغه وبلغ الذين قبله أن على فرسخ منهم فرساناً قد أخذوا الأموال واجتاحوا الناس ، وقيل

لهم اخرجوا إليهم فرسخا ، لطلبوا المال وطالبوا بالاستحقاق ، وربما أخذوه ولم يبرحوا . ويتعدى الواحد منهم أو من أصحابهم على بعض الرعية بل على أسبابى ، وآمر فيه بأمر فلا يمتثل ولا ينفذ ولا يستعمل ؛ وأكثر ما فيه أن يسألنى كلب من كلابهم فلا أملك ردّه ، وإن رددته غضبوا وتجمعوا وتكلموا ... وكان الأجود أن يكون الأمر كله لى كما كان لمن مضى قبلى ؛ ولكن لم يجر القضاء بهذالى ... ! » .

⊙ ⊙ ⊙

الفصل السادس

عصر نفوذ الأتراك (٢)

الخلافة وسياسة الدولة

•●••●••●•

أولاً : الخلفاء والأتراك :

أحسّ الخلفاء منذ بدأ عهد نفوذ الأتراك بشدة وطأة هذا النفوذ عليهم وبعجزهم عن مزاولة سلطاتهم مادام هؤلاء الأتراك محتفظين بما وصلوا إليه من سيطرة قائمة على القوة والتجبر . فحاول بعض الخلفاء أن يستعيد للخلافة ، هيبتها ونفوذها ، وأن يهاجم الأتراك فى قوتهم وأن يستعين عليهم بما عرف عنهم من رغبة فى السيطرة والاستقلال بالنفوذ ، كما حاول البعض الآخر التغلب عليهم بالسياسة وحكمة التصرف وبالتآمر .

ومن مظاهر هذه السياسة بنوعيها نسوق الأمثلة الآتية :

١ ــ حاول المتوكل أن يغيّر العاصمة ، سرّ من رأى ، وأن ينتقل إلى مدينة أخرى بعيداً عن تدخل الأتراك وجبروتهم . فانتقل إلى دمشق ونقل إليها أهم الدواوين وأمر ببناء بعض القصور له ولأعوانه بها . ولم يكد يستقر بها قليلا حتى شعر الأتراك بخطر هذا المسلك على كيانهم ونفوذهم فحركوا جنودهم فى ثورة مشاغبة المطالبة بأرزاقهم وأرزاق عيالهم ، يهدفون

بذلك إلى خلق الصعاب أمام المتوكل وإلى تحويله عن دمشق إلى سر من رأى. وقد دفع لهم المتوكل من الأموال ما طلبوه ولكنه أدرك أن الأمر لن يستقر له فى هذه المرحلة ، فتراجع عن مقصده بطريقة حكيمة حتى لا يظهر ضعفه أمام الأتراك ، وتظاهر بأن هواء دمشق لا يوافق صحته ، ثم عاد إلى سر من رأى.

ولكنه عاد إلى محاولة تحقيق رغبته بصورة أخرى بعد نحو سنتين فأمر ببناء مدينة جديدة سماها مدينة « الجعفرى » ، وهدم بعض قصور سر من رأى ونقل أحجارها وساجها إلى المدينة الجديدة ، وأقطع بعض جهاتها لأعوانه ورجاله الذين شرعوا هم أيضاً فى تعميرها . وكان القادة الأتراك له على أهبة يدبّرون مؤامرتهم للتخلص منه قبل أن يتفرغ للتنكيل بهم ، وفى هؤلاء وصيف وبغا وباغر ، وقد تولى الأخير تنفيذ المؤامرة إذ هاجم المتوكل فى مجلس شرابه واغتاله بمساعدة بعض الجنود بعد أن سقط نديمه الفتح بن خاقان دفاعا عنه .

٢ — ومظهر آخر لسياسة المتوكل مع الأتراك أنه أطمع إيتاخ فى إمارة الحج ، وكان إيتاخ قائداً للجيش ومشرفا على الموالى والحجابة ودار الخلافة والبريد . وخرج إيتاخ من سر من رأى فى الطريق إلى الحجاز ومعه جمع كبير من رجاله وقواده ، وخلع عليه المتوكل خلع التشريف وبالغ فى خديعته فولاه كل بلد يمر عليها . وفى عودته من الحج أرسل إليه المتوكل يرحب به . وعند بغداد خرج إليه رئيس الشرطة ودعاه إلى دخول المدينة ليرحب به بنو هاشم ووجوه الناس ، فدخل إيتاخ بغداد آمنا ولكنه لم يخرج منها إذ سُجن وعذب ووضعت أثقال الحديد فى عنقه ورجليه ، وبقى فى محبسه حتى مات .

٣ — حاول المعتز أن يتخلص من بعض القواد الأتراك فأرسل إلى عامله على بغداد، محمد بن عبد الله بن طاهر ، يأمره بإسقاط اسمى اثنين من كبارهما، هما وصيف وبغا ؛ وذلك لأنهما كانا على رأس الجماعة التى ناصرت المستعين بالله ضدّه عندما بويع هو بالخلافة فى سرّ من رأى . فبلغ أمر الكتاب هذين القائدين فقالا لأمير بغداد : « بلغنا ما عزم عليه القوم من قتلنا ، وهم قد غدروا وخالفوا ما فارقونا عليه . والله لو أرادوا أن يقتلونا ما قدروا ! » . واجتمع جنود سرّ من رأى عند الخليفة عندما بلغهم أمر الكتاب وطالبوا بإحضار القائدين إلى سرّ من رأى كما طالبوا بإكرامهما . ففعل المعتز ، وأعادهما إلى منصبيهما وردّ عليهما ضِياعهما ، وأرسل إليهما وزيره أحمد بن اسرائيل لزيارتهما فى منزلها وتحيتهما باسم الخليفة ! .

٤ — حاول المهتدى كذلك أن يتخذ خطوة حاسمة فى سياسته مع الأتراك وبخاصة بعد أن ثار الجند مطالبين بعزل رؤسائهم وبتولية أخ للخليفة أو أمير من أمراء البيت العباسى قيادة الجيش حتى تستقر الأمور وتنتظم أرزاقهم . ولكنه أراد استعمال الحيلة والدهاء فى الإيقاع بالقادة ؛ فأرسل إلى بايكباك الذى كان يحارب أحد الخارجين على الدولة كتابا سرّيا يأمره بأن يضم جيشى قائدين آخرين ، هما موسى ومفلح ، إلى جيشه وأن يقتل هذين القائدين . ولكن بايكباك أطلع موسى على الخطاب مظهراً أنه يخشى أن تكون هذه خطة يقصد بها الخليفة التخلص منهم واحداً بعد واحد . فاتفق القائدان على أن يرحل بايكباك إلى سرّ من رأى شاكراً عطف الخليفة معلناولاءه ، ثم يعمل سرّاً على قتله . وعند مادخل بايكباك على الخليفة أدرك هذا فشل حيلته وأظهر غضبه على بايكباك لمخالفته وعصيانه ، وأمر بسجنه ، فثار الجند لما أصاب قائدهم ، وأمر المهتدى بقتل بايكباك وألقى

برأسه إلى الثائرين تهديداً لهم . ولكن الثورة اشتدت ونجحت فى القبض على المهتدى ثم فى خلعه من منصب الخلافة بعد أن رفض التنازل عنها . وفى هذه الثورة استعان المهتدى بعنصر غاضب فى الجيش ، وإن كان قليل العدد ، هو عنصر المغاربة ، كما أنه خرج إلى الشعب وقد علق فى عنقه مصحفاً وسيفهُ فى يده وهو يقول: يا معشر الناس انصروا خليفتكم. ولكن هذا لم يغيّر من مصيره شيئاً .

وهكذا نجد الخلفاء قد أحسوا بالخطأ الذى وقعوا فيه بإطلاق يد الأتراك فى جميع شئون الدولة ، فحاولوا إصلاح هذا الخطأ بالسياسة أحيانا وبالغيلة أحيانا أخرى ، ولكنهم فشلوا فى محاولاتهم ، واستمرت سيطرة الأتراك قوية متجبرة حتى ساعدت بعض العوامل الداخلية فى مجموعة الأتراك على تفريق كلمتهم ؛ لكن هذا أيضا لم يفد الخلافة التى تداعت قوتها وتدهورت منزلتها .

ثانيا : صحوة مؤقتة :

تزايدت فوضى الأتراك ومضايقاتهم للخلافة وللشعب ، وتعدت هذه المضايقات الخلافة والشعب إلى الجنود، وظهر هذا بوضوح فى عهد المعتز ثم فى عهد المهتدى . فثار الجند على القواد وتقدموا إلى المهتدى بمطالب تتركز فى :

١ — أن يُرد النظر فى جميع الشئون صغيرها وكبيرها إلى الخليفة وحده ، وألاّ يعترض عليه معترض .

٢ — أن يعاد تنظيم الجيش بالطريقة التى كان عليها أيام المستعين بالله ،

فيكون لكل تسعة عريف ، ولكل خمسين خليفة ، وعلى كل مائة قائد .

٣ — أن تبطل الإقطاعات وفوضى الأرزاق ، وأن يعود الأمر فى أموال هذه الإقطاعات إلى الخليفة لتكون كلمته هى العليا فيها ، يزيد من يشاء ويرفع من يشاء .

٤ — أن يحاسَب الرؤساء والقادة على ما عندهم من أموال عند تقديم هذه المطالب .

٥ — أن تسند قيادة الجيش إلى أحد إخوة الخليفة أو إلى أمير من أمراء البيت العباسىّ حتى يحسن توجيه الجيش واستخدامه فى ظل الخلافة ، وليقوم بالسفارة بينهم وبين الخليفة فى جميع أمورهم وحاجاتهم .

وقد أبلغ الثائرون الخليفة أنهم سيؤيدونه فى الخطوات التى يتخذها لتحقيق هذا المطلب ، كما كتبوا إلى زعماء القواد يحذرونهم أن يعترض منهم معترض على الخليفة ويخبرونهم أنهم سينتقمون منهم ويقطعون رءوسهم إن شاكت الخليفة شوكة أو أخذت من رأسه شعرة . وأكدوا هذا للخليفة أيضا .

استطاع المهتدى أن يرضى الثائرين فى الوقت الذى تقدموا فيه بهذه المطالب ، وأرسل إليهم توقيعه بقبول مطالبهم ، ووعدهم باتخاذ الخطوات اللازمة لتحقيقها . ولكنه لم يبادر إلى تنفيذها بسبب الظروف التى كانت سائدة عندئذ من فوضى واضطراب ، وفضّل أن يلجأ إلى الدسائس والمؤامرات للوقيعة بين القواد الأتراك بعضهم وبعض ؛ فأدت هذه السياسة إلى فتنة توحدت فيها كلمة الأتراك ، ولكن إلى أجل ، وانتهت هذه الفتنة بخلع المهتدى .

ولما تولى المعتمد على الله الخلافة (٢٥٦ — ٢٧٩) تجددت مطالب الجند الأتراك فعيّن المعتمد أخاه الموفق أبا أحمد طلحة قيادة الجيش، وأسند إليه مع هذا الشئون الإدارية فى الكوفة والحجاز واليمن ، ثم فى بغداد والجزيرة والبصرة والأهواز وفارس وقنسرين والعواصم ، أى أنه جمع فى يده السلطة الفعلية فى الشئون الإدارية فى الولايات وفى الجيش .

وقد كان الموفق طلحة ذا شخصية قوية فتمكن من مقاومة الصعاب فى الجيش وفى الولايات ، وصارت كلمته هى العليا بين الأتراك قوادا وجنودا بعد أن أنهكهم التفكك وقلت بيدهم الأموال . وبالغ الموفق فى إقرار سلطته حتى أصبح الخليفة إلى جانبه كماً مهملا إلى حد كبير . ولكن القوة ، رغم هذا ، عادت إلى بيت الخلافة بفضل جهود الموفق الذى أحسن استغلال الظروف ، وتضاءلت سطوة الأتراك الذين وجدوا فى هذه الصحوة فرصة قد يتمكنون فيها من إعادة تنظيم صفوفهم واستعادة مكانتهم لو أحسنوا استخدامها .

ومما ساعد الموفق أيضا على الاحتفاظ بهذه السيطرة لنفسه وللخلافة الفشلُ المتواصل الذى كان قد لازم الأتراك فى حربهم ضد الزنج الثائرين بالبصرة ، وقد استمرت ثورتهم نحو خمسة عشر عاما (٢٥٥ — ٢٧٠) حتى قطعت الطريق على التجارات الصاعدة والهابطة فى دجلة بين الخليج العربى وشمالىّ العراق ، فقلت الأموال ببيت المال وبخزائن الأتراك على السواء ، ونجح الموفق فى الحرب التى شنها ضد هؤلاء الزنج بعد أن نجح فى إخضاع القواد الأتراك لسلطانه .

ولم تكن ثورة الزنج هى الخطر الوحيد الذى كان يقلق الخلافة والموفق ، بل كانت هناك حركات استقلالية متعددة شرقا وغربا تمكن

الموفق بقوة شخصيته أولا وبسيطرته الناجحة على الأتراك ثانيا من تخفيف عواقب خروجها على الخلافة أو استقلالها عنها .

واستمرت هذه الصحوة التى أحست بها الخلافة على يد الموفق واضحة فى عهد ابنه المعتضد (٢٧٩ — ٢٨٩) الذى شارك أباه فى حروبه وفى أعماله الإدارية عندما كان أميرا ، فأفادته هذه الخبرة عند ماتولى الخلافة ، ذلك أنه كان يخرج بنفسه للحرب فى بعض المناسبات ليستعيد السيطرة على الخارجين وليشعرهم بقوة الخلافة .

ومن أمثلة ذلك خروجه إلى عرب بنى شيبان فى الموضع الذى كانوا يجتمعون فيه بالجزيرة قريبا من الموصل . فلما بلغهم خروجه إليهم جمعوا إليه كثيرا من أموالهم ، ولكنه حارب الأعراب فى طريقه إليهم وقتل منهم عددا عظيما وغرق منهم فى نهر الزاب عدد آخر . ثم سار إلى الموصل فلقيه هناك بنو شيبان وسألوه العفو ، فأجابهم بعد أن أخذ منهم بعض الرهائن .

وفى مناسبة أخرى خرج المعتضد إلى قلعة ماردين حيث بدأت الدولة الحمدانية فى الظهور ، فهرب زعيمها حمدان وترك ابنه فى القلعة ، ووصل المعتضد إليها وحاصرها، ففتح صاحبها بابها مستسلما للخليفة الذى قعد بالباب ونقل مافيها من سلاح ومتاع ، ثم أمر بهدمها . وأرسل بعد ذلك خلف حمدان الهارب من يقبض عليه ، فتم له ذلك . وبعد قليل عفا المعتضد عن الحمدانين واستخدمهم فى جيشه .

وقد كانت الخلافة فى عهد المعتضد أعظم هيبة وأكثر انتعاشا منها فى عهد المعتمد ، ذلك لأن الموفق نجح ، فى أيام أخيه المعتمد وفى ظل الظروف

التى تولى فيها قيادة الجيش ، فى استعادة نفوذها بعد جهاد طويل ؛ واستفاد المعتضد ، حين ولى الخلافة ، من جهود أبيه الموفق ، وواصلها هو فى خلافته فبقيت لها فى عهده السيطرة القوية الناجحة .

ولما توفى المعتضد خلفه المكتفى (٢٨٩ — ٢٩٥) وكان ضعيف الشخصية ، فلم تلبث الأحوال أن عادت إلى مثل ما كانت عليه قبل جهود الموفق بل زادت حالها سوءا ، وبدأت المنافسات من جديد بين الوزراء والقواد الأتراك ، وكانت الدسائس عند الخليفة سلاح هذه المنافسات . وقد أخذ بعض القضاة الذين كانوا بحكم مناصبهم ومكانتهم مظنة النزاهة والاستقامة، بنصيبهم فى هذه المؤامرات ، فقد حدث تنافس بين وزير المكتفى ، القاسم ابن عبيد الله ، وبدر ، غلام المعتضد الخليفة السابق ، وكان يقود جيشا بفارس ؛ فأرسل الوزير إلى بعض رجال بدر ، سرّاً ، يدعوهم إلى مفارقة قائدهم ففعلوا . ثم حاول بعد ذلك أن يقبض على بدر فاحتال لذلك ، وأرسل إليه القاضى أبا عمر محمد بن يوسف بأمان ، باسم أمير المؤمنين ، على نفسه وماله وولده وصحبه . وعاد بدر إلى بغداد سامعا مطيعا مطمئنا إلى أمان أمير المؤمنين الذى حمله إليه القاضى أبو عمر ، فقبض عليه رجال الوزير وقتلوه ، ثم صادروا ضياعه ودوره وجميع ماله .[1]

---

(١) وقد قال أحد الشعراء فى هذه الحادثة :

قل لقاضى مدينة المنصور ۞ أحللت أخذ رأس الأمير
أين أيمانك التى شهد الله (م) ۞ على أنها يمين فجور
باالليل الحباء ، يا أكذب الأمـ (م) ـة ، ياشاهدا شهادة زور
ليس هذا فعل القضاة ، ولايحـ ۞ ـسن أمثاله ولاة الجسور

ثم لم يلبث المكتفى أن توفى فخلفه أخوه الطفل المقتدر بالله الذى كان عهده عهد اضطراب شديد .

وبهذا نرى أن الصحوة المؤقتة تنتهى بولاية المكتفى الذى أسهم بضعف شخصيته وباستسلامه للدسائس فى إضعاف نفوذ الخلافة مرة أخرى .

ثالثا : المصادرات :

وقد أدى اضطراب الأمور وتسلط الأتراك واستقلال الأطراف إلى فراغ بيت المال فى الوقت الذى ازدادت فيه حاجة القصر والجيش والقادة إلى المزيد من الأموال . فبدأت الخلافة ، منذ عهد المتوكل بصفة خاصة ، سياسة جديدة تساعدها على إمداد بيت المال بحاجته ، وإن كانت هذه السياسة لم تقصد لذاتها فى أول الأمر ، تلك هى سياسة المصادرات لأموال الوزراء والكتاب وغيرهم ممن اتصل بالشئون الإدارية للدولة .

حقيقة لم تكن هذه السياسة جديدة على الدولة العباسية فقد حدثت بضع مصادرات قبل عهد المتوكل ؛ منها ما حدث فى عهد المعتصم ، فقد كان له وزير نصرانى ، اسمه الفضل بن مروان ، تزايد نفوذه فى القصر وفى الإدارة حتى ثقل على المعتصم ؛ وكان الخليفة يطلب منه أحيانا بعض الأموال فيقول الوزير ليس عندى منها شىء ؛ فيقول احتل عليها من أى وجه من الوجوه ؛ فيقول الوزير ومن يعطينى هذا القدر من المال وعند من أجده ! وقد حدث أن أمر المعتصم لنديمه بمنحة فلم ينفذ الوزير هذا الأمر ؛ وفى مناسبة معينة قال النديم للخليفة : إنما لك من الخلافة الاسم ؛ والله ما يجاوز أمرك أذنك ، وإنما الخليفة الفضل بن مروان الذى ينفذ أمره من ساعته ! . فقال الخليفة

أى أمر لى لا ينفذ ؟ ! فقال نديمه ، أمرت لى بمنحة منذ شهرين فما أُعطيت مما أمرت به حَبّة . فأمر المعتصم ، بعد فترة ، وزيره بتقديم حساب عما دخل بيته وبيت أهله منذ ولى الوزارة وعما صرفوه من هذه الأموال . ثم صادر أموال الوزير فبلغت نحو ألف ألف دينار وبلغت قيمة ممتلكاته مثل هذا المبلغ .

وقد فعل الواثق مثل هذا بسبعة من كتابه بعد أن قيل له فى جواب سؤاله عن سبب نكبة البرامكة التى حدثت فى عهد هارون الرشيد إنهم كانوا يحتجنون الأموال ويعطلون أوامر الرشيد فيها ؛ فاستقرت هذه الفكرة فى رأسه ثم قرر مصادرة بعض كتابه الذين ظن أنهم يسلكون هذه الطريقة وعذّب بعضهم ؛ ومن هؤلاء أحمد بن اسرائيل والحسن بن وهب وسليمان ابن وهب .

ويشبه هذا ما فعله المتوكل بوزيره محمد بن عبد الملك الزيات ، وقد كان يسىء معاملة المتوكل عندما كان وليا للعهد ، فقبض عليه المتوكل وسجنه وعذبه وصادر أمواله التى بلغت قيمتها ، عقارا ومنقولا ، نحو تسعين ألف دينار ؛ وقد توفى محمد بن عبد الملك بعد اعتقاله بنحو أربعين يوما نتيجة للتعذيب المستمر . ثم قبض المتوكل على أحد الكتاب وصادر أمواله وأموال أخيه فبلغت ٢٧٤ ألف دينار بغير الأمتعة والضياع . وقد قصد المتوكل بهاتين المصادرتين مجرد الانتقام من وزير وكاتب كانا قد أساءا إليه قبل أن يتولى الخلافة، فهى إذن مسألة شخصية بحتة. ولكن هذه السياسة لم تلبث أن أصبحت سياسة عامة للدولة يستعان بها عند الحاجة إلى جمع الأموال ويلجأ إليها الخلفاء بوحى من أنفسهم أو بتحريض من بعض رجالهم .

فنى عهد المستعين غضب الأتراك على الوزير أحمد بن الخصيب لتدقيقه

فى الناحية المالية، فعزلوه وصادروا أمواله وأموال ولده، ثم نفوه إلى جزيرة إقريطش .

وفى عهد المهتدى أراد الخليفة أن يستولى على بعض الأموال من أحد عماله تطبيقا لمبدأ المصادرة ،وقد فعل ؛ ثم ناقشه كاتبه أبو العباس بن ثوابة بطريقة حوّلت هذه المصادرة إلى رشوة ؛ إذ قال له : يا أمير المؤمنين الملْك يقين والمصادرة شك ؛ أفترى أن أزيل اليقين بالشك؟ قال : لا . قال له : فقد شهدتَ للرجل بالملك وصادرتَه عن شك فيما بينك وبينه ؛ فهل خانك فنجعل المصادرة صلحا ، أم لم يخنك فتكون قد أزلت اليقين بالشك ! فقال الخليفة هذا حق، ولكن كيف الوصول إلى المال؟ ! فقال له : أنت لا بدّ لك من عمّال على أعمالك ، وكلهم يرتزق ويرتفق[1] فيحوز رزقه ورفقه إلى داره . فاجعله[2] أحد عمّالك ليصرف هذين الوجهين إلى ما عليه ويسعفه معاملوه فيتخلص بنفسه وضيعته ويعود إليك مالك . فأمر المهتدى وزيره سليمان بن وهب بتنفيذ ذلك .

وفى عهد المعتمد غضب الخليفة على وزيره سليمان بن وهب ، وكان فى نفس الوقت وزيراً لأخيه الموفق ، فحبسه وصادر داره ودارى ولديه ، وبعد قليل تحدث الموفق إلى الخليفة المعتمد فأطلق سراح الوزير ، ولكنه لم يلبث أن تعرض لغضب الموفق أيضاً الذى عزله وسجنه مع أحد ولديه وبعض رجاله وصادر دورهم . ثم صالح الموفق الوزير وابنه على أن يطلق سراحهما فى مقابل تسعمائة ألف دينار يدفعانها إليه ليستعين بها فى حروبه ، ثم حدّد إقامتهما .

(١) أى يأخذ راتبه ويقبل الرشوة والهدية .
(٢) أى هذا العامل المغضوب عليه .

وفى عهد المقتدر بالله ازداد اضطراب الأمور ، وتزايدت حاجة القصر إلى الأموال ، واختلفت سياسات الوزراء فى تدبير هذه الأموال ، وامتدت المصادرات إلى القضاة أيضاً . فقد أحضر الوزير أبو الحسن بن على بن الفرات القاضى أبا عمر بن يوسف وسجنه ؛ فحضر أبوه يوسف ، وكان شيخاً كبيراً ، فجلس إلى الوزير وبكى بكاء شديداً وسأل الوزير أن يتصدق عليه بإطلاق ابنه ؛ فقال الوزير : الجناية عظيمة ولا يمكن تخليته إلا بمال جليل يطمع الخليفة فيه من جهته . فأبدى الرجل استعداده للتحايل على المال حتى يدفعه على أن يطلق الوزير ابنه ؛ وتوسط الوزير بين القاضى والخليفة ، ثم تقرر إخلاء سبيل القاضى على أن يدفع مائة ألف دينار . فدفع منها تسعين ألفا وحدّدت إقامة القاضى .

وبهذا أصبحت المصادرات سياسة ثابتة ، يلجأ إليها الخلفاء بوحى من أنفسهم أو بتحريض من بعض رجالهم ، رغبة فى جمع الأموال لبيت مال الخلافة ولسد حاجات الأتراك .

رابعا : التضمينات :

إذا كانت الأسباب التى أدت إلى اتخاذ المصادرات سياسة للعباسيين ترجع فى أول أمرها إلى الانتقام من بعض الشخصيات فى موقف معين دون الرغبة فى تحقيق أىّ هدف آخر وراء هذا الهدف الانتقامى ، ثم تتطور وتصبح وسيلة عادية وسياسة ثابتة لجمع الأموال للخزانة الخاوية — فإن التضمينات كانت ترجع فى منشئها إلى سبب واحد هو فراغ الخزانة فعلا ، وعجز المسيطرين على الأمور عن مطالبة ولاة الأقاليم ورؤساء الدويلات بالانتظام فى دفع الأموال المقررة على ولاياتهم ودويلاتهم

للحكومة المركزية ؛ بل عجزهم كذلك عن الحصول على هذه الأموال من الممتلكات الخاضعة للحكومة المركزية خضوعا مباشراً فى العراق نفسها . وبهذا كانت الدولة بصفة عامة والقصر بصفة خاصة فى أزمة مالية مضنية .

والتضمينات كانت تعنى أن يُعيَّن شخص ما فى ولاية ما أو لمنصب ما بشرط أن يضمن للخلافة مبلغا محدّدا من المال يقدمه بالطريقة التى تعيّن له أو يتفق عليها معه .

ومن الأمثلة الموضحة لهذا ما حدث فى عهد المعتضد . ذلك أن أبا القاسم عبيد الله بن سليمان تولى الوزارة للمعتضد وقد ازدادت نفقات القصر ومطالب الدولة لحرب الخارجين الذين كانوا يحاولون قبض طاعتهم وولائهم عن الخلافة ، بينما كان المعتضد يصرّ على إخضاع هؤلاء الخارجين وكان يخرج بنفسه لحربهم والقضاء على حركاتهم . رأى أبو القاسم فراغ خزانة المعتضد ووجد أن أحد الولاة ، وهو اسماعيل بن بلبل ، قد استخرج الأموال المقدرة على أرض السواد لسنتين فى سنة واحدة بسبب الحاجة الملحة إلى المال ، ومع هذا لم يبق فى الخزائن من الأموال شىء . وقد تحدث الوزير عن ذلك فى أول عهده قائلا : « قد وردنا على دنيا خراب مستغلقة وبيوت مال فارغة وابتداء عقد لخليفة جديد . ولا بدّ لى فى كل يوم من سبعة آلاف دينار لنفقات الحضرة على غاية الاختصار والتجزئة » . فأشار عليه البعض بإطلاق أبى الحسن على بن الفرات وأخيه أبى العباس أحمد من محبسهما والاستعانة بهما فى التغلب على هذه المشكلة . فاقترح الوزير ذلك على المعتضد ففعل ، فأحضر الطّليقان أحمد بن محمد الطائى وضمّناه بعض أراضى الفرات ودجلة وإقليم واسط وغيرها ، على أن يحمل من ماله فى كل يوم سبعة آلاف دينار وفى كل شهر ستة آلاف دينار ، وأخذا توقيعه بالتزام

الضمان وتقديم المال فى أوقاته ، وبدأ التنفيذ فى نفس اليوم بالنسبة للأقساط اليومية وفى اليوم التالى بالنسبة للأقساط الشهرية .

ثم لم تلبث التضمينات أن أصبحت موضع تنافس بين العمال المقربين من الوزراء المتنافسين ، فتغير كثير من الملتزمين بالضمان نتيجة لتغير الوزراء . فنى عهد المقتدر ولى على بن عيسى الوزارة وحاول أن يقوم ببعض الإصلاحات المالية لإنقاذ الموقف وتحسين الأوضاع بجعل نوعا من الرقابة على المصروفات ، والأعطيات بصفة خاصة ، وكان هذا يشمل الرقابة على مصروفات القصر كما اختار للولايات الخاضعة للخلافة خضوعا مباشرا ولاة يثق فيهم وضمنهم خراجها يؤدونه بانتظام إلى بيت المال ، ومن هؤلاء حامد ابن العباس الذى ضمن « واسط » . فلما عزل على بن عيسى عن وزارة المقتدر وخلفه ابن الفرات الذى خرج من السجن إلى دار الوزارة حاول أن يعزل عمال على بن عيسى ، وفيهم حامد بن العباس ، كما جرت العادة ، وقرر ألا يجدد ضمانهم . ولكن حامد بن العباس كان على صلة ببعض خاصة أم الخليفة ، فسعوا إلى إقراره على ضمانه ثم رغبوا فى أن يرفعوه إلى مرتبة الوزارة ، فاستدعى إلى بغداد ؛ فلما وصلها تقرر عزل ابن الفرات وتولية حامد بن العباس الوزارة ثم قبض على ابن الفرات وسجن .

وفى عهد المقتدر أيضاً طمع الحسين بن قاسم فى الوزارة فدفع بعض رجال المقتدر إلى ذكره عند الخليفة بما يرفع قدره وييسر له الوصول إلى تحقيق غرضه ، فلما تهيأ الجو فى القصر لذلك وتهيأ ذهن الخليفة لوزارة الحسين كتب الحسين رقعة يطلب فيها الوزارة ويضمن أنه يقوم بالنفقات دون أن يطلب شيئاً من بيت المال . فرحب المقتدر بهذا العرض وعينه فى الوزارة ؛

ولكنه لم يلبث أن عزل عنها بعد سبعة أشهر لسوء تصرفه ولعجزه عن مسايرة حاجات قصر الخليفة وحاشيته .

وقد أدت سياسة التضمينات إلى تدهور الحالة الاقتصادية بدرجة خطيرة بسبب ما كان يصحب بعضها من احتكار للأسواق أو لبعض المنتجات الزراعية بصفة خاصة .

ومن ذلك ما حدث حين ضمن حامد بن العباس ، أيام المقتدر أيضاً ، أعمال الخراج فى سواد بغداد والكوفة وواسط والبصرة والأهواز وأصبهان ، وكان يجمع إلى هذا منصب الوزارة أيضاً ، فقد ارتفع سعر بعض المواد الغذائية فى بغداد فثار أهلها واستغاثوا بالخلافة وكسروا منابر بعض المساجد ، وذلك كله نتيجة ما كان يفعله حامد بن العباس من تخزين الغلال . فأمر الخليفة بإحضار ابن العباس لعلاج الأزمة ، فاستعمل الشدة مع الثائرين وقاتلهم ؛ وتفاقم خطر الثورة وأطلق الثائرون من كانوا فى السجون وحرقوا بعض الجسور . فتدخل المقتدر لقمع الثورة بقسوة وقبض على من كان قد احتمى بالمساجد من الثائرين ؛ ثم أمر بفتح مخازن الغلة التى يملكها حامد وبيعها فى الأسواق ، كما فعل ذلك بمخازن أم المقتدر وغيرها من الشخصيات فرخصت الأسعار وسكن الناس . وتبين أن ابن العباس كان قد منع بيع الغلال فى الأسواق واحتكر تجارتها لنفسه . وقد عزل ابن العباس عن ضمانه بسبب هذه الحادثة .

وازدادت الحال سوءا بسبب نقص الأموال وعجز الحكومة المركزية عن مطالبة الولاة المضمنين بالوفاء بما التزموه . وظهر هذا بصورة واضحة فى عهد الخليفة الراضى إذ امتنع محمد بن رائق والى البصرة وأبو عبد الله البريدى والى الأهواز عن دفع ما ضمناه من ولايتيهما . وعجز وزراء

الراضى عن علاج الموقف فأخذ الخليفة نفسه بمحاولة حل المشكلة ، وكان هذا من الأسباب التى دعته إلى الاتصال بمحمد بن رائق ، والى البصرة ، الممتنع عن تنفيذ عقد ضمانه ، وتعيينه فى منصب جديد ، هو منصب أمير الأمراء ، استعانة به لتحسين الأوضاع . فحضر ابن رائق مسرعا وولاه الخليفة الراضى الخراج والمعاون والدواوين والجيش ، وأمر بأن يخطب له على جميع المنابر إلى جانب الخليفة .

ولكن ابن رائق واجه نفس المشكلة فقرر أن يخرج إلى الأهواز ليجبر واليها ، أبا عبد الله البريدى ، على دفع ماضمنه من ولايته ، وخرج معه الخليفة تقوية لروح الجند . وعندئذ وعد أبو عبد الله البريدى بتنفيذ ضمانه وجدّد العهد على نفسه بأن يدفع ثلثمائة وستين ألف دينار موزعة على أقساط شهرية يحملها بنفسه إلى بغداد ، وقبل الراضى . ولكن البريدى لم يحمل إلى بغداد بعد عودة الراضى وابن رائق إلى بغداد ديناراً واحداً .

وهكذا كانت التضمينات سياسة ثابتة لجأت إليها الخلافة العباسية فى عهد نفوذ الأتراك بسبب الحاجة الملحة الدائمة إلى الأموال . كما غدت بعد ذلك محل تنافس وتطاحن ، ثم صارت عاملا من العوامل التى أسهمت فى إضعاف الدولة وفى إفساد الجهاز الحكومى والإدارى للعباسيين .

* * *

ومن الطبيعى أن تؤدى هذه الفوضى الشاملة إلى تزايد نشاط الحركات العنصرية والمذهبية المختلفة ، وإلى استمرار انقسام الدولة الكبرى إلى دويلات صغيرة تحاول التخلص من السيطرة المباشرة للخلافة ورجالها من الأتراك ، والاستقلال بنفوذها فى المناطق التى سيطرت عليها .

ومن هذه الحركات العنصرية والمذهبية حركة الزنج التى ظهرت بالبصرة وإقليم البطيحة واستمرت أكثر من خمسة عشر عاما حتى استطاع الموفق ، أخو المعتمد على الله ، التغلب عليها فى عهد الصحوة المؤقتة للخلافة . ومنها كذلك حركة القرامطة ، تلك الحركة الهدامة التى قطعت طريق الحج واقتلعت الحجر الأسود من مكانه وأشاعت الاضطراب فى المناطق الآمنة بالحجاز والشام والعراق . وقد تحالفت هذه الحركة الهدامة مع حركة مذهبية زعمت أنها علوية وانتهت بإقامة خلافة مستقلة فى شمالى إفريقية ثم فى مصر عرفت باسم الخلافة الفاطمية ، وهى الحركة الاسماعيلية .

ومن الدويلات المستقلة : الصفارية بفارس والسامانية بخراسان والطولونية ثم الإخشيدية بمصر .

ولا داعى لتفصيل الحديث عن هذه الدويلات أو تلك الحركات فى هذا الكتاب إذ أن مثل هذا الحديث يخرج به عن هدفه المحدود . وسنكتفى بتبيان علاقة إحدى الدويلات ، وهى الدولة الصفارية بالخلافة ، وتوضيح مدى نشاط حركة واحدة من الحركات العنصرية والمذهبية وصلة هذا النشاط بكيان الدولة ، وقد اخترنا لذلك حركة القرامطة .

الفصل السابع

الدولة الصفارية

٢٥٤ — ٢٩٠ هـ (٨٦٧ — ٩٠٣ م)

أخذت الدولة الصفارية اسمها الذى عرفت به فى التاريخ الإسلامى من منشئها ورئيسها الأول يعقوب بن الليث الصفار ، الذى تتحدث كتب التاريخ عن نشأته المتواضعة ، كما تتحدث عن اتصاله — مع أخيه عمرو بن الليث — بالجيوش المتطوعة لقتال الخارجين على الدولة العباسية فى المناطق الشرقية الممتدة من خراسان وما قرب منها إلى الحدود الهندية[1] . وقد أتيحت الفرصة لهؤلاء الخارجين بسبب ما كانت تمر به الخلافة العباسية من أزمات متوالية بسبب سيطرة الأتراك المتجبرة ، كما أدت ثورات هؤلاء الخارجين وعجز الخلافة عن قمعها إلى تطاول المهاجمين على ممتلكاتها الشرقية . وانتهت الحال إلى نشأة جماعة من المتطوعة للجهاد صيانة للوحدة ودفعاً لأذى المهاجمين . وبهؤلاء المتطوعة بدأت صلة يعقوب بن الليث ، وأخيه ،

---

(١) كانت خراسان عندئذ خاضعة للأسرة الطاهرية التى استقلت بها إلى حد ما منذ أيام المأمون ، ولكنها رغم استقلالها بخراسان كانت على صلة طيبة بالخلافة ، كما كانت تجمع إلى خراسان رئاسة شرطة بغداد . وقد استمرت الأسرة الطاهرية فى حكم خراسان بين سنتى ٢٠٥ — ٢٥٩ (٨٢٠ — ٨٧٢) .

جنديّين مجاهدين ، كما انتهت هذه الصلة بزعامته عليهم وبحسن استخدامهم وتوجيههم لتكوين دولة مستقلة إلى حد كبير كانت من عوامل إقلاق الخلافة العباسية .

وقد كان الأخوان ، يعقوب وعمرو ، يشتغلان فى مبدأ أمرهما بصناعة الصّفر يكتسبان منها رزقهما ؛ ثم هيأت لهما الظروف الحربية التى وجدا فيها أن يتدربا على القتال وأن يتصلا بالسياسة وتقلباتها ، فانتفعا بمعرفتهما بالأمرين جميعا فى مستقبلهما الذى رفعهما إلى مكانة رؤساء الدول ومؤسسيها .

وقد بدأ هذا التطور فى تاريخهما ، وفى تاريخ يعقوب بصفة خاصة ، عندما توفى زعيم المتطوعة صالح بن النضر الكنانى فى منطقة سجستان وخلفه فى الزعامة درهم بن الحسين ، إذ لم يكن درهم فى قدرة الزعيم الراحل ، فتطلع الجند إلى الشخصية القادرة التى تستطيع بخبرتها وحكمتها متابعة جهود صالح . وبهذا عُزل درهم بن الحسين عن القيادة ووقع الاختيار على يعقوب بن الليث الذى برهن منذ اللحظة الأولى على مقدرته وكفاءته بحروبه التى شنها على الخارجين . واستطاع يعقوب بعد نجاحه فى المراحل الأولى من قيادته أن يجتذب إلى تأييده عدداً كبيراً من المتطوعين الجدد ، فعظم جيشه وتكامل وظهر أثره ، ثم استطاع فيما بعد بهذا الجيش أن يرهب الخلافة أحياناً وأن يتعاون معها فى أحيان أخرى . فتحدث التاريخ عنه كمؤسس دولة وبجّل ، بعد قيام دولته ، الأعمال التى قام بها ضد سياسة الخلافة بعد أن كان فى أول أمره جندياً متطوعا من جنودها يقاتل الخارجين عليها .

نشأة الدولة واتساع نفوذها :

كان المأمون قد جعل ولاية خراسان إلى آل طاهر الذين قويت صلتهم

بالخلافة لحافظوا على هذه الصلة بها ، فكانت هذه الدولة الطاهرية الخراسانية مركزاً من مراكز قوة الدولة العباسية رغم الاستقلال المحلى الذى تمتع به الطاهريون . ولكن الأمور فى العراق ، حيث الحكومة المركزية ، تطورت فى غير مصلحة الخلافة التى ضعفت منذ سيطر الأتراك على الإدارة والقصر جميعا ، فطمع كثير من الأمراء المحليين ومن الخارجين فى اقتطاع أملاك الخلافة ؛ فلاقت الدولة الطاهرية من شرهم كثيراً من المتاعب . وفى هذه الظروف نشأت جماعة المتطوعين التى جاهدت الثائرين والخارجين فى بلاد فارس ، وبصفة خاصة فى إقليم سجستان ، بزعامة صالح ابن النضر الكنانى ثم بقيادة درهم بن الحسين .

ثم تولى القيادة يعقوب بن الليث الصفّار فرأى أن يُسقط آل طاهر الضعفاء وأن يستبدل بهم دولة تستند إلى قوة وجيش ، على أن يكون هو رئيس هذه الدولة . فوطّد أقدامه فى سجستان ثم فى هراة وما حولها ، ثم أرهب أعداء الدولة المتربصين بها من تُرك وهنود عند أطرافها الشرقية وانتصر فى بعض المعارك الحربية ، فخشى هؤلاء بأسه وسطوته وتخوفوا من قوته ومقدرته .

وعندئذ أراد يعقوب أن يخطو الخطوة التالية بعزل بنى طاهر عن خراسان ، وفى هذا حاول أن يأتى البيوت من أبوابها لكى ينجح فى هذه الخطوة ، إذ كتب إلى المعتز بالله ، وهو الخليفة عندئذ ، يطلب منه أن يصدر قراراً بتوليته على ما فتحه من البلاد ، وزاد بأن سأله أن يعزل آل طاهر عن خراسان ، وأميرُهم إذ ذاك محمد بن طاهر بن عبد الله ، ليكون الأمر فيها ليعقوب إلى جانب البلاد التى فتحها . وألحق بكتابه هدية قيمة إلى المعتز ، ووعده بأن يعمل على تخليص الخلافة من الخارجين عليها بإقليم فارس .

ولم ينتظر يعقوب حتى يرى أثر خطابه فى الخليفة بل اتجه إلى كرمان فى طريقه إلى وسط فارس وغربها ففتحها. ثم توجه إلى فارس واقترب من شيراز عاصمتها حيث كان الثائر على بن الحسين يتزعم الخارجين على العباسيين . وحاول على أن يصل إلى نوع من التفاهم مع يعقوب، وإن كان فى نفس الوقت قد حفر خندقا حول شيراز دفعا للجند الصفاريين. ولكن هذه المحاولة فشلت إذ أصر يعقوب على الحرب ، فانتصر فيها ودخل شيراز وأسر على بن الحسين وصلى الجمعة بشيراز داعيا للمعتز بالله من فوق منبرها سنة ٢٥٥ هـ .

لم يتوقف يعقوب بعد هذه الانتصارات بل عاد ناحية الشرق متجها إلى خراسان التى كان يطمع فيها منذ أول أمره وحاصر نيسابور عاصمتها ، وأدرك الطاهريون عجزهم عن مقاومة جيوشه وعجز الخلافة عن تأييدهم فى هذه المقاومة ، فتقدم محمد بن طاهر ، أمير خراسان ،إلى يعقوب يفاوضه ، ولكنه لم يجد ترحيبا بل وجد لوما وتأنيبا على سوء إدارته . ثم لم يلبث يعقوب أن قبض على ابن طاهر وعلى أفراد أسرته ، وأتبع هذا بكتاب إلى الخليفة ، وهو إذ ذاك المعتمد على الله ، يبين فيه سوء حال خراسان ، وإهمال الطاهريين رعاية شئونها ، واستنجاد أهل نيسابور بجيوش يعقوب وخروجهم إليه لاستقباله عند قدومه إليها وتسلمه المدينة من أصحابها قبل أن يدخلها وعلى مسافة عشرة فراسخ منها . ثم طلب بعد ذلك من الخلافة إقرار الخطوة التى اتخذها حين عزل محمد بن طاهر عن خراسان ، وأن تمتد ولايته إليها بتعيين الخليفة له خلفا للطاهريين .

وهكذا نجد أن الدولة الصفارية فى فترة تكونها وولائها الصريح ، أو المدعى ، للخلافة قد تمكنت من أن تصبح دولة قوية متسعة الرقعة إذ امتد سلطانها إلى معظم بلاد فارس وخراسان ووصل إلى حدود بلاد

العراق التي تخضع خضوعا مباشراً للخلافة . كما نجد أن هذه الدولة قد وضعت عن السلطان أسرة عرفت بولائها للخلافة حتى اعتمدت الخلافة عليها فى الأطراف الشرقية للدولة ، بل زادت اعتمادها عليها ووثقت صلتها بها حين جعلت زعيمها رئيسا لشرطة بغداد ، بالإضافة إلى عمله بخراسان والجهات الشرقية ، وواليا عليها .

وهذا الموقف الذى وقفه يعقوب الصفّار من الدولة الطاهرية ومن الخلافة العباسية يعتبر تحدّيا لسلطان الخلافة وحرمانا لها من نصير موال يعتمد عليه ، وإن كان يعقوب نفسه قد وعد الخلافة بالتأييد والطاعة كما تعهد بأن يقدم إلى بيت المال حاجته من الأموال، إذ أخذ على نفسه عهدا بأن يضمن للخلافة خراج الأقاليم التي تخضع له .وحدّد هذا الخراج بنفسه بمقدار خمسة عشر مليونا من الدراهم يدفعها فى كل عام .

ونلاحظ كذلك أن حركة التوسّع الأخيرة التي قام بها يعقوب وانتهت بضم خراسان إلى ممتلكاته وبعزل الطاهريين قد تمّت فى عهد المعتمد على الله الذى استجاب لثورة الجند الأتراك ضد زعمائهم وحقق رغبتهم فى أن يتولى قيادة جيوش الخلافة أمير من البيت العباسى وعين الموفق أبا أحمد طلحة ، أخاه ، فى هذا المنصب . فكانت هذه الخطوة ، كما أوضحنا فى الفصل السابق إيذانا بانتعاش الخلافة ويقظتها وتهديدا للخارجين والثائرين على سلطانها وإن حاولوا أن يلبسوا ثورتهم ثوب الطاعة والخضوع كما فعل يعقوب .

تطور علاقتها بالخلافة :

لم تؤد التطورات التي حدثت من يعقوب الصفّار إلى إرضاء الخلافة

التى كانت مصرة فى عهد المعتمد على الله ، بجهود الموفق ، على أن تشعر ولاة الأقاليم بأنهم إنما يخضعون لها خضوعا مباشراً فى كل تصرفاتهم الرئيسية التى يجب أن تكون بتوجيهها . ولهذا لم تلق مطالب يعقوب بشأن خراسان والطاهريين قبولا من الموفق الذى ردّ رسل يعقوب وحمّلهم إليه خطابا جاء فيه : « إن أمير المؤمنين لا يُقارّ يعقوب على ما فعل ، وإنه يأمره بالانصراف إلى العمل الذى ولاّه إياه ؛ وإنه لم يكن ليعقوب أن يفعل ما فعل بغير أمره . فليرجع ؛ فإنه إن فعل كان من الأولياء ، وإلاّ لم يكن له إلاّ ما للمخالفين » .

ثم لم يلبث الخليفة ، بتدبير الموفق ، أن أمر بجمع الحجاج العائدين إلى خراسان والرى وطبرستان وجرجان فى بغداد وقرأ عليهم عبد الله بن طاهر أميرها كتابا من الخليفة يعلن فيه عصيان يعقوب ومخالفته أمر خليفته ، ويأمرهم بالبراءة منه ، وينكر على يعقوب دخول خراسان وسجنه محمد بن طاهر أميرها . وهذه الخطوة من الخلافة كانت تكون كفيلة بتفريق كلمة الجيش الصفارى وثورته على يعقوب فى الظروف العادية لما للخلافة من سلطة روحية على الشعب يخشى الثائرون والخارجون آثارها على حركاتهم . ولكن يعقوب كان قوىّ الشخصية عظيم السيطرة على أتباعه ، فلم تزده هذه الخطوة إلا تأكيداً لعزمه وتصميما على الاحتفاظ بما بذل فيه جهده من فتوح وانتصارات ؛ فقرر السّير إلى العراق .

وأعادت الخلافة تقدير الموقف ، ثم أرسلت إلى يعقوب كتاباً توليه خراسان وطبرستان وجرجان والرّى وفارس ، وتعينه أميراً للشرطة ببغداد ، وبهذا حققت جميع مطالبه التى كان يسعى إليها . ولكن يعقوب لم يرض بهذا الوضع وإنما كتب إلى الخليفة يطالبه بأن يجمع الحجاج الذين

أعلن عليهم فى بغداد عزل يعقوب عن ولايته وعصيانه لخروجه على الخلافة ، وأن يذيع الخليفة بينهم كتابا آخر يعلن رضاه عن يعقوب فيبطل بهذا الكتاب الجديد التأثير السيء الذى تركه الخطاب الأول . ثم زاد على ذلك بأن طالب الخليفة بتوليته أميراً على شرطة سر من رأى .

وعند هذه المرحلة دخلت العلاقة بين الخلافة والدولة الصفارية فى طور جديد ، ذلك أن يعقوب غره ماوصل إليه من اتساع فى الملك ومن استقرار شامل فى المناطق التى خضعت له ، كما اعتز بالطاعة العمياء من جنوده الذين قادهم من نصر إلى نصر ، وظن فى الخلافة ضعفاً إذ استجابت لرغباته التى أملاها عليها فاضطرت إلى قبولها بسبب ما ظهر لها من قوته وشدة عزيمته ونجاحه المتواصل، ذلك النجاح الذى يرجع إلى مساعدة الظروف التى مرت بها الخلافة فى الأطراف المختلفة عندما كانت تحاول استعادة سلطانها وتشديد قبضتها على ممتلكاتها بعد أن تفككت بسبب سيطرة الأتراك المتنازعين على شئونها سيطرة فاشلة — نقول غر يعقوب ما وصل إليه من نجاح هذا شأنه وهذه ظروفه فكتب إلى الخلافة يخبرها بأنه لم يكتف بما حققته له من رغبات ، وأنه سيسير بنفسه إلى باب الخليفة ، حتى يتأكد هذا بنفسه من أنه لم يكن عابثا فى عزمه السابق على المسير وليثبت أنه كان جادًا فى رغبته دخول عاصمة الخلافة ليتولى شئونها ، وأنه كان على ذلك قديراً .

حمل هذا الموقف الأخير ليعقوب الخليفة المعتمد على الخروج ، بإشارة أخيه الموفق مدبر شئونه ، لمقابلة يعقوب فى معركة حاسمة . وعزم الخليفة ، بهذا الخروج ، على استخدام سلطانه الروحى ، بالإضافة إلى القوة المادية فى محاولة هزيمة يعقوب وكبح جماحه . وكان لقاء الجيشين بعيدا عن سر من رأى وعن بغداد مدينتى الخلافة الرئيسيتين. وكان خروج الخليفة إلى واسط ،

وهو المكان الذى وصلته جيوش يعقوب فى تقدمها ، دليلا على تصميم الخلافة وعزمها على وضع حد لتطاوله واجترائه .

وحظى يعقوب بنصر مبدئى فى المعركة التى دارت رحاها بين الجيشين ، ولم يلبث هذا النصر أن تحول إلى هزيمة ساحقة عندما ثار جند يعقوب ضده لمحاربته الخليفة حين رأوه أمامهم يحارب يعقوب الذى كان فى أول أمره جنديا من جنوده يحارب الخارجين عليه مع المتطوعة كواحد منهم ثم زعيما لهم .

ويصور الطبرى هذا الموقف إذ يقول : « وقد ظهر من كثير ممن مع يعقوب كراهية القتال معه إذ رأوا السلطان (يعنى الخليفة) قد حضر لقتاله ؛ فحملوا على يعقوب ومن قد ثبت معه للقتال . فانهزم أصحاب يعقوب ، وثبت يعقوب فى خاصة أصحابه حتى مضوا وفارقوا موضع الحرب . فذُكر أنه أخذ من الدواب والبغال أكثر من عشرة آلاف ، ومن الدنانير والدراهم ما يكل عن حمله ، ومن جُرُب المسك أمر عظيم » .

وكانت نتيجة هذه الهزيمة أنّ الخلافة أعادت محمد بن طاهر إلى عمله ببغداد رئيسا لشرطتها ، وعاد يعقوب إلى بلاده متراجعا محصّنا للأقاليم الخاضعة له مولّيا عليها خاصة رجاله حتى يطمئن إلى قبضته عليها . وأدركت الخلافة فى نفس الوقت قوة يعقوب ، رغم ما أصابه من هزيمة ، فعملت على استمالته والاحتفاظ بولائه ؛ فأرسل إليه المعتمد رسولا خاصا يجدد ولايته على فارس ويهدئ من روعه ويظهر له رضا الخلافة وعفوها عنه . وقد وصل رسول الخليفة فلقى يعقوب على فراش المرض ، وقام يعقوب فى فراشه لاستقبال الرسول فى قوة وتماسك ، وجعل عنده سيفا ورغيفا وبصلا . ثم دخل الرسول على يعقوب وأدى الرّسالة التى حُمّلها من الخلافة ؛ فقال

يعقوب : « قل للخليفة إنى عليل ، فإن متُّ فقد استرحتُ منك واسترحت منى ، وإن عوفيتُ فليس بينى وبينك إلا السيف هذا حتى آخذ بثأرى أو تكسرنى فتفقرنى فأعود إلى هذا الخبز والبصل ! » .

فعاد الرسول يحدّث بما رأى وسمع ولم يلبث يعقوب أن توفى ، سنة ٢٦٥ هـ .

الدولة بعد وفاة يعقوب :

توفى يعقوب بن الليث الصفار فى جَنْديسابور وكان فى عزمه أن يعود إلى استئناف نشاطه ليجبر الخلافة على الاعتراف بسطوته وقوته . وبايع جنده من بعده أخاه عمرو بن الليث الذى كان قد صاحب يعقوب جنديا متطوعا فقائدا لجيش المتطوعة ، فرئيسا لدولة موالية للخلافة ، فثائرا معتدا بقوّته معتزا بطاعة جنده ، فتراجعا أمام الخلافة منهزما أمام تأثير سلطانها الروحى فى هؤلاء الجند . بويع عمرو من بعد يعقوب ، بايعه جنده ، وأقرت الخلافة هذا الاختيار ، فصدر كتابها ، بتدبير الموفق أيضا ، يوليه على خراسان والسند وسجستان وكرمان وفارس وأصبهان ، ويزيد على هذا تعيينه أميرا على شرطة بغداد وسر من رأى معا . فتلقى عمرو هذا التقليد بالشكر وأظهر عزمه على الطاعة باختيار عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ، من الأسرة الطاهرية ، نائبا عنه على شرطة بغداد .

وتحسنت العلاقة بين الصفاريين والخلافة ، إذ عمل عمرو على إرضاء الخليفة وأخيه الموفق ورجالهما بهداياه المتواصلة ، وأراد بذلك أيضا أن يؤكد سلطانه على جنوده الذين كانوا قد دخل نفوسهم شىء لموقف أخيه يعقوب من الخليفة . فلما استقرت الأمور واطمأنت الدولة واجتمعت كلمة

الجند بعد وصول خلع الخلافة إلى قائدها أخذ عمرو فى توسيع نفوذه بضم مناطق أخرى إلى بلاده ، ولكنه فى هذه المرة اتجه إلى الناحية الأخرى من بلاد الدولة وركز جهوده الحربية فى الشرق والشمال . وتوفى الخليفة المعتمد على الله وتولى الخلافة المعتضد بالله ، فجدد عمرو ولاءه وجدد المعتضد توليته وأرسل إليه الخلع والهدايا . ثم اجتاز عمرو نهر جيحون إلى بلاد ماوراء النهر واشتبك فى حروب مع السامانيين[1] ، وأرسل فى نفس الوقت إلى المعتضد يطلب منه عهدا بالولاية على بلاد ماوراء النهر وعزل اسماعيل بن نصر السامانى عنها . فأجابه المعتضد إلى ما طلب ، ولعله كان يرمى بذلك إلى إضعاف قوتى السامانيين والصفاريين جميعا حتى يتمكن هو من مواصلة الجهود التى كان الموفق قد بدأها لإنعاش الخلافة وإنهاضها من كبوتها. وشد هذا العهد من عزيمة عمرو وقوى من أطماعه فصدق الحرب ضد اسماعيل بن احمد السامانى الذى انتصر عليه ثم أخذه أسيرا . وخير اسماعيل أسيره بين أن يقيم عنده وأن يرسل إلى المعتضد فاختار عمرو ، بحسن ظن ، الثانية ، فاستقبله جنود المعتضد ببغداد وطافوا به ، مكبلا ، على جمل ذى سنامين كان فى بعض هداياه إلى الخليفة ، ثم أحضر إلى مجلس الخليفة الذى كان قد استعد لاستقبال سجينه فأوقفه على مسافة منه وقال « هذا ببغيك ياعمرو ! » ، ثم سجن ومات فى سجنه ، وقيل قتل سنة ٢٨٧ هـ .

وبعد أسر عمرو اضطرب أمر الصفاريين تحت زعامة حفيده طاهر ابن محمد بن عمرو ، وعمل المعتضد على تأمين جانب الخلافة من هذه الناحية ، فاستعان باسماعيل السامانى ، صاحب بلاد ماوراء النهر ، للقضاء على بقايا

---

(١) وكانوا قد أسسوا دولتهم فى بلاد ما وراء النهر سنة ٢٦١ هـ بعد أن كانوا فى أول أمرهم نوابا عن الطاهريين . واستمرت دولتهم نحو ١٣٠ سنة ، بين سنتى ٢٦١ — ٣٨٩ .

الصفاريين فى إقليم سجستان وبعث الخليفة إليه سيفا من ذهب وتاجا فى بعض الهدايا وثلاثة ملايين دينار لتجهيز جيش يحارب طاهرا ورجاله . واستمر أمر الصفاريين فى اضطراب مدة سنتين حتى سقطت دولتهم ، سنة ٢٨٩ ﻫ ، بعد عامين من وفاة عمرو بن الليث .

حضارة الدولة وسياستها :

لم ينس يعقوب أنه خرج من بين صفوف الجند ليتولى زعامتهم وقيادتهم بعد أن كان واحدا منهم ، وأنه كان عليه ، لكى يحتفظ بولائهم ، أن يعمل على تحسين أحوالهم ، وأن يبقى على صلته القوية المباشرة بهم. ويقال إنه لكى يؤكد هذا « كان لايجلس إلا على قطعة مسح يشبه أن يكون سبعة أشبار فى عرض ذراعين أو نحوها ، وإلى جانبه ترسه وعليه اتكاؤه ، وليس فى مضربه (خيمته) شىء غيره . فإذا أراد أن ينام من ليله أو نهاره اضطجع على ترسه ونزع رايته فيجعلها مخدته » .

على أن هذا التقشف كان مقصودا أيضا فى إعداد الجيش وتكوينه ، فالأثاث الكثير ووسائل الترف لاتصلح فى ميادين القتال ، فضلا عن أنها عبء كبير فى التنقلات والأسفار .

وقد تحدث رسول الخليفة مرة إلى يعقوب فقال له : « أنت فى رياستك ومجلسك ليس فى خدمتك إلا سلاحك ومسح أنت تجلس عليه » ! فأجابه يعقوب : « إن رئيس القوم يأتم به أصحابه فى أفعاله وسيرته ، فلو استعملت ما ذكرت من الأثاث لأثقلنا البهائم ولاقتدى بى فى فعلى من فى عسكرى ، ونحن نقطع فى كل يوم المفاوز والمهامه والأودية والقيعان ولا يصلح لنا إلا التخفيف » .

ورغم ما يبدو فى كل هذا من تواضع وتقشف قد يشعر بغنى محدود غير واسع نجد يعقوب يترك عند وفاته فى خزانته خمسين مليونا من الدراهم وثمانين مليونا من الدنانير كما تذكر بعض كتب التاريخ .

وقد سار عمرو بن الليث سيرة أخيه فى جنده وفى دولته ، فكان يشرف بنفسه على توزيع الأعطيات والأرزاق على الجند حين يعرضون عدتهم الحربية . وكان « العارض يقعد والأموال بين يديه والجند بأسرهم حاضرون ، وينادى المنادى أولا باسم عمرو بن الليث ليقدم دابته إلى العارض بجميع آلات الفارس فيتفقدها ، ويأمر بوزن ثلثمائة درهم باسم عمرو ، فتحمل إليه فى صرة . فيأخذ الصرة ويقبلها ويقول : الحمد لله الذى وفقنى لطاعة أمير المؤمنين حتى استوجبت منه الرزق ! . . . ويدعى بعد ذلك بأصحاب الرسوم على مراتبهم ، ويطالبون بجميع ما يحتاج إليه الفارس ، أو الراجل ، من آلات الحرب ، فمن أخل بإحضار شىء حرمه رزقه » .

وهكذا شعر جنود الدولة الصفارية ، وهم فى منشئهم متطوعة لجهاد الخارجين ولحرب المعتدين على ممتلكات الخلافة ، بأنهم مع رؤسائهم على قدم المساواة : كفاح مشترك ، وجزاء مناسب للكفاح ، لا فضل لأحد على أحد إلا بمقدار الاستعداد والعزم فى الجهاد . وبهذه السياسة تماسكت الدولة الصفارية وازدادت قوتها ، وساعد على بقائها قوية متماسكة ولاؤها للخلافة واستمدادها منها التأييد والنصر .

وعندما حاول زعيمها يعقوب الخروج على الخلافة وقاد جنده لحربها لم يشفع له عند هؤلاء الجند ما كان يشيعه بينهم من عدالة وحرية ومساواة ، وما كان يسود بينهم من إخاء ووفاق ، وما كان يعامل به نفسه فيهم وعلى مشهد منهم ؛ فالخليفة خليفة رسول الله ورمز الإسلام وحامى الدين ، له المكانة

الأولى والكلمة العليا . ولهذا خرج هؤلاء الجند على قائدهم ورئيس دولتهم ، العادل ، وانضموا إلى الخليفة فى قتاله حتى هزموه وأرجعوه إلى حيث ينبغى أن يكون من خضوع وولاء لممثل الرسول أمير المؤمنين .

وقد استفاد عمرو بن الليث من هذا الدرس الذى تلقنه أخوه ، على يد جنده ، عندما أراد مواصلة سياسة يعقوب فى التوسع فى السلطان ، فانصرف عن بلاد العراق ، حيث كرسى الخلافة ، واتجه إلى الناحية الأخرى من الدولة ، إلى الشرق والشمال ، وأعلن الخضوع والولاء للخلافة فى مناسبات متقاربة رغم المناوشات القليلة الأهمية التى انتهت دائماً بطاعته وخضوعه .

أما الجيش الصفارى فكان يتكون فى أصله وغالبيته من المتطوعة ، كما رأينا ، تجمعوا لقتال الخارجين على الخلافة وللجهاد فى سبيل الله . واستطاع يعقوب أن يستفيد من هذا التجمع وأن يوجهه لتكوين دولة تستمد سلطانها الشرعى من الخلافة . ثم جاء عمرو وأراد أن يزيد من قوة هذه الدولة وأن يعمل فى نفس الوقت على تكوين جيش يدين له شخصياً بالطاعة والولاء ، ولا ينقلب ضده كما انقلب ضد أخيه من قبل فى حربه ضد الخليفة ، فعمل على أن تكون صلته بالجنود جميعاً مباشرة ومكينة قدر الطاقة ، ومنع أصحابه وقواده أن يضرب واحد منهم غلاما إلا بأمره ، أو يتولى عقوبة الغلام نائبه أو أحد حجابه . وكان يشترى المماليك الصغار ويهبهم إلى قواده ويجرى على هؤلاء المماليك الأرزاق الخفية ويعطيهم الهبات سراً ليطالعوه دائماً بأحوال قواده فلا يختفى عنه من أخبارهم شىء . ولم يكن القواد يعلمون من ينقل أخبارهم إلى عمرو ، فكان الواحد منهم يحذره حتى وهو منفرد بنفسه .

وكان يعقوب يقيم خيمته فى ميدان المعركة فى موقع يشرف منه على مضارب قواده بحيث يرى دخولهم إليها وخروجهم منها، ولم يكن يختص أحداً منهم بتقريبه إليه، بل كان يعاملهم معاملة سواء.

ووسائل الحمل فى الجيش الصفّارى الجمال البختيّة (الخراسانية) والحمير. وكان يعقوب، ومن بعده عمرو، تقلل الاستعمال للبغال فى العسكر. وكانت عدة الجمال البختية نحو خمسة آلاف، وإلى جانبها أكثر من هذا حميراً شهباء اللون كالبغال، وهى نوع خاص عرف باسم الحمير الصفّاريّة، تحمل الأثقال عوضاً عن البغال. وكان السبب فى اختيار الجمال وتفضيلها على البغال أنه «إذا نزل (يعنى عقب مرحلة من مراحل السفر) خليت الجمال والحمير للرعى وليس فى وسع البغال ذلك».

أما قيادة الجيش فكانت منظمة وموزعة بين رجال يوثق فيهم وتختلف مراتبهم، وفيهم، زمن يعقوب، ألف رجل من ذوى الغنى الظاهر والبصر بوسائل الحروب والنكاية فى الأعداء، اختارهم يعقوب عن تجربة واختبار، وجعلهم «أصحاب الأعمدة الذهبية» التى كان كل منها يزن ألف مثقال من الذهب؛ ثم يليهم فى المكانة والغنى والقيادة نوع ثان من الرؤساء هم «أصحاب الأعمدة الفضية».

وليس هناك تنافر بين هذا الغنى العظيم وما ذكرناه من قبل عن حياة التقشف التى عاشها يعقوب وعمرو وأخذا بها رجالهما، ذلك أنه فى الأعياد أو فى الأيام التى يحتاج فيها إلى مباهاة الأعداء وإلى الاحتفال تُدفع إليهم تلك الأعمدة ليظهروا بها، وفى غير هذه المناسبات كانت تلك الأعمدة تحفظ

فى مأمن عُدة للنوائب . وقد أرسل عمرو بن الليث إلى الموفق عموداً من ذهب ، فى هديته إليه ، وذلك عند ما أشار الموفق على أخيه المعتمد على الله بإرسال خطاب يولىّ فيه عمرا على ما كان يتولاه يعقوب عند وفاته حينما وقع اختيار الجند على عمرو ليتولى قيادتهم ورئاسة الدولة الصفارية خلفا ليعقوب .

ولم تكن هذه المظاهر الغنية لتفتن الجند أو تثير الحسد والأطماع بينهم ، إذ كانت كلها تستخدم لإعزاز شأن الدولة ورفع مستوى الجند الذين كانوا ينالون من قِبل الزعامة جزاءهم بقدر ما يقدمون من عمل . ولهذا كان يعقوب على حق عند ما أظهر لرسُل الخلافة ، فى إحدى المناسبات ، إخلاص جنده وصدقهم حتى قال رئيس البعثة له : « مارأيت أيها الأمير كاليوم » ! فقال يعقوب : « وأعجب منه ما أريك إياه » ! « ثم قربوا من الموضع الذى كان فيه عسكر الحسن بن زيد فوجدوا البِدر والكراع والسلاح والعُدد وجميع ماخلف فى العسكر حين الهزيمة على حاله لم يلتبس أحد من أصحابه منه بشىء ولا دنوا إليه ، معسكرين بالقرب منه بحيث يرونه بالموضع الذى خلفهم فيه الصفّار . فقال له الرسول : هذه سياسة ورياضة راضهم الأمير بها إلى أن تأتىّ له منهم ماأراد » !.

° ° °

على أن هذه القوة العظيمة فى الجيش والدولة قامت على شيئين متلازمين : قوة الروح المعنوية فى الرجال ، وقوة الشخصية فى الزعيم .

فلما افتقد الجند الزعيم القوىّ بعد أسر عمرو بن الليث لظروف

طبيعية لادخل لشخصيته فيها ،[١] تفككت وحدتهم ؛ فكان هذا من أهم أسباب سقوط الدولة. وانتهز السامانيون الفرصة ، وعملت الخلافة على الاستفادة من هذه الظروف المواتية .

وبهذا تحالفت العوامل الثلاثة : الخلافة، والسامانيون ، وتفرق الكلمة ، على إسقاط الصفاريين ، فدالت دولتهم ، فى نهاية سنة ٢٨٩ ، بعد عامين من أسر قائدهم وزعيمهم .

---

(١) فى حرب مع إسماعيل السامانى أساء عمرو اختيار مكان الموقعة فصار كالمحاصر عند نهر بلخ فى بعض جنده ، بينما عبر بقية جنده من جهة أخرى ، فسهل بذلك وقوعه فى الأسر .

الفصل الثامن

جماعة القرامطة

قد يقصد بكلمة « القرامطة » بمعناها الواسع تلك الحركة الثورية الاجتماعية التى شملت مناطق واسعة من البلاد الخاضعة للدولة العباسية فى الفترة التى تبدأ حوالى منتصف القرن الثالث الهجرى . وحركة القرامطة بهذا المعنى الواسع قد تشمل الحركة الاسماعيلية التى كان من أظهر نتائجها قيام الدولة الفاطمية . وتعتبر هذه الحركة الثورية الاجتماعية عندئذ امتدادا للحركات التى ظهرت فى السنين المائة الأولى لحكم العباسيين مثل حركة المقنع الخراسانى والحركة البابكية الخرمية .

أما حركة القرامطة بمعناها الضيق المحدود فتطلق على الجماعة التى قامت بحركات ثورية ضد العباسيين بطريق مباشرة أو غير مباشرة ، ثم ضد الفاطميين كذلك ، بعد قيام دولتهم ، فى فترات الاضطراب التى ظهرت بين فرقتى الاسماعيلية والقرامطة والتى كان مجال نشاطها متركزا فى الشمال الغربى لبلاد العراق وفى بعض بلاد الشام وفى منطقة الكوفة وسوادها وفى سواحل الجزيرة العربية المطلة على الخليج العربى الفارسى .

ففى أواخر عهد المعتمد بالله ، الخليفة العباسى ، ظهر بمنطقة الكوفة رجل يظهر الزهد والتقشف ويأكل من كسب يده ويتطوع بالمساعدة لمن يحتاجها ويكثر من الصلاة . وقد قدّر الناس فيه هذه المحامد فزاد اتصالهم به ،

جعلوا ، منه ، أنه يدعو إلى إمام من أهل البيت . فلقيت هذه الدعوة نجاحا وتأييدا ، إذ أنها ظهرت فى بيئة متشيعة ، وزاد اهتمام الناس به واستماعهم له . ثم مرض ولم يعرف له أهل يهتمون به فحمله أحد أهل البلدة ، ويدعى كرميتة ، إلى بيته ورعاه حتى شفى ؛ وكان كرميتة هذا قد اقتنع بمبادئه فأخذ هو أيضا يدعو الناس إليها حتى أجابه إليها عدد كبير ، جلّهم من العمال . وقد نُسبت هذه الحركة فيما بعد إلى كرميتة هذا بعد تخفيف اسمه إلى قرمط[1] .

وقد انتشرت هذه المبادىء بنجاح كبير بين الصناع والفلاحين والعبيد والأكرة أو الأجراء ؛ وهذه الطبقات فى مجموعها هى نفس الطبقات التى انتشرت بينها الحركات الثورية الاجتماعية السابقة لحركتى القرامطة والفاطميين أو المعاصرة لها مثل حركتى المقنعيّة والبابكية الخرميّة ثم حركة الزنج بالبصرة .

وكانت الكوفة من أصلح الأماكن التى تبدأ فيها مثل هذه الحركات ؛ فهى علوية فى ميولها معادية للعباسيين منذ استغلوا ميولها الشيعية ثم ناهضوها . وهى كذلك منطقة زراعية تجارية صناعية ، فيها الفلاحون ومعظمهم أجراء لا يملكون من الأرض شبرا ، وفيها الأقلية التى تملك من الأراضى ما اتسع مداه . وفيها طبقة أرستقراطية من التجار وأصحاب المصانع وكثرة كثيرة فى نفس الميدان من العمال والمستخدمين . وقد غفلت الخلافة العباسية وقتئذ عن الكوفة واشتغلت عنها بحركات الصفاريين والطولونيين والزنج ، بفارس ومصر والبصرة ، وبلغ من إهمال الخلافة لحركات القرامطة بالكوفة أن

(١) قيل إن « كرميتة » كلمة نبطية معناها أحمر العينين ، وكان كرميتة بهذا الوصف . وقيل إن الاسم كان « قرمط » من أول الأمر ، أطلق على الرجل لتقارب خطواته . وفى القاموس المحيط : القرمطة مقاربة الخطو ودقة الكتابة .

قيل[١] إن احمد بن محمد الطائى عامل الكوفة للعباسيين فرض على كل رجل من القرامطة دينارا فى السنة يؤدى إليه فى مقابل تركهم أحرارا يدعون لمبادئهم .

وقد ازدادت الحركة القرمطية انتشارا وقوة حينما التقت فى مراحلها الأولى بالحركة الاسماعيلية التى تظاهرت بالدعوة إلى فرع معين من آل البيت ، وإن كانت تضمر شيئاً آخر ليس من العطف على آل البيت فى شيء . وقد بلغ من قوة ارتباط الحركتين فى هذه المرحلة أن بعض المؤرخين كان يعتقد أنهما حركة واحدة . فها هو ذا ابن كثير يقول[٢] : « ويقال لهم الاسماعيلية نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ، ويقال لهم القرمطية نسبة إلى قرمط بن الأشعث » . ويقول الشهرستانى[٣] « ولهم ألقاب كثيرة فبالعراق يسمون الباطنية والقرامطة » .

ويلاحظ أن الحركة القرمطية ، رغم نجاح دعوتها لدى الجماعات الساخطة على مكانتها فى المجتمع العباسى ، لم تقبل بين أعضائها العاملين إلا من دفع رسم الاشتراك فى الجماعة ، ذلك الاشتراك الذى كان الدعاة يزعمون أنه كان يجمع باسم الإمام . وهذا الرسم وإن كان فى ذاته قليلا فإن التضحية به من رجل هو فى أشد الحاجة إليه ، إذ كان عاملا أو أجيرا أو عبدا فى أول الأمر ، تعتبر دليلا على استعداده الكامل للجهاد فى سبيل رفع مستوى الطبقة الاجتماعية التى بخسها المجتمع الإسلامى الأكبر حقها . والحركة القرمطية بتقريرها هذا الرسم تشبه الحركة الاسماعيلية فى تقريرها الجُعْل على من يريد أن يساعده « الأئمة » وأعوانهم على العلم ببواطن الأمور ومغيباتها .

(١) والقائل هو الطبرى ج ١١ ص ٣٣٧ .
(٢) البداية والنهاية ج ١١ ص ٦١ .
(٣) الشهرستانى ج ١ ص ٣٣٥ .

ولم يكن هذا الرسم المالى البسيط عند القرامطة الوسيلة الوحيدة للدلالة على استعداد العضو الجديد للجهاد ، إذ ما يكاد العضو يلتحق بالجماعة حتى يدرك عبء المسئولية التى ألقيت على كاهله والتى كانت تتمثل فى شكل ضرائب مالية متصاعدة تنتهى بأن يكون كل ما يملكه هذا العضو ملكا للجماعة فى خدمة هدفها ، وفى شكل مجهودات حربية ، كما سنشير إلى ذلك فيما بعد بشيء من التفصيل .

وقد بدأ اتصال القرامطة بالاسماعيلية عندما أرسل عبد الله بن ميمون القداح إلى حمدان بن الأشعث ، أحد رءوس الحركة القرمطية بالكوفة ، يدعوه إلى التعاون مع الحركة الاسماعيلية ، وقد رحب حمدان بهذا التعاون ووعد بنشر المبادئ الاسماعيلية بين أعوانه . والمبادئ التى التق الطرفان على تحقيقها يمكن أن تفهم من الحديث الذى تحدث به عبد الله بن ميمون القداح ، داعية الاسماعيليين إلى دندان أحد الأغنياء الذين أسهموا بثرواتهم فى تمويل الحركتين الاسماعيلية والقرمطية . قال عبد الله بن ميمون : « ... وأشير عليك ألا تظهر ما فى نفسك للعرب ولا لمن يتعصب لهذا الدين، فإن هذا الدين قد غلب على الأديان كلها ، فما يطيقه الروم ولا الترك ولا الفرس ولا الهند مع بأسهم ونجدتهم . وانْعَ نفسك والزم التشيع والبكاء على أهل البيت فإنك تجد من يساعدك من المسلمين ويقول هذا هو الإسلام . وسُبَّ أبا بكر وعمر ، وانْعَ عليهما عداوة الرسول وتغيير القرآن وتبديل الأحكام ، فإنك إذا سببتهما سبيت صاحبهما ، فإذا استوى لك الطعن عليهما فقد اشتفيت من محمد ، ثم تعمل بعد ذلك فى استئصال دينه ؛ ومن خرج على ذلك فقد خرج من الإسلام من حيث لايشعر ويتم لك الأمر كما تريد » .

ولكى تكون حركات الاسماعيلية والقرامطة متكاملة ناجحة وجد نوع من التفاهم بين الجماعتين على المجال الذى ينشط فيه كل من الفريقين. فتركز نشاط القرامطة فى سواد الكوفة وبعض بلاد العراق الشمالية الغربية وفى أطراف الشام، ثم استقر، بعد أن تقدم الزمن بالجماعة، بصفة خاصة فى منطقة البحرين حيث تأسس ما يمكن أن يسمى دولة القرامطة، ثم امتد عن سواحل شبه الجزيرة العربية المطلة على الخليج العربى الفارسى بين جنوبى العراق وبلاد عُمان التى عجز القرامطة عن فتحها. ومن دولة القرامطة بالبحرين خرجت حملات حربية، أو ثورية، قرمطية إلى الحجاز والعراق والشام قبل إعلان قيام الدولة الاسماعيلية الفاطمية بالمغرب، سنة ٢٩٦ هـ، وإلى الشام أيضا ومصر بعد إعلانها ثم بعد انتقالها إلى مصر.

أما نشاط الحركة الاسماعيلية فكان فى الكثير الغالب نشاطا دينيا اجتماعيا، أى دِعَائيًا، فى الأقاليم المختلفة للدولة العباسية، ونشاطا حربيا أيضا فى شمالىّ إفريقية، أدى، فى نهاية القرن الثالث الهجرى، إلى تأسيس الدولة الفاطمية بها وامتداد سلطانها بعد ذلك إلى مصر والحجاز واليمن والشام.

النشاط الحربى والسياسى للقرامطة:

كان حمدان بن الأشعث من أوائل زعماء الحركة القرمطية، وقد تعاون فى أول الأمر مع الحركة الاسماعيلية تعاونا كاملا فأخذ ينشر مبادئ الدعوة الاسماعيلية بين رجاله متخذا الدعوة لإمام علوى ستارا يجمع به الأنصار؛ وتركز نشاطه فى شمالى العراق. وفى سنة ٢٧٦ هـ أمر أتباعه بشراء السلاح تمهيدا لبدء النشاط الحربى، وبدأ بعض رجاله حركة اغتيالات إرهابية حتى

خشى الناس شرهم فاظهروا موافقتهم جزعا منهم .

وكان عبدان صهر حمدان بن الأشعث يده اليمنى فى نشر دعوته ومن أكبر دعاته . وقد اشتهر عبدان بالعلم وإظهار التشيع والحذر من أن يفشى بأسرار حركته ، التى كانت تهدف إلى خلع الإسلام ، لغير الخاصة الموثوق بهم .

ثم ظهر من حمدان وصهره عبدان نزوع إلى الاستقلال بحركتهما ، بعد أن كثر أنصارهما ، عن الحركة الإسماعيلية . فلم نلبث ، حوالى سنة ٢٨٠ ﻫ ، أن سمعنا باختفاء حمدان بن الأشعث وبمقتل صهره عبدان ، بتحريض وتدبير من زعماء الحركة الاسماعيلية .

وقد بدأ النشاط الحربى للقرامطة بعد انتهاء زعامة حمدان وعبدان ، إذ خلفهما فى الشمال زعماء يدينون بالولاء للاسماعيلية ، فهاجموا الأراضى العباسية والطولونية فى العراق والشام ؛ أما فى الجنوب فقد ظهر زعيم أخلص أول أمره للاسماعيلية ثم ما لبث هو أيضاً أن خرج عليهم فأدى خروجه إلى سلسلة من المنازعات بينه وبينهم فور نجاحهم فى إقامة الدولة الفاطمية .

وكل مايهمنا هنا هو أن نوضح العلاقات المباشرة بين العباسيين والقرامطة ، وهو ما نستطيع الحديث عنه فيما يأتى :

أولا : بعد مقتل عبدان خلفه على زعامة القرامطة بالشمال « زكرويه » الذى أخلص للاسماعيليين وحاول أن يؤكد سلطانهم على جماعة القرامطة . وقد تتبع العباسيون نشاطه السرّى محاولين القبض عليه ، فاختفى عن أعين رقبائهم ووجه نوابا عنه إلى الأقاليم الشمالية العراقية وفى مقدّمة هؤلاء

ولدان له . وقد حاول زكرويه أن يؤكد نفوذه بصفة خاصة على جماعة الأعراب المنتشرين بين الشام والعراق ؛ ولكن الجهود التى قام بها لم يقدّر لها النجاح الذى كان يرجوه لها ، ولعل السر فى هذا أن الشام بميولها كانت متعصبة للسنية وللعربية ؛ ولكنه مع هذا استطاع أن يرسل أحد أولاده لحصار دمشق الطولونية ، ففشل الحصار وانتهى بمقتله . ونجح ابن آخر له فى بسط سلطانه على بعض النواحى الشامية حتى جاء محمد بن سليمان القائد العباسى فتمكن من القضاء على هذا الابن . وعندئذ اضطر الأب إلى الظهور ، ولم يلبث أمره أن انتهى بعد سنوات قليلة إلى ما انتهى إليه أمر ولديه .

ثانيا : حاول الخليفة العباسى المعتضد بالله أن يتخلص من قرامطة البحرين الذين استفحل خطرهم فى عهد زعيمهم أبى سعيد الجنابى وامتد سلطانهم على سواحل الجزيرة العربية المطلة على الخليج العربى الفارسى وهددوا الحجاز وقطعوا طريق الحاج . فاختار العباس الغنوى ، أحد قادته الأشداء ، وعينه واليا على البحرين وأمره بحرب القرامطة ، فاتجه على رأس جيش كبير إلى هذه الحرب . واتخذ المعتضد نفسه بعض الاحتياطات فى جنوبى العراق ، فى نفس الوقت ، خوفا من عدوان القرامطة ، فبنى سوراً عظيما حول مدينة البصرة التى كانت قبل ذلك بنحو خمسة عشر عاما مصدر قلق عظيم للخلافة العباسية بسبب ثورة الزنج . وقد التقى الجيشان العباسى والقرمطى ، وكان النصر للقرامطة ، وقتل معظم الجيش العباسى واسر من بقى . ثم أطلق زعيمُ القرامطة العباسَ الغنوىّ قائد جيش الخليفة إلى المعتضد وأرسل معه كتابا يتهدده فيه ؛ ولكن المعتضد لم يأبه لهذا التهديد بل صمم على حرب القرامطة فى منطقة البحرين والقضاء عليهم.

قائلا : « والله لئن طال بي العمر لأشخصنّ بنفسي إلى البصرة وجميع غلماني ، ولأجهزنّ إليه جيشاً كثيفاً ، فإن هزمهم خرجت فى جميع قوادى وجيشى إليه حتى يحكم الله بيني وبينه » . ولكنه توفى قبل أن يتمكن من تنفيذ وعيده وإن كان قد حذّر فى مرضه الأخير من خطر القرامطة إذ قال : « والله لقد كنت وضعت فى نفسى أن أركب ثم أخرج إلى باب البصرة متوجها نحو البحرين ، ثم لا ألقى أحداً أطول من سيفى إلا ضربت عنقه . وإنى أخاف أن يكون من هناك حوادث عظيمة » .

ثالثا : هدأ نشاط القرامطة الجنوبيين بعد هذه المعركة إلى حد كبير بسبب اشتعال نار الفتنة القرمطية فى الشمال ، ولأن الجنوبيين قرروا بعد دراسة نتائج المعركة مع العباس الغنوى انتهاز الفرصة للتنظيم والاستعداد للجولة الثانية . وقد كان من مظاهر نشاط الفرع الشمالى لحركة القرامطة عندئذ أنهم هزموا جيشاً أرسله إليهم الخليفة المكتفى ، فى أواخر سنة ٢٨٩ وأوائل سنة ٢٩٠ هـ ، وحرقوا مسجد الرصافة بعد أن خربوا المدينة ، وهاجموا أملاك الطولونيين بالشام واستولوا على الكثير منها ، وحاصروا دمشق وفرضوا عليها الجزية ، واستولوا على مدينة حمص وبعض أعمالها . وكانوا يكثرون القتل فى كل بلد يدخلونها ، ولم يسلم الأطفال من هذه المذابح .

واستغاث أهل الشام بالخليفة المكتفى لعله يتخذ خطوات أكثر جدّية فى حرب القرامطة . فخرج المكتفى بنفسه إلى الرقة وأرسل أمامه جيشاً كثيفاً يقوده أبو الأغر فالتقى بجيش القرامطة قريبا من حلب وكان النصر للقرامطة وتراجع أبو الأغر إلى داخل حلب ، فأنجده الخليفة بجيش

آخر بقيادة محمد بن سليمان الذى نجح فى تشتيت شملهم وتفريق جموعهم فى الصحراء فكانت هذه بداية نهايتهم .

رابعا : وكانت هناك فترة سلام بين قرامطة البحرين ، الذين كانوا هادئين منذ نهاية أيام المعتضد ، وبين العباسيين ، وهى هدنة أملتها الظروف الداخلية لمجتمع البحرين إذ كان فى حاجة إلى إعادة تنظيم وتطهير . كما ساعدت عليها الحركات الحربية بالشام والتى ظهرت بأعنف صورها فى الفوضى التى اضطرت المكتفى إلى السير إليها بنفسه ، كما ذكرنا ، حتى يكون على مقربة من تطورات المعارك فيطمئن الشعب الذى كان قد استغاث به ، وحتى يستمد الجيش من سلطانه الروحى قوة تمكنه من مواصلة الحرب .

كما أنه كان من أهم العوامل التى ساعدت على خلق هذه الفترة الهادئة فى الميدان الجنوبى عودة ظهور الخلاف القديم بين فرقتى القرامطة والاسماعيلية حول الوسيلة التى تنتهى إلى تحقيق هدفهما المشترك ؛ فهى إما تخريب وهدم صريحان كما يرى القرامطة ، وإما سياسة أحياناً وحرب أحياناً أخرى كما قرر ذلك الاسماعيلية عندما اتجهوا إلى المغرب ليعملوا لتأسيس دولتهم ، الفاطمية ، ثم بعد أن نجحوا فى تأسيس هذه الدولة .

ولهذا نجد هذه الفترة فترة اضطراب فى العلاقة بين الفاطميين والقرامطة إذ ظهر العداء سافراً بين الفريقين ونشبت بينهما الحروب التى كادت فى بعض مراحلها تودى بالدولة الفاطمية الناشئة . كما تميزت هذه الفترة فى بعض مراحلها المتأخرة ، التى تتجاوز عصر نفوذ الأتراك ، بتطور فى العلاقة بين العباسيين والقرامطة ؛ ففى أيام الخليفة المطيع حاول

الحسن الأعصم ، زعيم قرامطة البحرين ، أن يتحالف مع العباسيين ضد الفاطميين ، وطلب من الخليفة أن يمده بالمال والسلاح والرجال لمحاربتهم ، وأن يعينه واليا على مصر والشام حتى يطرد العزيز عنها . ويقال إن المطيع رفض هذا النوع من التعاون قائلا : « كلهم قرامطة وعلى دين واحد ، فأما المصريون (الفاطميون) فأماتوا السنة وقتلوا العلماء ، وأما هؤلاء فقتلوا الحاج وقلعوا الحجر الأسود » . وكذلك أحس بنو بويه ، الذين خلفوا الأتراك فى السيطرة على الدولة العباسية ، بخطر قيام الدولة الفاطمية على سلطانهم رغم ميولهم الشيعية ، فأمدوا القرامطة بالأموال وطلبوا من أسرة الحمدانيين بالشام مساعدتهم .

خامسا : تطورت العلاقة بين الفاطميين والقرامطة إلى نزاع مسلح كان النصر فيه سجالا بين الفريقين . وحديث هذا النزاع يخرج بنا عن موضوع هذه الدراسات المتعلقة بالخلافة العباسية . ولكن نتائجه تعنينا ، ذلك أن القرامطة كجماعة لها كيانها وقوامها وشخصيتها انتهت حوالى سنة ٤٧٠ ﻫ ، فى عهد المستنصر بالله الفاطمى ، وذلك بعد أن نجح الفاطميون ، وبخاصة فى أيام المعز لدين الله والعزيز بالله ، فى تفكيك وحدتها وفى إخضاعها لسلطانهم .

مميزات جماعة القرامطة :

قضت الأهداف التى كانت ترمى جماعة القرامطة إلى تحقيقها وحاجتها إلى اتباع أسلوب خاص فى الحياة ييسر لها مهمة تحقيق هذه الأهداف بطريقة ناجحة إلى أن يكون للجماعة مميزات خاصة فى مظاهر الحياة الاجتماعية والمالية وفى نظامها الحربية وفى تعاليمها الدينية . وسنفرد كلا منها بكلمة مختصرة .

أولا : الحياة الاجتماعية :

منذ بدأت الدعوة القرمطية رأى زعيمها أن ينظم أنصارها فى جماعة متجانسة متكافلة لها روابطها الخاصة بها . ولكى يحقق هذا تخير قرية من قرى سواد الكوفة وقرر أن تكون المكان المختــار للجماعة منها يبدأ نشاطها وفيها تنظم صفوفها فى عزلة عن المجتمع العام الذى رأت هذه الجماعة أنه يغمطها حقها . وقد جمع القرامطة لهذه القرية الصخور العظيمة وبنوا بها سوراً عظيما حولها قيل إن عرضه بلغ ثمانية أذرع ، ثم حفروا حولها خندقا عميقا زيادة فى تحصينها ، وأقاموا المبانى العظيمة فى داخل هذا السور لتكون لهم سكناً وقلاعا . وانتقل إلى هذه المدينة الجديدة الرجال والنساء الذين أخلصوا للدعوة القرمطية ثم من انضم إليهم فيما بعد ، وعرفت هذه المدينة الجديدة باسم دار الهجرة . ولم تلبث هذه الدار أن عممت فى أماكن متقاربة ، وعلى مثالها تكونت دولة القرامطة بالبحرين .

وفى دور الهجرة المختلفة عُمّ نظام اجتماعى ودينى خاصان يشبهان فى كثير من أسسهما نظم الحركات الثورية التى ظهرت فى العصر العباسى الأول . واختار زعيم القرامطة فى كل دار من دور الهجرة رجلا من ثقاتها تجمع عنده أموال القرية ، وكان على هذا الرجل أن يرعى شئون جماعته فيتكفل بقضاء حاجاتها وبصيانتها عما يمس سلامتها ، فكان عليه أن يكسو العارى ويطعم الجائع ، ولا يدع فى جماعته فقيراً أو محتاجا حتى يشعر سكان هذه الدار بالفرق بين مجتمعهم الجديد والمجتمع الذى خرجوا ثائرين عليه . كما كان على زعيم دار الهجرة أن يوجه كلاً من أتباعه إلى الاهتمام بصناعة ما وإلى أن يصبح من الممتازين فى هذه الصناعة حتى يستفيد مجتمعه

بمجهوداته الفنية والمالية : « فجمعت المرأة كسبها من مغزلها والصبي أجرة نطارته للطير وأتوه بها » ، وجعلوا كل ذلك فى خدمة الجماعة وتحت تصرف زعيمها ، « فلم يتملك أحد منهم إلا سيفه وسلاحه » .

وقد بلغ من اهتمام الزعيم بهذا المجتمع « أن الشاة كانت تذبح ويسلم اللحم إلى العرفاء ليفرقوه على من يرسم لهم ، ويدفع الرأس والأكارع والبطن إلى العبيد والإماء ؛ ويجز الشعر والصوف ويفرق على من يغزله ، ثم يدفع إلى من ينسجه عبيا وأكسية وغرائر ويفتل منه حبالا . ويسلم الجلد إلى الدّباغ فإذا خرج من الدباغ سُلّم إلى خرازى القرب والروايا والمزاد ، فما كان من الجلود يصلح نعالا وخفافاً عُمل منه ؛ ثم يجمع ذلك كله إلى خزائن » .

من هذا كله ، ومن غيره مما لم نذكره ، يتضح أنه كان من المفروض أن يتساوى أعضاء الجماعة القرمطية فى الانتفاع بما تصل إليه أيدى أفرادها من كسب أو غنيمة فى حدود مجتمعهم المحصور ؛ وأن هذا المجتمع لم يكن ليقبل بين أعضائه عاطلا أو عالة حتى وإن كان طفلا أو امرأة ، إذ أن هؤلاء أيضاً كان عليهم أن يعملوا وأن يقدموا الدريهمات المعدودة التى يحصل عليها كل منهم إلى القائم على شئون دار الهجرة . وكان على هذا المجتمع أن يسمع ويطيع لما يمليه عليه الزعيم الذى كان يجتهد فى رعاية شئون الجماعة ويجعل نفسه المرجع فى كل شىء حتى يطمئن إلى الطاعة العمياء ، وحتى لا يعطى أحداً من أعضاء هذا المجتمع فرصة التفكير الحر أو التصرف أو التملك . وفى هذا نجح القرامطة إلى حد كبير ، كما نجح فى كثير منه جماعة الاسماعيلية ، ثم من بعدهم جماعة الحشاشين .

ثانيا : التنظيم المالى :

رأينا أن أول مسئولية مالية تقع على كاهل عضو جماعة القرامطة تتمثل فى رسم الاشتراك الذى يدفعه عند التحاقه بالجماعة باسم الإمام صاحب الدعوة . وتتوالى المسئوليات المالية بعد ذلك ، إذ يفهم العضو أن عليه أن يسهم فى تحمل الأعباء الثقيلة التى تفرضها عليه عضويته لهذا المجتمع فى نفسه وفى ماله . وقد اتبع فى هذا المجتمع نظام ضرائبى متصاعد منذ اللحظة الأولى استند فى بعض درجاته على آيات من القرآن الكريم كما يفسرها القرامطة .

فهناك درهم مفروض على كل رجل وامرأة فى الجماعة أطلق عليه اسم درهم « الفطرة » ، ويدّعى القرامطة أن هذه « الفطرة » هى التى وردت فى قول الله تعالى : « فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا » . ثم على كل رجل بالغ أن يدفع « الهجرة » وهى ضريبة قدرها دينار واحد . ولمن أراد أن تزداد مكانته بين الأعضاء العاملين فى الجماعة ويبلغ مرتبة عالية من مراتب الإيمان أن يدفع ضريبة « البلغة » ، فإن دفعها أصبح من السابقين الذين قال الله فيهم : « وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ، أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ » . ثم إذا زاد الإيمان وتوثقت الصلة ، وواصل الفرد جهوده فى مجموعة ، أو بمفرده ، للجهاد فى سبيل خدمة الجماعة وحصل من ذلك على مغنم مادىّ كان عليه أن يدفع خمس ما يغنمه للعريف الذى يشرف على منطقته ، وذلك استجابة لقول الله تعالى : « وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ . . . » . ثم فرضت عليهم بعد ذلك « الألفة » وهى أن العضو فى المجتمع القرمطى يتمتع بما يتمتع به زملاؤه فى المذهب وفى الحياة ، ويتساوى معهم فى جميع

الحقوق ولهذا كان عليه أن يرفع الكلفة بينه وبين أخيه ، وأن يخرج من كل أمواله لصالح المجتمع الذى أصبح هو عضوا فيه تحدثنا بنعمة الله تعالى الذى يقول : « وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا » والذى يقول : « لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِى الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ » .

وأخيراً فإن الجميع مشتركون فى واجب عام هو العمل المستمر المحافظة على مستوى هذه الجماعة ورعاية شئونها ، ولا يكون هذا إلا بالسعى فى وقت السلم استعدادا لوقت الحرب وبالاختزان فى وقت الرخاء توقعا لأيام الشدة .

ومن كل هذا نرى أن المجتمع القرمطى متكون دائماً ، فى مرحلة التماسك الأولى على الأقل ، من الشخصيات العاملة الكادحة المؤمنة بالهدف الذى ترمى إليه ، وما كان فيه لعاجز أو لضعيف الإيمان بالجماعة مكان .

ثالثا : التنظيم الحربى :

بدأ هذا التنظيم الحربى منذ الفترة الأولى التى أزمعت فيها جماعة القرامطة اتخاذ خطوات عملية بعد أن تم اتصالها بالحركة الإسماعيلية وتفاهمها معها . فنى سنة ٢٧٦ هـ أمر الزعيم حمدان بن الأشعث أتباعه بشراء الأسلحة والدروع . وكان من الضرورى للقرامطة بعد أن قرروا اعتزال المجتمع الكبير أن يشعروا فى دار الهجرة الخاصة بهم بالأمن الشامل التام ؛ ولهذا كانت هذه الدار تصمم وتنفذ على شكل قلاع حربية تحوطها الأسوار الضخمة المنيعة ثم الخنادق العميقة . وكانت المعارك الحربية تدرس بعناية

كما تبحث نتائجها زغبة فى تدعيم القوة الحربية وتهيئة أحسن الظروف لنجاحها . فبعد الحرب التى شنها العباس الغنوى أيام المعتضد بالله ضد دولة البحرين درس القرامطة نتيجة المعركة ووجدوا أن الأعراب المقيمين بالقرب منهم كانوا إلى حدّ ما خطراً عليهم ؛ ولهذا اتجهوا إلى هؤلاء الأعراب فأجلوهم نهائيا عن جوارهم . ثم نظم الزعيم القرمطى الوسائل التى تمنع الدخلاء من تعرّف أحوال بلده ورجاله ، وجعل هذا كلّه إلى فئة قليلة من الأمناء الذين كان من واجبهم أيضاً أن يحكموا الرقابة على القرامطة أنفسهم حتى لا يكون فيهم من يفشى أسرارهم .

وقد كان للقرامطة نشاط حربى متّصل — تقريباً — فكان لابد من أن يكون هناك مدد كاف من الرجال الأشداء الذين ينفرون للحرب متى طُلب إليهم ذلك ، وهؤلاء قد لا يتوفرون بطريق الانضمام العادى إلى جماعة القرامطة ، ولهذا لجأ الزعماء إلى جمع أبناء الأسرى مع الأبناء القرامطة فى أماكن خاصة ؛ وكان الزعيم يقيم عليهم « قوادا ويجرى عليهم ما يحتاجون إليه » . كما أن الزعيم « وسمهم على خدودهم حتى لايختلطوا بغيرهم ، وعَرّف عليهم عُرّفا ، وعلم من يصلح منهم لركوب الخيل والطعان » . فنشأ هؤلاء الصبيان لا يعرفون غير الحرب حرفة ولا يحيدون عن الطاعة العمياء والانقياد للزعماء .

وهكذا نجد المجتمع القرمطى منظما تنظيما دقيقا فعالا من الناحية الحربية مطمئنا إلى كفاية حاجاته وإمداداته فى الأسلحة والرجال ، وإلى حكمة قواده الذين كانوا يدرسون الأمور درساً دقيقاً من جميع نواحيها .

رابعا : الناحية الدينية :

تتشابه حركة القرامطة وحركة الاسماعيلية فى كثير من المبادئ الدينية التى قامت عليها دعوتهما . وقد رأينا أن القرامطة كانوا فى أول الأمر ، كالاسماعيليين ، يتظاهرون بالدعوة لإمام من أهل البيت ، وأن رسوم الاشتراك كانت تجمع باسم هذا الإمام .

ويفيدنا هنا أن نذكر أن الداعى الذى يوكل إليه أمر اجتذاب الأنصار كان يعمل فى حدود ترسم له وينفذ تعليمات زعمائه ومنها : « اجمع المال والرجال ، والزم الصوم والصلاة والتقشف ، واعمل بالظاهر ولا تظهر الباطن ، وقل لـكل شىء باطن . وإن ورد عليك مالا تعلمه فقل : لهذا من يعلمه ، وليس هذا وقت ذكره » . وكان عبدان أحد زعمائهم الأوائل فى هذا المجال « ذا فهم وحذق ، فـكان يعمل عند نفسه على حدّ قد نصب له من غير أن يجاوزه إلى غيره من خلع الإسلام ، ولا يظهر غير التشيع والعلم ، ويدعو إلى الإمام من آل رسول الله » .

وقد رأينا من بين التعاليم الاسماعيلية القرمطية : « والزم التشيع والبكاء على أهل البيت ، وسُبّ أبا بكر وعمر وانْعَ عليهما عداوة الرسول وتغيير القرآن وتبديل الأحكام » . فإذا تعمقنا وراء هذه الدعايات الظاهرية وجدنا هدف القرامطة واضحاً فى قول أحد زعمائهم « إنما جعلت ذلك ذريعة إلى ما وراءه ألقيه إلى الناس وإلى من أسكن إليه على مهل ورفق من الطعن على الإسلام » وفى قوله عن سبّ أبى بكر وعمر : « فإنك إذا سببتهما سببت صاحبهما ، فإذا استوى لك الطعن عليهما فقد اشتفيت من محمد ، ثم تعمل

بعد ذلك فى استئصال دينه . ومن خرج على ذلك فقد خرج على الإسلام من حيث لا يشعر ويتم لك الأمر كما تريد » .

وليست المسألة مسألة أقوال وتوجيهات ، وإنما هى أعمال أيضاً . وحوادث التاريخ تؤكد أن القرامطة خرجوا على الدولة واستمروا خارجين محاربين فترة طويلة ، وأنهم لم يفرقوا فى هذه الحروب بين الجيوش المحاربة وبين المدنيين ، فكانوا يصبون الجميع بأذاهم : يقتلون ، وينهبون ، ويأسرون ثم يخربون .

ولخروجهم على الإسلام أدلة ثابتة فيما ذكرناه من هجومهم على الرصافة وتخريبها وحرق مسجدها وقتل نسائها وأطفالها ، وفى التنظيم المالى الذى انتهى بهم إلى تقرير مبدأى اللاملكية واللافردية ، وإنما الفرد آلة مسخرة لخدمة الأغراض التى رسمها الزعيم وقام على تنفيذها عرفاؤه وأمناؤه ، والمال وسيلة تحقيق هذه الأغراض . كما يتضح موقفهم من الإسلام أيضاً من اعتراضهم طريق الحجاج وقتلهم وأسرهم ونهبهم ، ومن مهاجمة الأراضى المقدسة فى فترات الحج للاغتيال وتعطيل الشعائر ، ومن اعتدائهم على بيت الله الحرام ونقل الحجر الأسود من الكعبة إلى هجر عاصمة دولة قرامطة البحرين .

• • •

وأخيراً : فقد نجحت الحركة القرمطية فى إزعاج الدولة الإسلامية فترة طويلة ، وقيض الله للمسلمين من أحلاف القرامطة القدامى عوناً على طغيانهم وأذاهم إذ لم يلبث الاسماعيليون الفاطميون أن عانوا من تسرع حلفائهم فعملوا على السيطرة عليهم وكبح جماحهم . وانتهى الأمر بهؤلاء القرامطة إلى الانقراض على أيدى أعوانهم السابقين فى منتصف القرن الخامس الهجرى .

الفصل التاسع

البويهيون(١)

تمهيد :

فى أواخر عهد نفوذ الأتراك ضعفت هيبة الخلافة ووصلت مكانتها إلى ما لم تصل إليه من قبل من انحطاط وتدهور رغم محاولتها إنقاذ الموقف بإنشاء منصب أمير الأمراء . « ولم يبق للخليفة غير بغداد وأعمالها والحكم فيها لأمير الأمراء وليس للخليفة فيها حكم » . واشتد التنافس حول هذا المنصب حتى ضاعت هيبته وفقدت قيمته وأصبح بقاء صاحبه فيه رهنا بقدرته على إرضاء جنده ووفائه بأرزاقهم . ثم لم يعد الخليفة يملك بعد هذا إلا إقرار المتغلب من الأمراء على هذا المنصب حتى يتمكن منافس جديد من انتزاعه لنفسه فيبادر الخليفة إلى إرسال الخلع واللواء ومنح ألقاب التشريف إلى هذا المتغلب الجديد .

وقد اضطر الخليفة المتقى إلى الوقوف إلى جانب محمد بن رائق فى إحدى مراحل النزاع مع أبى عبد الله البريدى الذى طمع فى المنصب لنفسه ، وكانت نتيجة هذا أن اضطر ابن رائق إلى الهرب من بغداد أمام جيوش البريدى ، فخرج الخليفة معه خوفا من البريدى وتغيب عن بغداد نحو أربعة أشهر (من سنة ٣٣٠ هـ) عاد بعدها فى حماية بنى حمدان الذين استولوا لأنفسهم على منصب أمير الأمراء . ولكن هؤلاء لم يشغلوه مدة طويلة إذ تغلب عليه توزون ، أحد القادة الأتراك ، فأرسل إليه المتقى الخلع . وبعد قليل غضب

توزون على الخليفة فأمر بسَمْل عينيه وخلعه ، وقد اشتد صياح الخليفة لما أصابه من تعذيب ، « فأمر توزون بضرب الدبادب (أى الطبول) حول المضرب ، حتى يغطى ضجيجها على صوت الخليفة ويخفى صياح نسائه وخدمه .

واشتد الاضطراب بعد ذلك فى بغداد عاصمة الخلافة حتى غلت الأسعار وانعدمت الأقوات ، فكاتب بعض القادة الأتراك بها أحمد بن بويه ، الذى كان قد أسهم فى مد النفوذ البويهى إلى جنوبى العراق ، فاستجاب للدعوة ودخل بغداد ، فرحب به الخليفة المستكفى وجعله أميرا للأمراء ولقبه معزّ الدولة . وبدخول معز الدولة بغداد بدأ دور جديد فى تاريخ الخلافة العباسية لم يكن فيه للخلفاء أى عمل فى إدارة الدولة إذ رغبوا بأنفسهم عن مجرد التفكير فى محاولة القيام بعمل جدى يعيدون به للخلافة شيئاً من مكانتها فطال لذلك حكمهم بعد أن كفوا البويهيين متاعب تدخلهم .

° ° °

وأحمد بن بويه ، معز الدولة ، أحد إخوة ثلاثة من بلاد الديلم ، فى الجنوب الغربى لبحر قزوين ، تذكر كتب التاريخ عنهم أنهم كانوا فقراء مستضعفين ، وإن حاول بعض مؤلفى هذه الكتب أن يؤكدوا نسبتهم إلى بعض البيوت الملكية الفارسية القديمة .

والتحق الإخوة الثلاثة أحمد ، معز الدولة ، وعلى ، عماد الدولة ، والحسن ركن الدولة ، بجيش ماكان بن كالى أحد قادة العلويين ببلاد الديلم ، يتخذون ذلك مورداً للرزق إذ كانت الجندية عندئذ من الحرف التى يُتكسب بها . وارتفع شأن هؤلاء الإخوة الثلاثة فى جيش ماكان حتى صاروا فى مقدمة

رجاله وتوداه . وكان نشاط ماكان ورجاله فى المناطق القريبة من بحر قزوين بلاد الديلم وطبرستان وجرجان . واصطدمت مطامع ماكان بمطامع فارسى آخر كان يرجو النجاح فى تكوين دولة جديدة يعيد بها أمجاد فارس القديمة هو مرداويج بن زيار[١] . وشعر الإخوة الثلاثة بقوة مرداويج فى نضاله ضد ماكان الذى ضعف أمره ، كما سمعوا بحسن سيرته فى جنده ، فانصرفوا عن ماكان بعد أن أشعروه بأنهم إنما يفارقونه ليخففوا مؤنتهم عنه ، ووعدوه بالعودة إلى صفوف جنده متى صلح أمرهم .

وقد رحب بهم مرداويج وولى أحدهم ، على بن بويه ، إقليم الكرج ، فكانت هذه التولية بدء أمجاد بنى بويه والأساس الذى قام عليه سلطانهم فى بلاد فارس ثم فى بلاد العراق بعد دخولهم بغداد .

والبويهيون فى هذا يشبهون الصفاريين فى نشأتهم وفى تطور نفوذهم مع اختلاف بعض الظروف . فقد بدأ كل من الفريقين عمله فى الجيش من أدنى مراتبه ثم واصل جهاده حتى وصل إلى أرقى مراكز قيادته . وبحسن سياسة كل من الفريقين استطاع الصفاريون ، ثم البويهيون ، الاعتماد على جندهم فى تكوين دولة مستقلة عن تدخل الخلافة فى بلاد فارس ولكن مصير الصفاريين يختلف عن مصير البويهيين ، ذلك أن الصفاريين إنما ظهروا فى فترة الصحوة المؤقتة التى أحست بها الخلافة أيام المعتمد على الله ، بجهود

---

(١) زعم مرداويج أنه سيرد دولة العجم ويقضى على دولة العرب ، وسأل عن تيجان الفرس فمثلت له فاختار صفة تاج كسرى لنفسه ، وجعل لنفسه سريراً من ذهب رصعه بالجوهر ، وجعل أمامه سريراً من الفضة ودونه كراسى منصبة ليجلس عليها أتباعه كل بحسب درجته . وكتب الى بعض أتباعه ببغداد يأمر بإعداد إيوان كسرى وتعميره على الهيئة التى كان عليها قبل الإسلام لينزل فيه عند دخوله بغداد .

أخيه الموفق ، وزمن المعتضد بالله ، ولهذا استطاعت الخلافة أن تحد من نفوذ الصفاريين وأن توقف زحفهم على بغداد . أما البويهيون فقد كونوا دولتهم فى غفلة من الخلافة التى اشتغلت بالمنازعات المتزايدة حول منصب أمير الأمراء تلك المنازعات التى اضطرت الخليفة المتقى إلى الهرب من بغداد سنة ٣٣٠ ، والالتجاء إلى بنى حمدان أصحاب الموصل ، ثم إلى العودة إلى بغداد فى حماية هؤلاء الحمدانيين الذين استقروا ببغداد إلى حين .

وفى أثناء هذه الفوضى الضاربة تقدم على بن بويه فى اتجاه الأهواز والعراق ، بعد أن تمت سيطرته على معظم بلاد فارس ، ونجح أخوه أحمد فى دخول الأهواز ثم فى فتح واسط . ثم لم يلبث أن بلغ نبأ انتصاراته إلى بغداد فكاتبه بعض قوادها يدعونه إلى دخولها ، فتقدم إليها ، ورحب به الخليفة المستكفى واحتفى به وجعله أميرا للأمراء ولقبه معز الدولة ، ولقب أخاه على بن بويه ، الذى كان مشتغلا بإدارة إقليم فارس ، عماد الدولة ، ولقب الحسن ، الذى كان حاكما لإقليمى الرى والجبل عندئذ ، ركن الدولة ؛ ثم أمر بأن تضرب ألقابهم وكناهم على النقود .

ويعلق الأستاذ الخضرى على هذا الحدث بقوله عن الخلفاء : « وهو تاريخ سقوط السلطان الحقيقى من أيديهم وصيرورة الخليفة منهم رئيساً دينياً لا أمر له ولا نهى ولا وزير ، وإنما له كاتب يدير إقطاعاته لا غير ؛ وصارت الوزارة لمعز الدولة يستوزر لنفسه من يشاء » .

° ° °

وتختلف الظروف التى دخل فيها البويهيون بغداد ، مقر الخلافة ، عن تلك التى دخل فيها الأتراك من قبلهم فى خدمة الخلافة العباسية . ذلك أن هؤلاء

الأتراك إنما جاءوا والدولة قوية متماسكة إلى حد كبير ، والخلافة مسيطرة متمكنة ، لها الكلمة العليا والتصرف الكامل ، وباختيارها وحدها قدم الأتراك فى أعداد قليلة أولا ثم فى أفواج كثيرة متتابعة لتحقيق هدف معين للخلافة هو إشعار كل من الفرس والعرب بقدرتها على استخدام غيرهم لتأييد سلطانها وخدمة أغراضها .

أما البويهيون فقد جاءوا فى ظروف مختلفة تمام الاختلاف ، فالدولة مفككة ممزقة لا رابط يربطها ولا وحدة تجمعها، توزعت أقاليمها بين ولاة طموحين أو سيطر عليها جند مغمورون بدءوا من لا شيء وانتهوا إلى السيطرة على كل شيء ؛ والخلافة واهنة مستكينة لا حول لها ولا قوة ، ولا نفوذ ولا سلطان إن خارج العراق وإن داخل حدود سيطرتها المباشرة ؛ والعراق يعانى من تطاحن الولاة والأمراء ، ثم أمراء الأمراء ، والشعب فى محنة والبلاد فى أزمة . وتطورت الأمور حتى استغاث بعض القادة بالبويهيين المنتصرين ورحبت الخلافة بهذه الخطوة وفتحت بغداد أبوابها للقادمين .

وإذا كان الأتراك قد استطاعوا السيطرة الكاملة المتجبرة رغم قوة الخلافة ونفوذ كلمتها وقوة سطوتها فى أول قدومهم ، فإن السبيل ميسرة هينة أمام البويهيين لبسط سلطانهم وسيطرتهم بأقل مجهود فى وقت قصير ، معتمدين فى ذلك على شباب دولتهم وثروة بلادهم التى خضعت لسلطانهم قبل دخولهم إلى العراق .

وكان دخول البويهيين إلى بغداد نقطة تحول من نوع جديد على الخلافة العباسية ، ذلك أنهم كانوا يدينون منذ نشأتهم بالمذهب الشيعى بينما كانت

الصبغة العامة للدولة الصبغة السنية . ومن آثار هذا التطور أن معز الدولة أمر ، فى سنة ٣٥١ هـ ، بنقش لعن الصحابة على جدران مسجد الشيعة ببغداد فكان مانقش : « لعن الله معاوية بن أبى سفيان ، ولعن من غصب فاطمة فدَكاً ، ومن منع من أن يدفن الحسن عند قبر جدّه عليه السلام ، ومن نفى أبا ذرّ الغفارى ، ومن أخرج العباس من الشورى » . وكان من نتيجة تأييد البويهيين للمذهب الشيعى وحمايتهم للمتشيعين أن أضيف سبب جديد إلى أسباب الفوضى والقلق فى بغداد عاصمة الخلافة[1] .

وسنتحدث من مظاهر سيطرة البويهيين وآثار هذه السيطرة فى الدولة وعلى الخلافة عن جوانب محددة نركزها فيما يلى :

أولا : البويهيون والخلافة :

ذكرنا أن البويهيين دخلوا بغداد فى يُسْر ودون مشقة بعد أن مزقتها الفوضى وقضت على كل هيبة للخلافة بها . وكان الخليفة والقادة والشعب ينتظرون على يديهم شيئاً من الاستقرار يستمدونه من سيطرتهم الكاملة على معظم الجهات الفارسية المتماسكة تحت سلطانهم عندئذ . وقد بدأت صلتهم بالخلافة بعد دخولهم بغداد حينما رحب الخليفة المستكفى بمعز الدولة ومنحه ، ومنح أخويه ، ألقاب التكريم وأمر بأن يكتب اسمه ، واسم أخويه ، إلى جوار اسمه هو على النقود . ولم يلبث البويهيون أن سيطروا على الخلافة سيطرة متجبرة شملت كل قواها وحرمتها كل سلطة حتى أصبح الخلفاء ولا قوة لهم وأصبح بنو بويه أصحاب السلطان المطلق ، يحكمون دون أن

---

(١) سنعود إلى هذه النقطة بشىء من التفصيل فيما بعد .

يحفلوا بمن يدّعى أنه أمير المؤمنين . وبهذا كان العصر البويهى ، من هذه الناحية ، امتدادا لعصر نفوذ الأتراك ، لاسلطة فيه للخلفاء ، والسيطرة كلها للبويهيين يعزلون منهم من يشاءون ويولون من يشاءون . ومن أمثلة هذا :

١ — لم يلبث معز الدولة فى بغداد أياما معدودة حتى تنكر للخليفة المستكفى بالله فاتهمه بالتآمر عليه وقرر خلعه . فركب إليه وتظاهر بالطاعة ودخل على الخليفة فى مجلسه وقبل الأرض بين يديه ، فأمر المستكفى بكرسىّ يجلس عليه معز الدولة . ثم دخل رجلان من رجال معز الدولة وتقدما من الخليفة متظاهرين بالخضوع ، ومد المستكفى يده نحوهما فتناولاها متظاهرين بتقبيلها ، وجذباه من مجلسه وربطا عمامته فى رقبته وسحباه خارج المجلس وذهبا به ماشيا إلى دار معز الدولة حيث سجن مدة بعد أن خلع وسملت عيناه ، ثم نهبت داره حتى لم يبق فيها شىء . وقد حدث هذا بعد شهر واحد من دخول معز الدولة بغداد[1] .

٢ — ويشبه هذا إلى حد كبير ما حدث للخليفة الطائع (٣٦٣ — ٣٨١) ذلك أن بهاء الدولة ، أبا نصر فيروز البويهى (٣٧٩ — ٤٠٣) صاحب فارس والعراق معا ، احتاج إلى بعض الأموال يواجه بها المتاعب التى سببها له اشتباكه مع الطامعين فى منصبه من آل بويه وعجزه عن إرضاء جنده المتنافسين ، وهم ترك وديالمة ، فأطمعه وزيره فى الخليفة وأمواله . فتظاهر بهاء الدولة بأنه يريد زيارة الخليفة ليجدّد ولاءه وطاعته ، فأذن له الخليفة . ودخل بهاء الدولة وقبل الأرض بين يدى الطائع خضوعا وولاء ، وجلس

---

(١) دخلها معز الدولة فى ١١ من جمادى الأولى سنة ٣٣٤ وولم هذا فى ١٢ من جمادى الثانية من نفس العام .

أمامه على كرسى أمر الخليفة له به ؛ ثم دخل بعض الديالمة وتقدم أحدهم من الخليفة متظاهرا بأنه يريد تقبيل يده ، وتكرر ما حدث مع المستكفى بالله ونزل الخليفة عن سريره مستغيثا صائحا مرددا « إِنَّا لِلّٰهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ » ولكن لاغياث ولاعون . ثم أخذ بهاء الدولة ورجاله ما فى قصره من ذخائر وجواهر .

٣ — فى عهد المطيع لله (٣٣٤ — ٣٦٣) أراد عز الدولة بختيار البويهى أن يواصل حروبه فى منطقة البطيحة ، بين واسط والبصرة ، فجمع لذلك الأعداد الغفيرة من العامـــة والمرتزقة واستعد للسير . ثم طلب من الخليفـة المطيع لله أن يمول الحملة ، فكتب إليه المطيع يقول « إنما يلزمنى الغزو إذا كانت الدنيا فى يدى وإذا كان تدبير الأموال والرجال إلىّ . وأما الآن وليس لى من ذلك شىء ، وإنما هو فى أيديكم وأيدى أصحاب الأطراف ، فما يلزمنى غزو ولاشىء ، وإنما لكم منى هذا الرسم الذى تخطبون به على المنابر تسكنون به الرعايا . فإن شئتم أن أعتزل فعلت وتركت الأمر كله لكم » .

وأصر عز الدولة على مطالبه خوفا من شغب الجند وثورتهم وطالت المناقشات وعرض الخليفة على عز الدولة أربعمائة ألف درهم ، قيل إنه باع فى سبيل الحصول عليها بعض ثيابه ، فقبلها عز الدولة ولكنه احتجزها لنفسه ولم يستخدمها فى تمويل الحملة . واشتد المرض بعد هذا بالمطيع لله ، وكان قد أصيب بالفالج فلم يلبث أن وضع بنفسه حدا لمتاعبه إذ خلع نفسه من الخلافة بعد أن أصبحت عبئا ومشقة على من يتولاها .

ثانيا : الوزارة فى عهدهم :

عندما دخل بنو بويه بغداد كانت الوزارة تفقدت أهميتها وجلالها بسبب سيطرة أمير الأمراء على الدولة ، واقتصرت أعمال الوزراء على الحضور إلى دار

الخلافة فى أيام المواكب مرتدين السواد متقلدين السيوف والمناطق وغيرها من ملابس الوزراء وشعاراتهم ، وذلك للاشتراك فى المواكب والأعياد فى مناسباتها . وأصبحت كل الأموال تجبي إلى خزائن أمير الأمراء يتصرف فيها كيف شاء ، كما انتقل إليه وإلى كاتبه مهمة النظر فى جميع الشئون الإدارية .

وعندما جاء البويهيون إلى بغداد شغلوا بأنفسهم منصب أمير الأمراء ولم يلبثوا أن حملوا الخلفاء على تلقيبهم بلقب شاهنشاه ، أى ملك الملوك ، وبألقاب أخرى منها محي دين الله ، وغياث عباد الله ، وسلطان الدولة ، ويمين خليفة الله . وبهذا زادوا فى مظاهر نفوذهم وأبهة منصبهم على لقب أمير الأمراء ووظائفه ، وأصبح لهم الحق ، دون الخلفاء ، فى تعيين الوزراء لمساعدتهم وأصبح هؤلاء الوزراء ينسبون إليهم ، واكتفى الخلفاء بكتاب يديرون إقطاعاتهم ، المحدودة ، تحت إشراف الملوك البويهيين ووزرائهم . ولم تكن هذه المهمة شاقة أو عسيرة إذ حدد البويهيون مرتبات معينة للخلفاء بدأت بألف درهم فى اليوم فى أوائل عهد البويهيين ثم لم تلبث أن تناقصت وتضاءلت واضطرب نظامها ، فلم يعد الخلفاء ، فى واقع الحال ، فى حاجة إلى من يتولى الوزارة لهم . •

ومن أشهر وزراء البويهيين أبو الفضل بن العميد ، وهو من أوائلهم ومن أشهرهم ، تميز بالحنكة والخبرة وقوة الشخصية فهابه الجند والمدنيون على السواء ، حتى كان يكفيه رفع الطرف إلى أحدهم على طريق الإنكار فتضطرب الأعضاء وترتعد الفرائص وتسترخى المفاصل » .

ومنهم كذلك الصاحب بن عباد[1]، وهو من تلاميذ أبي الفضل بن العم
والمتأدبين بأدبه والمقتدين بطريقته في الشئون الإدارية والكتابية . وكا
يجمع إلى هذه المهارة الإدارية براعة حربية إذ اشترك بنفسه في بعض الحملا
الحربية ، قائداً لها ، في إقليم طبرستان ، ففتح بعض قلاعها ونظم إدارتها ع
أساس متين . ومما يدل على دهائه وحكمته ما نسب إليه في مرض مو
إذ قيل إن فخر الدولة أبا الحسن عليا ، صاحب الري وهمذان وأصبها
(٣٦٦ — ٣٨٧) ، زاره في مرضه فقال له الصاحب : « قد خدمتك أيـ
الأمير خدمة استفرغت فيها الجهد ، وسرت في دولتك سيرة جلبت لك
حسن الذكر . فإن أجريت الأمور بعدى على نظامها وقدرت القواعد عل
أحكامها نُسب ذلك الجميل السابق إليك ، ونسيتُ أنا في أثناء ما يثنى
عليك ، ودامت الأحدوثة الطيبة لك . وإن غيّرتَ ذلك وعدلت عنه كنت
أنا المشكور على السيرة السالفة وكنتَ أنت المذكور بالطريقة الآنفة
وقدح في دولتك ما يشيع في المستقبل عنك » .

على أن منصب الوزارة لم ينتعش إلا في السنين الأولى لسيطرة البويهيين
حتى إننا لانجد من الوزراء عدداً يزيد عن أصابع اليد الواحدة ، بل يقل
عن ذلك ، ذكر التاريخ لهم جهودهم في تأسيس حكم بني بويه ؛ ثم أعقب
ذلك اضطرابات شاملة في داخل البيت المتسلط نفسه وبين من اتصلوا بهم
من وزراء وكتاب .

ويلاحظ كذلك أن الوزراء كانوا يعانون مثل ماعاناه زملاؤهم من

---

(١) لقب بالصاحب لأنه كان ملازما أبا الفضل بن العميد . وقيل بل لأنه لازم مؤيد الدولة البويهي بن ركن الدولة وهو الذي أطلق عليه لقب الصاحب فالتصق به ؛ ثم صار هذا لقبا لبعض من جاء بعده من الوزراء .

قبلهم فى عصر نفوذ الأتراك من مشقات ويلاقون كثيراً من التعذيب والتنكيل . فها هوذا أبو محمد الحسن المهلبي ، من آل المهلب بن أبي صفرة ، يتولى الوزارة لمعز الدولة سنة ٣٣٩ ، وإن لم يخاطب بلقبها رسميا إلا سنة ٣٤٥ ، وكان مخلصاً فى عمله دقيقاً يحاول تنظيم الضرائب ويؤدب العابثين ؛ ويجمع إلى هذا مهارة فى القيادة الحربية وفى الجهاد ، حتى قيل إنه توفى ، سنة ٣٥٢ ، وهو خارج لفتح عمان . ورغم هذا كله نجد معز الدولة يقبض على أولاد المهلبي بعد وفاته كما يقبض على كل من اتصل بخدمته أو بحاشيته ويصادرهم ويقبض أموالهم . ولم ينج المهلبي نفسه ، قبل وفاته ، من أذى سيده الذى ضربه بالمقارع مائة وخمسين مقرعة فى إحدى المناسبات .

ومثل هذا حدث للصاحب بن عباد إذ أرسل السلطان فخر الدولة البويهى إلى دار الصاحب بعد وفاته من أحاط بأمواله وخزائنه ونقلها إلى بيت السلطان . وقد وُجد فى خزائن الصاحب كيس فيه رقاع أقوام بمائة ألف وخمسين ألف دينار مودعة عندهم فطولبوا بذلك . .

واعتُقل ابن العميد الوزير وأيقن أن مصيره القتل حتى وإن تنازل عن جميع أمواله . فأخرج من جيبه ورقة كان قد أحصى فيها ودائعه وما ورثه عن أبيه من أموال وذخائر فألقاها فى كانون نار بين يديه وقال للقائم عليه : اصنع ما أنت صانع ، فوالله لا يصل من أموالى المستورة إلى صاحبك دينار واحد . فعرضوه على وسائل التعذيب حتى يقر بهذه الأموال فرفض وتوفى معذبا دون أن يقرّ بشىء .

ثالثا : الأوضاع المالية

رأينا أن اضطراب الشئون المالية فى عصر نفوذ الأتراك كان من أهم

الأسباب التى أضعفت الخلافة وأفقدتها سيطرتها على الموقف، وحملتها على إنشاء منصب أمير الأمراء الذى أسهم هو أيضاً، باختصاصاته الواسعة من الناحية النظرية، فى زيادة الحال سوءاً واضطراباً.

ورأينا كذلك أن من الوسائل التى لجأت إليها الخلافة لسد حاجة الجند والقادة والقصر إلى الأموال طريقة المصادرات لأموال الكتاب والوزراء وطريقة التضمينات للأقاليم المختلفة أو للمناصب[١].

ولكن هذا كله لم يؤد إلى تحسين الحال بل ساعد على انكماش ممتلكات الخلافة التى تخضع لها خضوعا مباشراً حتى أصبحت مقصورة على بغداد وأعمالها، بينما توزعت بقية الأقاليم بين الولاة المتغلبين عليها.

وكان دخول البويهيين بغداد نتيجة مباشرة لهذه التطورات جميعا. ولكننا نلاحظ فيه أنه لم يظهر فى شكل السيطرة على بغداد، ومن ثم على الخلافة، ثم فى بسط السلطان على الأقاليم الأخرى من داخل العاصمة؛ وإنما كان فى واقعه وصورته التى تم بها ضمّ بغداد، والخلافة، إلى ممتلكات الدولة الفارسية الديلمية التى تكونت بين بحر قزوين والمحيط فى غفلة من الخلافة المتداعية الواهنة.

وبهذا كانت بغداد معتمدة من الناحيتين الحربية والاقتصادية على قوة خارجة عن مجال نفوذها، فى الواقع، هى الدولة البويهية الجديدة الناشئة، ومواردها عندئذ متوفرة منتظمة. فكان من المنتظر أن تستقر الأمور، فى المرحلة الأولى على الأقل، من الناحية المالية.

وهذا هو الذى حدث فعلا ولكن على حساب بغداد. ذلك أن

---

(١) انظر ما سبق فى الفصل السادس؛ ص ١٠٧ — ١١٤.

معز الدولة أحمد بن بويه ، وهو أول من سيطر على بغداد من الأسرة البويهية ، استولى على القرى والممتلكات التى كانت لا تزال فى حوزة الخلافة ورجالها ومنحها لرجاله وقواده فى شكل إقطاعات يتملكونها . وقد أدى هذا عندئذ إلى تحسن أحوال هذه الممتلكات إذ عمل أصحاب الإقطاعات على حسن إدارتها واستغلالها فتوفر دخلها . ولكن الأمور لم تلبث أن ساءت ، فى عهد معز الدولة نفسه ، ذلك أن كثيراً من هؤلاء القادة انصرفوا عن الاستغلال المباشر لإقطاعاتهم ووكلوا عنهم عمالا ، أو موظفين ، يقومون بهذا نيابة عنهم ، فكان هؤلاء يظلمون ويسيئون ثم يدّعون الخسارة فى الإنتاج والقلة فى الموارد . وقد انتهى الأمر فعلا إلى هذا الوضع بعد أن رأى الناس انهم لم يتخلصوا من عسف الأتراك إلا ليقعوا تحت جبروت البويهيين ورجالهم .

ووجد البويهيون، المسيطرون على بغداد ، أنفسهم فى حاجة إلى الأموال فلجئوا إلى التحايل للحصول عليها ، وكانت المصادرات من أسهل الوسائل لتحقيق ذلك . وقد رأينا ما حدث لأموال المهلّبي وابن عباد الوزيرين بعد وفاتهما ، كما رأينا المحاولة الفاشلة مع ابن العميد الوزير بعد القبض عليه لمحاولة الحصول على أمواله .

على أن المهلّبيّ نفسه لجأ إلى هذه الطريقة إذ تتبع أحد عمّاله[1] محاولا معرفة شىء عن أمواله لمصادرتها فأعوزته الحيل ، فتتبع غلمانه وحاشيته وأرهبهم ، واستعمل كل ما امتاز به من مكر ودهاء وبطش ، حتى نجح فى الوقوف على أسراره فظفر من ذلك بالمال الكثير ، وكان هذا السرّ فى حجرة أحد خدم هذا العامل إذ بلغ الوزير المهلّبي أن العامل طرد خادمه

(١) واسمه « أبو على » وكان يعمل خازنا لمعز الدولة أحمد بن بويه .

من هذه الحجرة وحبس نفسه فيها أياما ؛ فدخل الوزير الحجرة وحفر فيها فظفر ببعض المال . وكان في جملة المدفون قطعة من خشب لا شيء فيها ، فعجب المهلبيّ منها ثم قلبها فوجد فيها كتابة بخط رديء ، فإذا هي أسماء قوم ورموز لا يفهم منها شيء ؛ فلم يشك الوزير أنها أسماء قوم مودَعين وأن الرموز مبلغ ما عندهم من المال . ولم يزل يستعمل الدهاء والتخمين في فك الرموز ومعرفة المعامَلين حتى صح له ذلك وبطش بمن اهتدى إليه حتى حصل منهم على المال » . وقد رضى معز الدولة عن هذا الجهد وسرّ بذكاء وزيره .

والواقع أن وفاة أصحاب الأموال في هذا العهد البويهي كانت ضربة قاصمة لذويهم الذين كانوا يتعرضون للتنكيل الشديد حتى يقرّوا بتفصيل ما تركه مورثهم من أموال أو يسلموا الوصية التي تركها من بعده . وقد حدث أن تعرض ورثة أحد العلويين لمثل هذه المحنة وانتهى أمرهم بأن اصطلحوا مع المسئولين على خمسين ألف دينار تحمل إلى الخزانة صلحا على مجموع التركة .

وكان أصحاب الأموال يتحايلون على إخفاء أموالهم صيانة لها وحتى يتقوا شر المصادرة التي أصبحت سياسة طبيعية للدولة ، فكانوا يودعون أموالهم عند أناس كثيرين ويكتبون أسماءهم معمّاة ملحونة أو يكنون عن ألقابهم حتى لا يهتدى إليهم بسهولة .

الفصل العاشر

البويهيون (٢)

لم يكن انتقال السيطرة فى ظل الخلافة العباسية من الأتراك إلى البويهيين مجرد تغيير فى القوة الحاكمة فى الدولة ، وإنما صحب هذا الانتقال تغيير ، كانت له آثاره ، فى الصبغة المذهبية للقوة الحاكمة فى بلاد الخلافة . كما أن انتقال السيطرة بهذه الصورة لم يكن يعنى استقراراً فى الدولة إذ أن القوة التى بدأت بها سيطرة البويهيين لم تلبث أن أصابها التفكك فى داخل البيت المتحكم نفسه وفى الأنصار الذين اعتمد هذا البيت على تأييدهم . وسنوضح هذه الجوانب الثلاثة . فى تفصيل مركز فى النقط الآتية :

أولا : البويهيون والصبغة المذهبية للدولة :

عندما خضعت بلاد الديلم للحكم الإسلامى ، فى عهد عمر بن الخطاب ، احتفظت بمعتقداتها الدينية ذات الصبغة الوثنية ، ولم ينتشر فيها الإسلام بالسرعة والسهولة التى ساد بها فى مناطق أخرى من بلاد فارس . وظلت بلاد الديلم ذات أغلبية غير مسلمة حتى خمدت ثورة محمد النفس الزكية فى أوائل عهد العباسيين ، وكان العهد بسماحة الإسلام وعدالة حكامه الأوائل قد بعد إلى حد كبير ، فتكونت فى فارس جماعات تعمل للتخلص من عواقب سوء إدارة الحكم الإسلامى عندئذ . وساعد على ظهور هذا الشعور فى بلاد الديلم وما يقرب منها بصفة خاصة فرار يحي بن عبد الله إليها من

عسف العباسيين وترحيب أهلها به ، فبدأ هناك عندئذ تكوين رأى عام مسلم يدين من الإسلام بمبادئ الشيعة .

ثم أعطى المستعين بالله بعض الإقطاعات القرية من بلاد الديلم إلى محمد ابن طاهر صاحب خراسان ، فحاول أن يتسلمها ويتسلم مرافقها التابعة لها ، فامتنع أهل هذه المنطقة من تسليمها ونظموا مقاومتهم بانضمامهم إلى الحسن ابن زيد العلوى ، الذى كان ثائراً بالرى ، وبمبايعته بالإمامة ، وطلبوا من أهل الديلم تأييدهم فى هذا الموقف ، ففعلوا . وبهذا ارتبط هذا التطور الجديد أيضاً بحركة ثورية وبعواطف شيعية ، وكان تأثير هذه الحركة أبعد فى نشر الإسلام بصبغته الشيعيةفى هذه المنطقة من الحركة الأولى .

ثم دخل بلاد الديلم بعد وفاة الحسن بن زيد وأخيه محمد داعية شيعى آخر هو الحسن بن على الملقب بالأطروش وأقام بها نحو ثلاث عشرة سنة أحسن فيها السيرة ودفع عنها مطامع الطامعين ، وكان يعينه فى هذا بعض القادة المهرة ومنهم ماكان بن كالى . وبهذا القائد الأخير بدأ اتصال بنى بويه جنوداً فى جيشه ثم قادة، كما أشرنا إلى ذلك فى بداية الفصل السابق .

وبهذا نشأ بنو بويه نشأة شيعية ثورية ، غاضبين على العباسيين معتقدين أنهم اغتصبوا الحق من أصحابه أولاد على ؛ وبهذه الروح دخلوا بغداد بزعامة معز الدولة أحمد بن بويه نائباً عن أخيه على . وبدأ أثر هذه النشأة الشيعية يظهر بسرعة فى مسلكهم بمقر الخلافة :

١ — فقد حاول معز الدولة أحمد بن بويه أن ينقل الخلافة من العباسيين إلى العلويين الذين كانوا قد نجحوا فى إقامة خلافة قوية بشمالى إفريقية انتسبت إلى فاطمة الزهراء ؛ واستشار جماعة من خاصة أصحابه ورجاله

فى الخطبة للمعز لدين الله الفاطمى ، فوافقوه جميعاً على ذلك إلا بعضا منهم قال له : « ليس هذا برأى ، فإنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة ، ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلّين دمه . ومتى أجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته ، فلو أمرهم بقتلك لفعلوه ! » . ولهذا عدل معز الدولة عن القضاء على الخلافة العباسية واكتفى بتجريد الخليفة من كل نفوذ وسلطان وجعله كالمحجور عليه ، وأجرى عليه راتباً محدوداً لنفقاته اليومية .

٢ — وفى بغداد ، سنة ٣٤١ ، ظهرت حركة ثورية خفيفة تزعمها شاب يزعم أن روح علىّ بن أبى طالب حلّت فيه ، كما زعمت امرأته أن روح فاطمة بنت الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ، قد انتقلت إليها ، وزعم تابع لهما أنه جبريل . فتعرض لهم قوم وضربوهم وأُخذوا إلى السجن ، فبلغ أمرهم معز الدولة الذى أمر بإطلاقهم لميلهم إلى أهل البيت .

٣ — وكتب على جدران بعض مساجد بغداد عبارات فيها سبّ بعض الصحابة ومنها : « لعن الله معاوية بن أبى سفيان ، ولعن من غصب فاطمة رضى الله عنها فدكا ، ومن منع أن يدفن الحسن عند قبر جدّه عليه السلام ، ومن نفى أبا ذر الغفارى ، ومن أخرج العباس من الشورى » ، وقد كان هذا بتوجيه من معز الدولة . وأصبح الناس فلم يجدوا هذه العبارات فى المساجد إذ محاها بعض أهل السنة بليل ؛ واغتاظ معز الدولة ، فأشار عليه وزيره المهلبىّ بأن يكتب مكان العبارة السابقة : « لعن الله الظالمين لآل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم » ولا يذكر أحداً فى اللعن إلا معاوية ، ففعل ذلك .

٤ — وفى يوم عاشوراء من سنة ٣٥٢ أمر معز الدولة الناس « أن

يغلقوا دكاكينهم ويبطلوا الأسواق والبيع والشراء وبأن يظهروا النواح ، وبأن يخرج النساء منشورات الشعور مسودات الوجوه قد شققن ثيابهن ، يدرن فى البلد بالنوائح ويلطمن وجوههن حزنا على الحسين بن على رضى الله عنهما ، ففعل الناس ذلك مكرهين ولم يقدر أحد من الناس على الإنكار أو على الامتناع ، ولم يستطع الخليفة السنىّ أن يمنع من ذلك شيئاً . وفى اليوم الثامن عشر من ذى الحجة فى هذا العام احتفل الشيعة بعيد الغدير ، غدير خم ، وهو اليوم الذى تزعم الشيعة أن الرسول صلوات الله عليه عهد فيه إلى ابن عمه على بن أبى طالب بالأمر من بعده وجعله وصيه إذ قال : « من كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم وَالِ من والاه ، وَعادِ من عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله ، وأدر الحق معه حيث دار » . وقد أمر معز الدولة بإظهار الزينة فى بغداد وأشعلت النيران بدار الشرطة وفتحت الأسواق بالليل كما يفعل فى الأعياد ، وضربت الدبادب والبوقات ؛ وفى صبيحته نحروا جملا وبكروا إلى مقابر قريش .

٥ — وفى أواخر عهد أبى كاليجار عماد الدولة ، ٤١٥ — ٤٤٠ ﻫ ، قام هبة الله الشيرازى ، أحد دعاة الشيعة الاسماعيلية ، بالدعوة للفاطميين فى بلاد العراق ، وخليفتهم إذ ذاك المستنصر بالله الفاطمى ، واعتمد فى هذه الدعوة على تأييد أبى كاليجار البويهى الذى كان يهدد الخليفة العباسى القائم بأمر الله بإعلان دولة الفاطميين فى بغداد . وقد اشتد غيظ القائم العباسى بسبب هـــذه الدعوة فكتب إلى أبى كاليجار يقول : « إن كانت دعوة تعزى إليهم[1] فى الأيام المتقدمة فلقد كانت فى الخفاء والستر مثل خبيّات الصدور ومكنونات القلوب . وإن أحداً ما جسر على مثل

---

(١) يعنى إلى الفاطميين وأسلافهم .

ما جسر عليه هذا الرجل[١] الفاعل الصانع من الوقوف فى بعض مواقف إظهاره وإشهاره ، والتجرد لرفع معالم ذكرهم بالصلاة والخطبة ، وإزالة أسامينا بالكلية . وإذا سومح فى بابه وأهمل الاستيثاق وتسليمه إلى صاحبنا[٢] فقد أخرجتمونا من عهدة الأيمان والعهود بيننا وبينكم ، وأحوجتمونا إلى استنصار من ينصرنا عليكم » . وكان الخليفة يلوّح بهذه العبارة الأخيرة إلى الاستعانة بالسلاجقة الأتراك الذين علا شأنهم فى الأطراف الشرقية للدولة إذ ذاك ، وهم ، كبقية الأتراك ، يدينون بالمذهب السنيّ .

وقد تلقف أبو كاليجار الكرة من الخليفة القائم ، وعقد صلحا مع السلاجقة حتى يحرم الخليفة من التهديد بهم ويمنعه من الاستعانة بهم ؛ وتأكد هذا الصلح بالزواج السياسى الذى عقد بين البيتين البويهى والسلجوقى ، إذ تزوج طغرل بك زعيم السلاجقة من ابنة أبى كاليجار ، كما تزوج الأمير أبو منصور بن أبى كاليجار بابنة الملك داود أخى السلطان طغرل بك . وفى نفس الوقت كتب أبو كاليجار إلى هبة الله الشيرازى يؤكد حرصه على الاحتفاظ بحسن علاقاته مع الفاطميين قائلا : « . . . وتصور لتلك الحضرة الشريفة ، دامت بالعز مكنوفة ، ما اطلعتَ عليه من شواهد صفاء عقيدتنا فى مخالصتها ، وإيثارنا انتظام شمل سعادتها ، واستقامة أمور مملكتها ؛ وتعلمها أن هؤلاء التركمان[٣] المستولين على أعمال خراسان والرىّ لا يقصر خطاهم عن بلادها المحروسة إلا ثبات عساكرنا المنصورة فى وجوههم وانصراف

(١) هبة الله الشيرازى .

(٢) مندوب الخليفة الذى طلب من أبى كاليجار القبض على هبة الله .

(٣) السلاجقة .

همنا إلى قمعهم وفلّ غربهم ؛ وبذلنا الأموال فى كف عادياتهم ، وامتداد جيوشنا الموفورة لمقارعتهم أين نجموا وأين نبغوا » .

وهكذا كان البويهيون ، فى قوتهم وفى ضعفهم على السواء ، شيعيين عاملين رغم سنية الخلفاء الذين كانوا يستمدون منهم سلطانهم ويحكمون البلاد باسمهم . وكان هذا الاتجاه الشيعى عاملا من عوامل إثارة القلق والاضطراب فى الإقليم العراقى حيث استقرت الخلافة العباسية ، وفى بغداد عاصمة هذه الخلافة .

ثانيا : تفكك البيت البويهى :

بدأ النفوذ البويهى فى الدولة الإسلامية بتعاون ثلاثة إخوة شقوا طريقهم نحو بناء مجدهم من أدنى درجات الكفاح حتى وصلوا إلى أعلى مراتب السلطان والتسلط . فقد بدأ الإخوة الثلاثة ، على وأحمد والحسن ، حياتهم فقراء بؤساء ، فالتحقوا بجيوش بعض القادة العلويين فى الديلم ثم فى طبرستان جنودا يكدون من أجل رزقهم ، ثم دأبوا فى كفاحهم على تحسين مستواهم وتزايدت مطامحهم بتطور حياتهم العسكرية حتى انتهى أمرهم إلى خير ما يريدون ، إذ تمت لهم السيطرة على فارس بين بحر قزوين أو الخزر والمحيط الهندى شمالا وجنوبا ، وبين إقليم خراسان ونهر الفرات شرقا وغربا ؛ وشمل هذا التوسع بغداد عاصمة الخلافة العباسية التى دانت لهم واستسلمت لسيطرتهم . وإلى هذه المرحلة ظل هؤلاء الأقطاب الثلاثة متفاهمين متعاونين ، وقد توزعوا البلاد التى خضعت لهم فيما بينهم معترفين جميعا بحق الأخ الأكبر فى توجيه دفة الأمور وقيادتها ؛ فكان الأخ الأكبر على بن بويه ، عماد الدولة ، صاحب بلاد فارس جميعا ، والأمير المباشر على الجزء الجنوبى منها مما يجاور العراق ، وتولى الحسن بويه ، ركن الدولة ، بلاد الجبل والرى وبعض مناطق

طبرستان وما قرب منها ، أى تولى شئون الإقليم الشمالى من فارس الكبرى ؛ أما الأخ الأصغر أحمد بن بويه ، معز الدولة ، فقد خدم بتوجيه أخيه على فى منطقة الأهواز وواسط ، أى فى بلاد العراق ، حتى دخل أخيرا بغداد وتسلم الزمام من الأتراك ورفع أخويه فى ظل الخلافة ، وحصل لهما ، ولنفسه ، على ألقاب التشريف والتكريم ، ثم مكن لهما ، ولنفسه ، من خزائن الأرض ومن حكومة العباسيين .

ولكن أمر البويهيين لم يستقر طويلا إذ لم يلبث ورثة هؤلاء الإخوة الثلاثة أن تنازعوا على مناطق النفوذ وعلى أقاليم الخلافة العباسية بالعراق بصفة خاصة ، وبهذا بدأ النزاع ولم يكد يستقر لهم سلطان ، ولم تكد الخلافة والمسلمون يتمتعون بشيء من الهدوء والاطمئنان بعد الفوضى التى قاسوا منها الأمرين فى العصر السابق تحت سيطرة الأتراك . ومن أمثلة هذه المنازعات :

١ — تولى عز الدولة بختيار بن معز الدولة أحمد شئون العراق بعد وفاة والده سنة ٣٥٦ ، وانصرف إلى اللهو واللعب وتفرغ لملذاته الخاصة واشتغل بالوقيعة بين بعض رجاله وقادته وأعرض عن استشارة عمه ركن الدولة بعد أن كان والده قد أوصاه بذلك قبل وفاته . فساءت حال العراق فى عهده واضطربت الأمور ، وتطلع عضد الدولة ، ابن عمه ركن الدولة ، إلى ما فى يده فحرك جنود بختيار سراً ضده ثم أوحى إلى بختيار بأن يأخذ جنوده بالشدة حتى يكبح جماحهم . وبهذا تزايدت متاعب بختيار بسوء إدارته وبدسائس ابن عمه وبإعراضه عن الانتصاح برأى عمه . وعزلت الجنود فى العراق بختيار عن منصبه وتقدم عضد الدولة إلى بغداد وقبض عليه ، وكتب إلى ركن الدولة يوضح الموقف . ولكن ركن الدولة كتب إلى ابنه يؤنبه

على فعلته ويهدده ، فأعاده ، على أن يكون نائبا عنه فى العراق وعلى أن يخطب باسمه بها . ولم يلبث ركن الدولة أن توفى فعاد عضد الدولة إلى بغداد محاربا بختيار الذى فر أمام جيوش ابن عمه لاجئاً إلى الحمدانيين فآزروه ولكنه لم يلبث أن قتل على يد عضد الدولة ببغداد .

٢ — بعد وفاة عضد الدولة ، سنة ٣٧٢ ، وقع نزاع بين أولاده الثلاثة ، شرف الدولة وصمصام الدولة وبهاء الدولة ، على مكان الصدارة ، ومر هذا النزاع بمرحلتين . فنى المرحلة الأولى منهما تولى صمصام الدولة مكان والده فى بغداد أميراً للأمراء ، ورفض شرف الدولة صاحب شيراز وأصفهان والرىّ الاعتراف بإمارة أخيه الذى تمتع بتكريم الخليفة له ، ذلك أن الخليفة لقبه شمس الملة ، وخلع عليه الخلع السبع والعمامة السوداء ، وسُوّر وطُوّق وتُوّج ، وعقد له لواءان ، وحمل على فرس بمركب ذهب ، وقرئ عهده بتقليده الأمور فيما بلغت الدعوة العباسية من جميع الممالك ، وأقيمت له الدعوة وغيرت السكة . وبالإضافة إلى هذا كان شرف الدولة أكبر أولاد عضد الدولة ، ولكن قواد جيش أبيه هم الذين اختاروا صمصام الدولة ، فلم يرَ شرف الدولة أن يقر اختيارهم . ودارت مفاوضات بين الأخوين فى سبيل صلح لم يتم ، وتقدم صمصام الدولة بعد فترة ، نحو أخيه فى فارس ، رغم نصيحة أصحابه له بعدم السير إليه خوفا من أن يغدر شرف الدولة به ، وهناك حبسه شرف الدولة فى إحدى قلاع فارس وتقدم هو نحو بغداد . فتلقاه الخليفة الطائع وهنأه بالفتح والظفر ، وتوّجه وطوّقه وسوّره ، وكتب له عهدا ، وولاه ماوراء بابه ، وعقد له لواءين ولقبه شاهنشاه » ! .

وفى المرحلة الثانية ، بعد وفاة شرف الدولة ، تولى بهاء الدولة منصبه بالعراق ، بوصية شرف الدولة ، وتقدم إليه الخليفة الطائع معزيا ولقبه بهاء

الدولة وضياء الملة . وانتصر الأمير الجديد على عمه فخر الدولة ، الذى كان قد طمع فى العراق منذ أيام شرف الدولة ثم بلغ بهاء الدولة نبأ فرار أخيه صمصام الدولة من سجنه بفارس فجرد إليه جيشا التقى به عند شيراز ، عاصمة فارس، وكان النصر للصمصام ؛ وتم صلح بين الأخوين على أن يبقى الصمصام فى فارس والبهاء فى العراق . ولم يطل أمد هذا الصلح لرغبة بهاء الدولة فى الاستيلاء على فارس أيضا ؛ وطال النزاع بين الأخوين وانتهى بقتل صمصام الدولة سنة ٣٨٨ هـ .

٣ — أما أبو نصر الملك الرحيم (٤٤٠ — ٤٤٧) فقد تولى أمور العراق بعد وفاة أبيه ، أبى كاليجار عماد الدولة ؛ وكان للملك الرحيم سبعة إخوة اشتبكوا جميعا فى منازعات متداخلة حول السيطرة على بعض مدن فارس والعراق مثل شيراز والأهواز وإصطخر وواسط والبصرة ، وهو نزاع يخرج تفصيله عن الحدود التى رسمت لهذه الدراسة ، ولكن يكفينا منه أنه أدى إلى تفاقم الضعف فى بيت البويهيين وأتاح الفرصة للقوة الجديدة التى تقدمت من جهة خراسان ، وهى قوة السلاجقة الأتراك ، فى بسط نفوذها وسيطرتها على غربى فارس ، ثم دعا الخليفة القائم بأمر الله هؤلاء السلاجقة لدخول بغداد وأمر خطباء المساجد فى العاصمة بالخطبة لزعيمهم طغرل بك الذى دخل المدينة وقبض على الملك الرحيم آخر سلاطين بنى بويه ، فانتهى بهذا آخر أثر لحكمهم .

ثالثا : جيش البويهيين عامل من عوامل التفكك :

ساعد البويهيين على تكوين دولتهم بلاد الديلم أولا ثم بقية فارس الغربية أنصارهم من الديالمة والفرس . وعندما فكروا فى التقدم نحو العراق

ودخول بغداد كان قادة الأتراك فى بغداد قد ساءت حالهم فأرسلوا إلى البويهيين ، كما ذكرنا ، يدعونهم إلى دخول بغداد وأقر الخليفة هذه الخطوة . وبهذا أصبح الجيش البويهى متكوناً من عناصر فارسية وتركية إلى جانب بعض العرب والأكراد الذين التحقوا بخدمة الخلافة أو بجيش بنى بويه .

وعند ما استقر البويهيون فى بغداد ، أيام معز الدولة وبعده ، كان اعتمادهم الرئيسى بطبيعة الحال على جماعة الأتراك ، ذلك أن الديالمة خدموا الفروع الأخرى لدولة بنى بويه فى فارس وبلاد الديلم وما بينهما . ومنذ بدأ النزاع بين هذه الدويلات البويهية اضطر كل فرع منها ، وبخاصة فى العراق إلى الاعتماد على موارده الخاصة ، المادية والبشرية ؛ وبهذا كانت غالبية جيش العراق من الترك ، وغالبية جيش بويهى فارس بأقاليمها من الفرس والديلم بصفة خاصة .

وقد وزع معز الدولة أحمد بن بويه كثيرا من أقاليم العراق إقطاعا بين قادة جيشه ورجاله ، كما ذكرنا أيضاً ، وأناب هؤلاء عنهم عمالا يشرفون عليها فلم تلبث حالها أن ساءت وقل إنتاجها . وعجز معز الدولة عن الحصول على الأموال اللازمة له ، فمنح عددا آخر من رجاله الأتراك إقطاعات جديدة وزاد فى إقطاعات الأولين . وقد أدى تصرفه هذا إلى غضب جنده من الديلم الذين حسدوا الأتراك لحظوتهم عنده ، فثاروا ضد معز الدولة وكادوا يخلعونه ، ولكن أنصاره الأتراك نصروه ضد مواطنيه الديالمة ، فانتصر . وكافأ الأتراك بزيادة إقطاعاتهم مرة أخرى ، فنهبوا الأموال وخربوا البلاد ، وضعفت همة الفلاحين الذين يقومون بزرع الأرض وتنميتها .

وانصرف بختيار عز الدولة إلى ملذاته الخاصة فاحتاج إلى الكثير من الأموال ، فنفى بعض كبار قادة الديلم واستولى على إقطاعاتهم ، فثار ضده

صغارهم وطلبوا زيادة أرزاقهم ، فأجابهم إلى ما طلبوا ، فاقتدى الأتراك بهم في ثورتهم وفي مطالبهم فاضطر كذلك إلى إرضائهم .

وفي عهد بختيار هذا حدثت فتنة دينية بين السنة والشيعة في بغداد بسبب تعصب البويهيين للشيعة . وفي هذه الفتنة اتخذ الأتراك جانب السنة وساندوا أهلها في ثورتهم ، فاستغاث بختيار بابن عمه عضد الدولة ، الذي كان يطمع في العراق لنفسه ، فتظاهر بنصرته وأوعز إلى جند بختيار أن يشتدوا في ثورتهم ، كما أشار على بختيار بعدم الاستجابة لمطالبهم . وانتهت هذه الثورة بعزل بختيار ، عزله جنده ، وبولاية عضد الدولة شئون العراق على أساس أن يحسّن مستوى الجند وأن يزيد في أرزاقهم .

وفي عهد جلال الدولة ، ابن بهاء الدولة ، استمرت ثورات الجند واضطراباتهم ، وبخاصة جماعة الأتراك ، مطالبين بأرزاقهم التي لم يستطع جلال الدولة أن يدفعها عند استحقاقها لقلة ما لديه من الأموال . وقد حاول هؤلاء الأتراك نهب قرية كردية فخرج إليهم أهلها وصدوهم ؛ وحاول جلال الدولة الاستجابة لمطالب الخليفة بتسليم الجند الثائرين فعجز عن ذلك . وعندئذ أمر الخليفة القضاة بترك القضاء والشهود بترك الشهادة والعلماء بترك الفتوى ، أي أنه دعا رجال الدين إلى إضراب أو عصيان عام يحاول به إحراج جلال الدولة ، فلجأ هذا إلى الجند الثائرين فاستجابوا له وسلّموا إلى الخلافة ثم سعى في إطلاقهم فتم له ذلك . وكان عصر جلال الدولة كله فوضى واضطرابات أعجزته عن التغلب عليها لخروج جنده عليه وإشعالهم كثيراً من الفتن . وكان الخليفة ، على ضعفه وقلة حيلته ، يتدخل كثيراً محاولا الإصلاح بين السلطان وجنده معتمداً في هذا على الرأي العام وعلى بعض رجال القضاء والفتيا من العلماء .

ومن هذا كله يتبين مدى خطورة ثورات الجند على الدولة ، تلك الثورات التي شجع عليها تفكك وحدة الأسرة البويهية والتحزب الديني ، للشيعة من البويهيين وللسنة من قصر الخلافة ، كما ساعد عليها تعدد العناصر التي تكون منها الجيش وتنافسُ هذه العناصر ، واعتلاء الصبيان الصغار منصب إمرة الأمراء أو السلطنة البويهية .

° ° °

ولا عجب بعد هذا أن يعتبر عصر بني بويه امتدادا لعصر نفوذ الأتراك فقد توفرت فيه كل مظاهر الفوضى والاضطراب التي سادت في عصر نفوذ الأتراك ، وزادت مكانة الخلافة تدهورا وانحطاطا ، وتوزعت الأقاليم المختلفة إلى دول كبيرة وإلى دويلات صغيرة تركز كل منها حول مدينة كبيرة ، حتى إننا نجد الجزيرة الفراتية تتوزع بين ثلاث عائلات يستقل كل منها بما تحت يده ، هي أسرة العقيليين بالموصل ، وأسرة المرداسيين بالرّقة ، وأسرة المروانيين بديار بكر .

وقد حمل هذا التدهور المذلّ الخليفة العباسي القائم بأمر الله على التطلع إلى منقذ للدولة والخلافة من هذه الحال السيئة ، فكان هذا المنقذ جماعة السلاجقة الأتراك الذين دخلوا بغداد سنة ٤٤٧ هـ بادئين مرحلة جديدة من مراحل تاريخها .

الفصل الحادي عشر

السلاجقة والعباسيون

نشأة السلاجقة وقدومهم إلى فارس :

لقد كان لقدوم السلاجقة إلى بلاد الإسلام تأثيره الكبير فى تغيير اتجاه السياسة الإسلامية فى أراضى الخلافة العباسية ، كما كانت له نتائجه فى النشاط العلمى ، وفى التغييرات الإدارية والاجتماعية بدرجات متفاوتة فى الأهمية .

وفى الفترة التى ظهر فيها السلاجقة كانت السيطرة فى الأطراف الشرقية للدولة العباسية موزعة بين أسرات متعددة مستقلة إلى حد كبير فى سياستها ونظمها عن سياسة الخلافة ونظمها ، وكانت الخلافة نفسها خاضعة لأسرة البويهيين الذين تفكك رباطهم وضعف سلطانهم ؛ فكان من المتوقع حدوث تغيير ما فى الحالة العامة ، إما فى داخل مركز الدولة — أى فى بغداد والعراق بصفة خاصة — وإما من خارج هذا المركز ، أى من الأطراف التى تحس فى نفسها قدرة على السيطرة على زمام الموقف .

ومن بين القوى المهمة فى هذه الأطراف كانت قوة السامانيين فى بلاد ماوراء النهر وفى خراسان ، وقوة الغزنويين فى مرتفعات الأفغان وفى خراسان فيما بعد . ولكن هاتين القوتين كانتا متنافستين ، وكان عمال ولاياتهما المتقاربة يشتركون بنصيب كبير فى الاضطرابات المتعددة التى كانت تنشأ على منطقة حدود فى أول الأمر أو على رعاية قافلة تجارية ، ثم لا تلبث أن تكبر وتتسع حتى تشترك فيها الإمارتان بقوات كبيرة والحرب

طويلة أو قصيرة تنتهى دائماً بصلح يرضى الطرف القوى مدة تنتهى بنشوب نزاع جديد . وكان للأسرات المحلية أمل كبير فى هذه الصور المتعددة للنزاع علّها تنتهى بتحقيق مطمح لهذه الأسر كما حدث للزياديين الذين استفادوا ونجحوا فى تأسيس دويلة صغيرة فى الرى وأصفهان .

وفى هذه الظروف حدث نزاع كبير فى بلاد التركستان ، التى تقع شرقى البلاد الإسلامية ، انتهى برحيل أسرة كبيرة من أسر الأتراك إلى بلاد خراسان فى شكل هجرة كبيرة . وقد قيل إن سبب هذا النزاع أن ملك التركستان أراد أن يغير على الأراضى الإسلامية فعارضه زعيم هذه الأسرة — وكان اسمه سلجوق — فغضب الملك ، وخشيت الأسرة غضبه فهاجرت إلى ناحية خراسان . وقيل إن ملكة التركستان وجدت نفوذ سلجوق فى الدولة يتزايد وأنصاره يتكاثرون ، فسعت لدى زوجها كى يعجل بالخلاص منه ، ولكن سلجوق علم بهذا فقاد قومه فى هجرته إلى خراسان حيث استقر بهم مدة فى بلدة تسمى « جند » .

وأيا كان الداعى إلى هذه الهجرة فقد حدثت فى أوائل القرن الخامس الهجرى بزعامة سلجوق ، ثم أدت فى النهاية إلى التغيرات العظيمة التى تمت على أيدى زعمائها فى البلاد العباسية ، ثم فيما بعد ، بطريق غير مباشرة ، فى البلاد التى كانت تخضع لحكم الفاطميين .

السلاجقة يجاهدون للاستقرار :

وفى « جند » توفى سلجوق بعد أن بلغ السابعة بعد المائة من عمره تاركا قيادة قبائله لأولاده ، موسى وميخائيل ويونس وأرسلان . وقد قتل ميخائيل فى النضال المحلى وتولى قيادة السلاجقة من بعده أولاده الذين

اضطروا إلى الهجرة إلى بخارى ببلاد ماوراء النهر ولـكنهم لم يستقروا بها. وبعد فترة من التجول غير المستقر عادوا مرة أخرى إلى «جند»، حيث ناصروا أحد رجال الدولة السامانية (على تجين) ضد «إيلك خان» الذى حاول فتح بخارى ففشل.

وتمكن محمود الغزنوى رئيس الدولة الغزنوية من إقرار سلطانه؛ ثم تقدم إلى بخارى ففتحها، وقبض على أرسلان بن سلجوق، وشتت جماعة السلاجقة فى خراسان وفى أصبهان ليضعف من قوتهم المتزايدة، تلك القوة التى استندت إلى تأييد السامانيين بعد أن نصرهم هؤلاء السلاجقة. وقد أساء رجال الغزنويين معاملة هؤلاء السلاجقة بعد أن تفرقت وحدتهم إلى حدّ ما، فاضطروا أخيراً إلى الهجرة فى جماعات ذهبت واحدة منها إلى آذربيجان حيث قاتلت عاملها، وتقدم باقى الجماعات نحو بخارى بزعامة طغرل بك وداود ثم ارتدت إلى خراسان ومنها إلى خوارزم، واستقرت أخيراً فى مرو، وهناك هاجمها مسعود السلطان الغزنوى فهزم، وألقيت الخطبة باسم داود السلجوقى الذى تلقب ملك الملوك، وكان هذا فى سنة ٤٣٢ هـ. ومن مرو امتد سلطان السلاجقة إلى الرى قريباً من بحر قزوين وإلى خوارزم. ومن هنا يبدأ تاريخ السلاجقة كقوة مؤثرة فى بلاد الخلافة العباسية.

السلاجقة ينقلون مركزهم إلى بغداد:

بعد أن استقر السلاجقة فى مرو وألقيت الخطبة باسم رئيسهم عملوا على توسيع نفوذهم حتى يتمكنوا من مقاومة القوى المعادية لهم. فسيطروا على بلاد كثيرة منها أقاليم خراسان والرى وأصفهان وهمذان بالإضافة إلى

بخارى ، أى أن سلطانهم امتد على بعض بلاد ما وراء النهر وبعض أراضى الغزنويين وبلاد الجبال ، ثم لم يلبثوا أن امتد نفوذهم إلى حدود العراق . وعندئذ أرسل الخليفة القائم إلى زعيمهم طغرل بك يستنصره ضد البساسيرى الذى عجزت الخلافة والبويهيون جميعاً عن مقاومته عندما خطب فى بغداد باسم المستنصر الفاطمى[١] . وكانت هذه الاستغاثة تشريفا للسلاجقة الذين استفادوا بها ، فأسرع زعيمهم إلى بغداد وأمر الخليفة بالدعاء له على المنابر، ودخل طغرل بك بغداد سنة ٤٤٧ هـ لإنقاذ الخلافة، واستقبله الخليفة القائم استقبالا عظيما وخاطبه بلقب ملك الشرق والغرب ؛ وكان هذا بدءاً لما يعرف فى التاريخ بعصر نفوذ السلاجقة . ومن بغداد امتد هذا النفوذ على الأراضى التى كانت خاضعة للخلافة العباسية بطريق مباشرة كما استطاعوا بقوة سلاحهم أن يبسطوا سلطانهم على الأقاليم العباسية الأخرى . وقد أدى هذا إلى تأسيس خمس إمارات سلجوقية كبيرة موزعة على أراضى العباسيين، وإن لم يتم هذا كله فى وقت واحد . وهذه الإمارات هى إمارة السلاجقة العظام ، وسلاجقة العراق ، وسلاجقة كرمان بوسط فارس وجنوبها ، وسلاجقة الروم بآسيا الصغرى وسلاجقة سوريا أو سلاجقة الشام[٢] .

الخلافة فى ظل السلاجقة :

رأينا أن طغرل بك جاء إلى بغداد ليخلص الخلافة من انقلاب عنيف

(١) البساسيرى قائد تركى للبويهيين طرده السلاجقة فاستغاث بالفاطميين الذين أمدوه بالسلاح والمال ، فدخل بغداد وخطب للفاطميين وأقام بها نحو سنة ، ٤٥٠ — ٤٥١ .

(٢) فى عهد طغرل بك تمت السيطرة على خراسان وخوارزم وجميع البلاد الفارسية ثم على دياربكر والموصل وبغداد . وسقطت آسيا الصغرى فى أيام ألب أرسلان ، وحوالى سنة ٤٨٥ هـ استولت اليمن وعدن أيضا وإن لم يظهر فيهما أثر كبير لحكم السلاجقة .

تزعمه البساسيرى وكاد يقضى به عليها لو لم يسرع السلاجقة إلى إجابة استغاثة القائم بأمر الله . وقد عاد طغرل بك إلى أصفهان التى اتخذها مقراً له بعد هزيمة البساسيرى ، ولكنه لم يلبث أن اضطر إلى مقاومة البساسيرى مرة أخرى بعد أن عاونه أحد أمراء السلاجقة الطموحين — ابراهيم ينال — ضد الخلافة . وقد نجح طغرل بك مرة أخرى وأعاد الخليفة إلى عاصمته فى احترام شديد . والواقع أن هذا الاحترام الروحى الذى أظهره طغرل بك كان شعوراً عاما بين السلاجقة الذين كانوا يعتقدون أن من حق الخلافة على عامة الشعب أن يستجيب لها عند الملمات وأن يعلن لها الطاعة والولاء . وقد كان هذا الشعور سائداً وظاهراً فى فترة قوة السلاجقة وفى شباب ملكهم ، وهى ظاهرة لا نجدها فى أقربائهم من الأتراك الذين سبقوهم بقرنين تقريباً فى حكم المسلمين عندما بدأ المأمون والمعتصم فى استخدامهم فى الدولة ، كما أننا لا نجدها فى عهد قوة البويهيين، فالأولون نكلوا بالخلفاء ومن أولهم المتوكل ، والأخيرون حاولوا فى أول فترة نفوذهم أن يستبدلوا بالعباسيين العلويين لولم يحملهم نصحاؤهم على طرح هذه الفكرة .

ولكن هذا الاحترام لم يحل دون انتشار نفوذ سلاطين السلاجقة حتى فى قصور الخلفاء فى الأمور المادية . ومن أمثلة هذا ذلك الصدام السياسى الذى وقع بين وزير السلاجقة نظام الملك ووزير الخليفة القائم فخر الدين بن جهير ، ففى هذا الصدام السياسى اضطر الخليفة إلى عزل وزيره استجابة لرغبة السلاجقة . وعندما حاول المسترشد بالله أن يستعيد النفوذ الكامل للخلافة فى الأمور المدنية وقاوم السلطان السلجوقى بالقوة الحربية وجدنا هذا السلطان يوجه جيشا عظيما لحرب المسترشد الذى تراجع بانتظام عن تحقيق

هدفه . وفيما عدا هذه المظاهر نجد السلاجقة — فى الجملة — يحترمون الخلافة ويوقرون الخلفاء والرؤساء الروحيين للدولة .

الوزارة السلجوقية :

كان للوزارة فى عهد السلاجقة أهمية كبيرة ، وقد تبين من الفقرة السابقة أنه كان هناك ازدواج فى هذا المنصب فى عهدهم ، فللسلطان وزيره وللخليفة وزيره ، كما اتضح أن وزير السلطان كان من الناحية الإدارية أقوى نفوذاً من وزير الخليفة ، اللهم إلا فى بغداد وما يخضع لها بطريق مباشرة من أراضى العراق . ومن أهم وزراء هذا العهد الذين استند السلاجقة إلى خبرتهم وحكمتهم نظام الملك الذى ولى وزارة ألب أرسلان ومن بعده وزارة ابنه ملك شاه أعظم سلاطين السلاجقة . وقد سيطر نظام الملك بصفة عامة على الشئون السياسية والإدارية والمالية بينما ترك للسلطان قيادة الجيوش التركية المحاربة فى المعارك التى انتهت دائماً بازدياد اتساع رقعة البلاد الخاضعة للسلاجقة[1] . ومع هذا فقد اشترك نظام الملك أحياناً فى بعض المعارك الحربية مع السلطان كما أنه قاد حملة مستقلة استعاد بها مدينة « إصطخر » سنة ٤٥٩ هـ .

ومن الاتجاهات الهامة التى ظهرت فيها حكمة نظام الملك ما قام به نحو مشكلة التركمان (جماعة الجنود الترك المحاربين) فقد كانوا — ككل عنصر بدوى — غير قادرين على الاستقرار فى حياة مدنية هادئة ، وكان من

---

(١) بدأ السلاجقة مرحلة جديدة من مراحل التوسع الإسلامى ، فى اتجاه آسيا الصغرى بصفة خاصة ، وقد كان هذا التوسع أحد الأسباب المباشرة فى بدء الحملات الصليبية التى سنتحدث عن أولاها فى الفصل التالى .

صفاتهم المميزة البداوة والجهل والقسوة وحب الحرب . وقوم هذه حالهم تصعب السيطرة عليهم كما يتعذر الاستغناء عنهم ، وبخاصة بعد الخدمات التى قدموها للسلاجقة . وقد عالج نظام الملك مشكلتهم بسياسة ذات شقين : فجمع ألفاً من شبابهم الصغار وألحقهم بخدمة القصر ضمن مجموعة الغلمان ، ونشّأهم على وسائل الحياة المدنية المترفة حتى أيقنوا أن فى بقاء هذا النوع من الحياة الراقية صلاحهم ورفاهيتهم ، وفى بقاء قصر السلطان فى هذه الصورة ضرورة لوجودهم ، فاقتنعوا بحياتهم المنظمة المستقرة . وقد تبع هؤلاء الألف آلاف أخرى ، فظهر جيل من التركمان يرغب عن حيـــاة البداوة إلى حياة الهدوء والحضارة. والشق الثانى لسياسة نظام الملك مع هؤلاء الأتراك يتركز فى نظام الإقطاع ؛ ذلك أنه صار يمنح رجالهم — وبخاصة الرؤساء منهم — الإقطاعات الزراعية وغيرها لاستثمارها بدلا من المرتبات الثابتة أو كجزء منها . وكان على صاحب الإقطاع أن يعمل قدر طاقته على زيادة الإنتاج فى إقطاعه ، كما كان عليه أن يحفظ الأمن فى منطقته والنظام بين رجاله ؛ وكان مسئولا عن هذا كله أمام السلطان مباشرة . وكان رؤساء الإقطاعات الكبيرة يلقبون بلقب « أتابك » (أى الأمير القائد) ، فإذا فشل الأتابك فى تأدية واجبه وجد زميلا آخر من الأتابكة سائراً إليه بأمر السلطان يخضع إقليمه ويعيد النظام فيه ؛ فإذا تفاقم الخطر سار السلطان بنفسه للسيطرة على الموقف. ولهذا اجتهد الأتابكة قدر طاقتهم ، للاحتفاظ بإقطاعاتهم ، فى إخضاع رجالهم المحاربين بطبيعتهم ، وفى محاولة تعويدهم على الحياة الحضرية المستقرة . وبالإضافة إلى هذين الاتجاهين كان السلطان السلجوقى يوجه رجاله من وقت إلى آخر فى حملات حربية ضد بلاد التركستان

أو فى أرمينيا وآسيا الصغرى أو ضد البيزنطيين ، فكانت هذه وسيلة ثالثة لإشباع رغبة التركمان فى الحرب وفى الاعتداء ، وقد استفادت منها الدولة بطبيعة الحال فى توسيع رقعتها وفى إقرار الأمن بنواحيها المختلفة .

ومن المشكلات التى واجهت نظام الملك العناد الذى ظهر من ألب أرسلان فى تقريره إلغاء وظيفة « صاحب الخبر » ، وهى الوظيفة التى كانت الأخبار تأتى عن طريقها من جميع نواحى الدولة إلى مقر السلطنة ، وفى إلغاء وظيفة الحاجب ، وفى تخفيض رجال الحرس الخاص .

وقد علل ألب أرسلان سياسته نحو إلغاء وظيفة صاحب الخبر بقوله : « إذا عينت صاحب خبر فإن أصدقائى المخلصين الذين يتمتعون بقربى وصداقتى لن يهتموا به ، ولن يقدموا له الرشا [جمع رشوة] واثقين من مكانتهم عندى معتمدين على صداقتهم لى وقربهم منى ؛ ومن جهة أخرى أولئك الذين يعارضوننى ويعادوننى سيحاولون مصادقته وسيقدمون له الأموال . وهكذا سيجتهد صاحب الخبر فى أن يقدم لى دائما الأخبار السيئة عن أصدقائى وأنصارى ، والتقارير الطيبة عن أعدائى ومُنافِسىّ ؛ والكلمات الطيبة والسيئة كالسهام إذا أطلقت منها مجموعة فإن واحداً منها سيصيب الهدف . وهكذا سيتناقص حبى لأصدقائى كل يوم بقدر تزايد عطفى على أعدائى ، فيتقدم هؤلاء ويتباعد أولئك حتى يحتل أعدائى مكانة أصدقائى . وعندئذ لن يتمكن أحد من إصلاح الضرر الذى ينتج عن هذا الخطأ » .

وقد عالج نظام الملك الوزير هذا النقص الذى نتج من إلغاء نظام المخابرات بوسائل أخرى منها : أنه نظم زيارات رسمية دورية يقوم بها الأتابكة والولاة لمقر السلطنة ليقدموا تقريراتهم ويجددوا ولاءهم ، وفى خلال هذه الزيارات يحاول نظام الملك ورجاله ورجال القصر السلطانى التأكد من

إخلاص هؤلاء الولاة والأتابكة. وكذلك عمل نظام الملك على إشعار الولاة المختلفين بأن جيش السلطان قوى وسريع وحازم دائما فى إخماد كل حركة يقصد بها الثورة أو الخروج على السلطنة . وإلى جانب هذا اختار نظام الملك عدداً موثوقا به من بيت السلطنة وعينهم فى مناصب الأتابكة وفى الولايات المختلفة .

النزاع بين السنة والشيعة وتأثيره على السلاجقة :

حينما دخل السلاجقة إلى البلاد الإسلامية تمذهبوا بالمذهب السنى فحملهم هذا على مقاومة الشيعة وحركاتهم . ولذلك عندما ظهر الحسن الصباح وأحمد ابن عطاش فى فارس يدعوان للاسماعيلية اجتهد السلاجقة فى حربهما . وقد نجح الاسماعيلية فى الاستيلاء على قلعة « ألَمُوت[1] » والتحصن بها كما استولوا على بعض القلاع الأخرى واتخذوها حصونا لهم ولأتباعهم، فأصبحوا خطراً شديداً على السلطنة السلجوقية وبخاصة بعد أن اتبعوا أسلوبهم القديم أسلوب الغدر والاغتيال ، وقد تمكنوا باتباع هذا الأسلوب من قتل نظام الملك الذى كان قد وجه إليهم جيوشاً عظيمة لفتح قلاعهم والقضاء على تجمعاتهم . وبعد مقتل نظام الملك واصل الاسماعيلية هذا الأسلوب فى القضاء على بعض رجالات الدولة السلجوقية[2] .

ومما زاد خطورة هذا الفريق أن الدولة السلجوقية كانت قد بدأت تعانى من التفكك الداخلى فى أسرة سلجوق بسبب نظام السلطنة الوراثية الذى اتبعوه خارجين على مبدئهم القديم الذى كانوا يعملون به قبل قدومهم إلى

(١) فى الجنوب الغربى لبحر قزوين .

(٢) هناك رواية أخرى عن مقتل نظام الملك تعزو السبب فى قتله إلى غيرة السلطان السلجوقى ملكشاه من تزايد نفوذه .

بلاد العباسيين من تولية أسنّ زعمائهم رئاستهم . ولهذا لم يتمكن السلاجقة من استئصال جـــذور الاسماعيليين ، وإن كانوا قد نجحوا إلى حد كبير فى التخفيف من آثارهم وفى تقليم أظفار حركتهم .

ونلاحظ كذلك أن السلاجقة خلفوا البويهيين فى بلاد الخلافة العباسية، وأن هؤلاء كانو شيعيين متغلبين كما أنهم حاولوا أن يخلعوا العباسيين وأن يستبدلوا بهم العلويين . كما نلاحظ أن السبب المباشر لدخول السلاجقة إلى بغداد كان ثورة البساسيرى الذى نجح فى إعلان الفاطميين خلفاء فى بغداد ، فقضى السلاجقة على حركته حتى بعد أن ثار مرة أخرى بالتعاون مع أحد زعمائهم (إبراهيم ينال)، وبعدهذا بدأ السلاجقة فى التفكير فى السير إلى مصر للقضاء على الفاطميين ، ومهدوا لهذا باستيلائهم على سوريا وعلى معظم أراضى فلسطين .

كل هذا يؤكد اهتمام السلاجقة بالمذهب السنى الذى كانوا يدينون به عن عقيدة ، والذى نجحوا إلى حد كبير فى نشره وإعادة نفوذه ، حيثما اتجهت جيوشهم ، وأينما امتدت سيطرتهم .

السلاجقة والفرس :

لم يؤد دخول السلاجقة إلى فارس إلى صبغها بالصبغة التركية لأن الميزات الفارسية استطاعت أن تتغلب دائما على العناصر الأجنبية الغازية ، وقد كان هذا موقف الفرس من العرب حينما غزوا بلادهم قبل ذلك ، فقد تركت الحضارة الفارسية طابعها البارز فى العرب من حيث مظاهر الحياة اليومية والسياسية والأدبية والعلمية .

والحضارة الإسلامية الفارسية التى بدأت تكون شخصيتها المستقلة من

قبل فى عهدى الصفاريين والسامانيين واصلت تطورها ونموها فى ظل السلاجقة الذين استفادوا بها وبرجالها ثم نشروها فى المناطق التى امتد سلطانهم إليها . ومدرسة نظام الملك فى نيسابور جعلت منها مدينة زاهرة تنافس بغداد فى مكانتها كمركز للثقافة والأدب والنشاط العلمى الدينى . وفى فارس السلجوقية بصفة عامة ظهر كثير من الصوفية والفلاسفة والعلماء نجد منهم ابن الشيرازى والغزالى وعمر الخيام ونظام الملك وغيرهم من أقطاب الحضارة والعلم .

أسباب سقوط السلاجقة :

لن نتحدث هنا بتفصيل عن هذه الأسباب ، فمعظمها يرجع إلى ما أصاب الدولة من تفكك منذ عصر النفوذ التركى الأول ، ولكننا سنذكر من هذه الأسباب ، باختصار ، ما نعتبره جديداً فى هذا العهد السلجوقى . ومن هذه الأسباب : —

١ — لجأ نظام الملك بصفة خاصـــة إلى تعميم نظام الإقطاعات والأتابكيات وأسند معظمها إلى شخصيات من الأسرة السلجوقية نفسها ، فأدى هذا بالتدريج إلى عكس الهدف الذى كان يرمى إليه نظام الملك ؛ إذ انفصلت هذه الأتابكيات عن السلطنة مكونة إمارات صغيرة . فتفككت وحدة السلاجقة وتوزعت الدولة بين أمرائها .

٢ — وساعد على هذا عدول السلاجقة عن النظام الذى كانوا يتبعونه فى اختيار الزعيم قبيل اتصالهم بالإسلام إلى نظام آخر لم يكن الأتراك البدو يعترفون به من قبل ، ولم يرض عنه الزعماء المختلفون الذين لم يتخلصوا من تقاليدهم القديمة . وقد تركز النظام الجديد فى مبدأ الزعامة الوراثية .

٣ — حركات الاسماعيلية بزعامة الحسن الصباح وأحمد بن عطاش بصفة خاصة استنفدت قوة كبيرة من السلاجقة كان من الممكن استخدامها فى تقوية سلطانهم وفى إعادة النفوذ على الإقطاعات الخارجة على السلطنة .

٤ — بدء الحركات الصليبية ضد الأراضى السورية والفلسطينية فى الفترة التى ازداد فيها تفكك الأسرة السلجوقية. وقد قضت هذه الحركات على ما بقى من نفوذ للسلاجقة فى الأراضى الشامية وفى الجزيرة العراقية وفى آسيا الصغرى .

بعض المظاهر الرئيسية للعصر السلجوقى :

أولا : كان عصر السلاجقة عصر الإقطاعات الحربية التى كان لها آثارها النافعة والضارة على السواء فى الدولة كوحدة متماسكة .

ثانياً : كان المذهب السنى صاحب النفوذ فى ظل دولتهم واستفاد هذا المذهب من المدارس والمؤلفات ومن القوة السلجوقية. ولكن هذا لم يمنع المذاهب الشيعية من التطور والنجاح فى نشر مبادئها بين العناصر الفارسية المستعدة بطبيعتها لتقبل هذه المبادئ.

ثالثا : فى ظل السلاجقة توحدت الدولة الإسلامية الخاضعة للنفوذ العباسى تحت راية واحدة وبخاصة فى أيام طغرل بك ، وألب أرسلان ، وملك شاه ، وهم أول السلاطين السلاجقة وأعظمهم .

رابعا : كان عصر السلاجقة عصر ازدهار للحضارة القومية التى بدأت فى عهدى الصفاريين والسامانيين ونمت وترعرعت فى ظل السلاجقة .

خامساً : استعادت الخلافة كثيراً من مظاهر نفوذها الذى كانت قد فقدته

فى عصرى الأتراك والبويهيين ، وإن لم تعد إلى ما كانت عليه فى القرن الأول العباسى .

سادساً : حدثت محاولة قوية لإعادة تنظيم الجهاز الحكومى والإدارى أيام وزارة نظام الملك الذى فكر فى هذا التنظيم ونفذه إلى حد كبير فى فترة وزارته . وقد استفادت الدولة منه كما أصيبت بالضرر عندما أسىء تطبيقه .

* * *

وكان لنشاط السلاجقة فى منطقتى أرمينيا وآسيا الصغرى أثر مباشر فى إثارة أوربا ، بعد استغاثة الامبراطورية البيزنطية بها ، فبدأت أوربا التفكير فى الاتجاه نحو الشرق استجابة لاستغاثة بيزنطة ومحاولة لعلاج مشكلات الكنيسة الكاثوليكية والسلطات المدنية الإقطاعية فى أوربا . ثم تحول هذا التفكير إلى سلسلة من الحملات الحربية التى اشتعل أهمها فى عهد الخلافة العباسية . وسنكتفى من هذه الحملات بالحديث عن الحملة الأولى التى انتهت إلى إقامة إمارات صليبية فى قلب الدولة الإسلامية .

◉ ◉ ◉

الفصل الثانى عشر

الحرب الصليبية الأولى

كانت البلاد الإسلامية فى مصر والعراق وسوريا تمر بفترة من القلق والاضطراب والفوضى قبيل الحملة الأولى . فالخلافة ضعيفة فى مصر ومنافستها عاجزة فى بغداد . فى العراق وفارس سلطة سلجرقية تركية متنازعة يناضل رجالها فى سبيل الكلمة العليا ، ولا تكاد تنتهى معركة حتى تنشب غيرها ؛ وفى مصر وزارة متحكمة فى الخلافة ولكنها ضعيفة السلطان على الدوام ، يتنازع فيها الأرمن ضد الترك وهؤلاء وأولئك ضد العرب أو السودان؛ والاستقرار أمل بعيد تستدعيه الظروف ولكن ليس إليه من سبيل .

وسوريا بين المطرقة والسندان لا هى تحت سيطرة بغداد ولا هى فى رعاية القاهرة ، يتنازع فيها الأتابكة والأمراء المحليون على النفوذ والسلطان . فإذا وجد فى هذه الظروف متحفز قوى أو عدو شديد البأس سهل عليه ان ينتهز الفرصة ويغتنم الظروف فيصيب الدولة الإسلامية المتفككة المتداعية فى أشد أجزائها حساسية وأكثرها تعرضا للخطر وأقربها منالا . وقد وجد هذا العدو المخوف فى شكل الموجة الصليبية الأولى ، وكانت الضربة شديدة قاصمة أصابت هذا الجزء الحساس القريب المنال ، سوريا وفلسطين ، وحجة العدو التى استند اليها هى إنقاذ الأراضى المقدسة بالشام مهد المسيحية وموطن القديسين من « الترك الكفرة المغتصبين » .

ويحسن أن نتعرض لهذا بشيء من التفصيل نفتتحه برأى لأحد المستشرقين من الإنجليز وهو الأستاذ « جب Gibb » عن أهم العوامل التى ساعدت على نجاح الحملة الصليبية الأولى إذ يقول :

« أما أن الحروب الصليبية الأولى مدينة إلى حد كبير فى نجاحها إلى ضعف المقاومة التى لاقتها لحقيقة يقبلها كل المؤرخين المحدثين . إن التعقد فى الحالة السياسية بسوريا فى نهاية القرن الحادى عشر وفى العقود الأولى من القرن الثانى عشر[١] كان عنصرا هاما فى تاريخ الصليبيات . والواقع أن النجاح الذى أصابته الحملة الصليبية الأولى لم تدركه أية حملة أخرى جاءت بعدها إذ أنها تمكنت من فتح الأراضى المقدسة وتأسيس أربع إمارات لاتينية فى القدس وطرابلس وأنطاكية والرها » .

ويقول مؤرخ آخر هو « ستانلى لين بول Stanley Lane-Poole »

« لو تقدم الزمن قليلا بحملة الصليبيين الأولى لصدتهم قوة السلاجقة ، ولو تأخر بهم قليلا لكان من المحتمل أن يلتقى بهم زنكى أو نور الدين فى البحر الذى جاءوا منه . ولكنها كانت فترة من الفترات السعيدة للأوربيين أن قرروا السير إلى الأراضى المقدسة فى هذه الفترة التى اضطرب فيها النظام فى الدولة الإسلامية » .

وقد تمتع المسيحيون فى الشام بتسامح الحكومة الإسلامية منذ عصر الفتح الإسلامى : فقد سمح لهم عمر بن الخطاب بإقامة شعائر دينهم فى حرية ماداموا معاهدين خاضعين للدولة مؤدين ما عليهم من واجب مالى بدفع الجزية والخراج . وجاء هارون الرشيد فأكد هذه العلاقة السلمية بالهدايا التى تبادلها مع شارلمان الإمبراطور ، وباللقب الذى منحه له هارون وهو « حامى الأراضى المقدسة » .

(١) بالتاريخ الميلادى . وهما يقابلان أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس الهجريين .

ولكن الحاكم بأمر الله الفاطمي امتد بسلطانه المضطرب إلى كنيسة القيامة بالقدس فخربها. والمنصف يرى أن الحاكم لم يقصد إيذاء المسيحيين بهذه الاساءة، ولكنها فترة من فترات اضطرابه التي عانى منها المسلمون والمسيحيون واليهود كل بدوره. ولكن هذا الحادث استغل فى أوربا استغلالا خاصا بتوجيه النظر إلى الشرق، يدل على هذا أن علاقة بيزنطة — وهى الدولة الرومانية الشرقية — بالدولة الإسلامية كانت علاقة نزاع متقطع، على حين كان النزاع بينها وبين الدولة الرومانية الغربية، المتأثرة إلى حدّ ما بنفوذ البابا، يتطور من شدة إلى شدة. وهذا يحمل على الحذر فى إيجاد رابط قوى بين استنجاد بيزنطة بأوربا وبين سير الحملة الصليبية الأولى فعلا إلى الشرق، فالعلاقة بين القوتين المسيحيتين لم تكن لتبرر هذا الرباط القوى، ولكنها ظروف أوروبا، ومطامع كنيسة روما، التى تعاونت على توجيه الحملة، تلك الظروف التى عمل تطور الحوادث على تهيئتها حتى كانت الاستغاثة البيزنطية هى قشة الحطب التى تعلقت بها النملة فى الجدول الكبير لتصل بمساعدتها إلى اليابسة. كانت أوربا تعانى من نظام الإقطاع سواء فى ذلك أمراؤها وسوقتها: الأولون يقاسون الحروب المحلية ضد منافسيهم تلك الحروب التى كانت مجالا بين المدن المختلفه والإمارات المتطاحنة، بينما كان الشعب حطب هذه الحروب والمصطلى بنارها سواء فى ميدان القتال أم فى المجهود الزراعى والمالى. وانتشرت فى جميع أنحاء أوربا القلاع الحربية التى كان الأمراء يتحصنون فيها ضد أعدائهم لو اشتد هجومهم.

وقد أدى هذا إلى لجوء ذوى الملكيات الصغيرة إلى الإقطاعيين الكبار طامعين فى الحياة، وإلى لجوء هؤلاء من جانبهم إلى تقسيم أراضيهم بين

المالكين الصغار ليضمنوا تأييدهم المالى والحربى والإنتاجى .

وقد كانت حالة الكنيسة مشبهة تماما لهذه الحالة : لجأت إلى الاحتماء بالامراء القادرين وقسمت أراضيها بين صغار الملاك . وكل هذا بطبعه تعميم مضطرب لنظام الإقطاع أدى إليه — كما أدى إلى — عدم الاستقرار وانتشار الفوضى والقلق بين الكبار والصغار مدنيين ودينيين على السواء . ولم يكن هذا هو كل ما عانته أوروبا فقد اضطرت إلى احتمال الضربات المتوالية من النورمان ، وهم عنصر محارب بطبيعته ، فى مناطق إيطاليا وسواحل إنجلترا وفرنسا . كما أنها كانت مهددة إلى حد كبير ولفترة طويلة بمضايقات البربر فى ألمانيا .

على أن الكنيسة استطاعت على طول الزمن الانتفاع بهذه الفوضى فى تأكيد سلطانها ، والفضل فى هذا يرجع إلى بعض الباباوات الذين مكنتهم شخصيتهم القوية من نفع الكنيسة ورفع شأنها فى الميدان السياسى ومن هؤلاء جريجورى السابع Gregory VII . وقد لقى بعض هؤلاء من أحد الأباطرة ، وهو هنرى الثالث تأييدا قويا إذ اختار للمناصب الدينية الشخصيات الواضحة القوة . والواقع أن تعاون هنرى الثالث مع البابا ليو التاسع Leo IX وسكرتيره، الذى أصبح فيما بعد جريجورى السابع ، كان أحد نقط التحول فى تاريخ العصور الوسطى إذ تمكن جريجورى للمرة الأولى من أن يجعل انتخاب البابا من حق الكرادلة بعد أن كان الإمبراطور هو الذى يعينه . وإلى جانب هذا أرسل جريجورى سفراء مقيمين لدى الإمبراطوز والملوك والأمراء لتمثيل الكنيسة ظاهريا ، ولكنهم كانوا فى الواقع جواسيس لها ومنفذين لسياستها . وطبيعى أن يكون هذا النزاع الخفى أحيانا والظاهر أحيانا أخرى حافلا بالمخاطرات، ولكن الكنيسة صمدت

فنجحت . وعندئذ حولت نظرها إلى كنيسة الشرق المركزية الخاضعة لبيزنطة تحاول السيطرة عليها أيضا لتكون الكلمة العليا لروما أو للبابا . وهنا يحسن أن نذكر النقط الآتية . وفى بعضها تلخيص لما سبق :—

أولا — لاقى المسيحيون بعض الصعوبات فى فترة خلافة الحاكم بأمر الله الفاطمى كما أنهم قاسوا بعض المتاعب فى عهد السلاجقة المتحمسين .

ثانيا — قاسى الحجاج المسيحيون بعض هذه المتاعب أيضا وعادوا إلى أوربا يقصّون أخبارها ويبالغون فيها .

ثالثا — ضعف سلطان الإمبراطورية الرومانية الشرقية فى آسيا الصغرى قبيل الحروب الصليبية الأولى لعوامل مختلفة ، منها نشاط السلاجقة .

رابعا — فى البحر المتوسط بصفة خاصة كان النشاط النورمانى قويا مما أدى إلى ضياع صقلية من أيدى المسلمين . كما أنه كانت هناك حروب أهلية مستمرة فى إفريقية الشمالية وإسبانيا المسلمتين أضعفت من قوتيهما .

خامسا — استفادت الكنيسة الأوربية من الفوضى التى شملت أوربا فى تقوية سلطانها ، وقد نجحت نجاحا عظيما فى تحقيق بعض أهدافها .

سادسا — استقر النورمان فى جنوبى إيطاليا وفى جزيرتى صقلية وسردانية وتأكد سلطانهم فيها ثم هاجموا شمالى إفريقية مهاجمات ناجحة .

فكرة الحروب الصليبية الأولى :

لقد كانت موقعة ملازجرد فى أرمينيا، سنة ٤٦٣هـ ، بين جنود السلاجقة بقيـــادة ألب أرسلان وجنود الإمبراطورية البيزنطية من المعارك الحاسمة . إذ أسرع ميشيل الثامن الإمبراطور بعد هزيمة جيوشه إلى

الاستغاثة بأوروبا ، وقد أرسلت هذه الاستغاثة إلى البابا جريجورى السابع كممثل أعلى للمسيحية الغربية . ورأى البابا فى هذه الاستغاثة فرصة طيبة لإخضاع الكنيسة الشرقية لروما ، ولتحقيق فكرته التى كان يدعو إليها ويعمل على تحقيقها وهى أن الملوك جميعاً ليسوا إلا خدما للكنيسة لها عليهم السلطان الأعلى .

ولكن جريجورى مات قبل أن يستطيع نجدة بيزنطة ، فجاءت استغاثة ثانية إلى « أربان الثانى Urban II » البابا الجديد . فدعا إلى اجتماع عام فى كليرمونت بفرنسا مثل فيه الأمراء والنبلاء وخطب فيه خطبته المشهورة فى تاريخ الحروب الصليبية ، تلك الخطبة التى توطعت مراراً بصيحة « إنها إرادة الرب » ، فأعلنها البابا شعاراً لهم فى ميدان المعركة ووضع على أذرعهم الصلبان . ومن هذا أخذت هذه الحروب اسمها الصليبى . وقد اشتملت خطبته على مبادئ وتوجيهات :

أولا — تخليص الأراضى المقدسة ومقبرة السيد المسيح من الكفرة الترك الغاصبين .

ثانيا — تخليص أراضى الامبراطورية البيزنطية « التى استولى عليها الترك وخربوها بالنار وقتلوا أهلها المسيحيين بالسيف » .

ثالثا — حث الأمراء على توسيع أملاكهم وغزو الشرق الغنى بدلا من التقاتل فى أراضيهم الفقيرة « التى يحوطها البحر وتحيطها الجبال . أما الأراضى التى ستفتحونها فستدر عليكم الخير والنعم » .

سير الحملة ونجاحها :

استجابت أوربا استجابة كبيرة لهذه الدعوى وأخذت تستعد للحرب ، وأمّل كل أمير ودوق فى أن يقتطع لنفسه جزءاً من الشرق الغنى يوسع به ملكه وقد يستغنى به عن أملاكه التى تجر عليه المتاعب فى أوربا . وخروج الأمير فى حملة تحمل الصليب كانت جديرة بأن تثير عاطفة الشعب نحو دينه وبأن تنسيه متاعبه التى لاقاها على يد أميره مادام هذا الأمير قد خرج للدفاع عن الدين . وبهذا خرجت جموع الأوربيين فى ظل اتحاد شامل ، وإن كان اتحاداً غير عميق الجذور ، وسارت الحملة على دفعات وفى طرقات مختلفة على أن يتقابل الجميع فى القسطنطينية سنة ١٠٩٧م ، ويقال إن عدد هؤلاء المحاربين بلغ ١٠٠ ألف فارس و ٦٠٠ ألف من المشاة . ولا يعنينا هنا ماحدث لهم فى أثناء السير إلى القسطنطينية عندما خرجت عليهم جموع من قطاع الطريق ، مما جعل الوصول إلى مكان اللقاء عملا حربيا شاقا فى بعض مراحله ، ولا ما حدث من نزاع بينهم وبين امبراطور بيزنطة بشأن سير الحملة ونشاطها ، وبخاصة عندما طلب من الأمراء أن يقسموا له على رد ممتلكات بيزنطة بعد استعادتها ؛ ولكن الذى يعنينا أنهم عبروا البحر إلى آسيا الصغرى سنة ١٠٩٨ بعد فترة انتظار وإعداد فى القسطنطينية ، فاكتسحوا قوات سلاجقة الروم (أو سلاجقة آسيا الصغرى) ، ثم بدأ نفر من الصليبيين بعد هذا الانتصار الأول فى العمل لكسب المغانم الفردية فتقدم البعض إلى « الرها » بقيادة « تنكرد » واستولوا عليها ، وتقدم آخرون إلى أنطاكية فقاومهم أميرها مقاومة عنيفة محاولا إطالة أمد الحرب حتى تصل الإمدادات من بغداد أو من الأمراء المحليين ، ولكنهم لم يتقدموا للغوث فسقطت

أنطاكية فى أيدى « بوهمند » ، وسارت جنود أخرى جنوباً فى اتجاه القدس — وكانت فاطمية فى ذلك العهد إذ استعادها الفاطميون من السلاجقة الذين انشقوا على أنفسهم — فلم تقاوم أكثر من خمسة أسابيع وتولاها « جودفرى » . وبهذا انهارت قوات الإمارات الإسلامية وتفرق شملها ، وسقطت بعد ذلك على فترات مختلفة عكا وطرابلس وصور وغيرها .

ملاحظات :

ونلاحظ قبيل هذه الحملة وفى أثنائها الظواهر الآتية :

أولا — بدأت الحملة وقوات الصليبيين متحدة وقوات المسلمين متفرقة بل ممزقة حتى ليمكن أن يقال إنه لم تكن لديهم قوة يعتد بها .

ثانيا — لم يدرك الأمراء المسلمون ، أو لم يريدوا أن يدركوا ، أهمية هذه الحملة ولم يتصوروا أنها كانت تنوى الاستقرار الأبدى بالشام .

ثالثا — كان وراء القوات الصليبية قوة روحية تسيطر على الشعب المقاتل وتملى إرادتها خلال هذه السيطرة على الأمراء ، وهى البابوية ، بينما كانت الخلافة ، سواء فى بغداد أم فى القاهرة ، عاجزة عجزاً تاما عن مواجهة الموقف .

رابعا — تعاون بعض الأمراء المسلمين الصغار مع الصليبيين فى سبيل غنائم محلية أو تحقيقاً لرغبة فى الانتقام من منافسيهم .

خامسا — اتفقت كلمة الشعب والأمراء الأوربيين ، الأولون بتأثير العاطفة الدينية أقدموا على الحرب ، والأخيرون بدافع دينى دنيوى تزعموها وساروا فيها . أما المسلمون فقد اختلفت أغراض أمرائهم وأغراض شعوبهم ، الأولون يريدون الكسب الوقتى المحلى ويحاربون من

أجله ويستخدمون الجنود المرتزقة ، بينما يئس الشعب من الخلاص بمساعدة أمثال هؤلاء الأمراء فكف عن مد يد العون إليهم .

سادسا — استطاع الصليبيون دائماً ، أن يتغلبوا على خلافاتهم الشخصية عند الخطر ، بينما واصل المسلمون تغذية هذه الخلافات بمطامعهم المتواصلة .

فلا عجب إذن أن ينجح الصليبيون إلى حد كبير فى هذه الحملة ، بل إن ما وصلوا إليه فيها لم تحققه أية حملة أخرى قاموا بها بعد ذلك حتى قضى المماليك نهائياً على سلطانهم فى الشام .

النتائج المباشرة للحملة :

أولا — تكونت أربع إمارات صليبية فى وسط الأراضى الإسلامية وهى القدس ، وطرابلس وأنطاكية ، والرها .

ثانيا — استطاعت بيزنطة أن تضم بعض أملاكها المفقودة ، وإن كانت لم ترض عن استقرار الأوربيين بالشام .

ثالثا — تقلص حكم الفاطميين عن معظم ممتلكاتهم فى سوريا وفلسطين .

رابعا — تيقظ الوعى الإسلامى واستجاب له بعض الأمراء مثل طغتكين ، مؤسس الدولة البورية فى دمشق .

خامسا — تفككت إلى حد ما حدة قوات الصليبين بعد تكون الإمارات الأربع وتنازع أمراؤهم بعضهم مع بعض .

الفصل الثالث عشر

نهاية عهد

لاحظنا أن من أبرز نواحي الحكم السلجوقي تعميم نظام الإقطاع في شكل منتظم بحيث أعطيت الأقاليم المختلفة لأمراء من البيت السلجوقي أو لقادة من قواد جيوشهم ؛ وقد عرف أصحاب هذه الإقطاعات باسم الأمراء الأتابكة .

ولاحظنا كذلك أن عدول السلاجقة عن نظامهم القبلي القديم في اختيار زعيم الجماعة إلى النظام الوراثي قد فكك وحدتهم ووزع كلمتهم .

وقد تعاون هذان العاملان : نظام الأتابكة الإقطاعيين ونظام وراثة الزعامة داخل البيت السلجوقي ، على ظهور حلقات متتابعة من المنازعات أدت إلى انقسام مستمر في داخل المجموعات المختلفة المسيطرة على أقاليم الدولة . ومن الممكن التمييز بين مجموعات خمسة رئيسية في البيت السلجوقي استقر كل منها ، بسبب هذه المنازعات ، في ناحية من نواحي الدولة . وهذه المجموعات هي :

(ا) مجموعة السلاجقة الكبرى أو السلاجقة العظام ؛ وقد تركز نفوذها في خراسان وفي الأجزاء الشمالية من فارس حتى بلاد الجزيرة شمالي العراق . واستمر نفوذ هذه المجموعة بين سنتي ٤٢٩ — ٥٢٢ هـ .

(ب) مجموعة سلاجقة كرمان في الجنوب الشرقي لفارس وفي جزء من

وسطها وقد عمّرت هذه مائة وخمسين سنة ، بين سنتى ٤٣٣ — ٥٦٣هـ .

(حـ) مجموعة سلاجقة بلاد الروم وقد استقرت فى بلاد الأناضول حيث امتد النفوذ الإسلامى الفعلى لأول مرة . وهذه المجموعة أطول مجموعات السلاجقة عمرا إذ أنها بدأت فى سنة ٤٧٠ هـ وبقيت بعد سقوط الخلافة العباسية ورغم ما اقتطعه الصليبيون والبيزنطيون من ممتلكاتها ، حتى سقطت فى سنة ٧٠٠ هـ .

(ى) مجموعة سلاجقة الشام أو سلاجقة سوريا . وقد ظهرت بعد أن نجح السلاجقة فى عهدهم الأول فى ضم بعض الأجزاء التى كانت خاضعة للفاطميين أو للبيزنطيين من بلاد الجزيرة والشام . وعاشت هذه المجموعة بين سنتى ٤٨٧ — ٥١١ هـ ، فكانت بذلك أقصر هذه المجموعات عمراً .

(هـ) مجموعة سلاجقة العراق . وقد سيطرت على العراق ثم مدت نفوذها إلى إقليم كردستان والجزيرة على حساب السلاجقة العظام ، وفى بلاد الشام كذلك ، إلى حد ما ، على حساب سلاجقة الشام . واستمرت هذه المجموعة فى السيطرة بين سنتى ٥١١ — ٥٩٠هـ .

ومن هذا يتبين أن العراق ، حيث استقرت الحكومة المركزية للخلافة العباسية ، تخلصت من سيطرة السلاجقة حول سنة ٥٩٠ هـ ، وكان السلاجقة قد دخلوها لأول مرة سنة ٤٤٧ هـ .

وكان تقلص حكم السلاجقة عن العراق ، بخاصة ، نتيجة مباشرة لتطبيق نظام الإقطاع ، ذلك أن ملوك خوارزم ، المعروفين باسم شاهات خوارزم ، وهم فى أصلهم من أتباع السلاجقة ، تولوا إقليم خوارزم بتعيين السلاجقة ، منذ سنة ٤٧٠ هـ ، ثم لم يلبثوا أن تزايد نفوذهم بالتدريج

حتى نجحوا فى القضاء نهائيا على مجموعة السلاجقة العظام أصحاب خراسان والرىّ وما حولها . وتزايد سلطان الخوارزميين حتى اشتبكوا فى حروب مستمرة مع السلاجقة ، وقتل السلطان علاء الدين محمد بن تكش السلطانَ السلجوقى الأخير طغرل بك الثانى ، سنة ٥٩٠ هـ ، وأرسل رأسه إلى الخليفة الناصر لدين الله ببغداد الذى أظهر سروره بالقضاء على نفوذ السلاجقة وأرسل الخلع والهدايا إلى علاء الدين الخوارزمى وأقره على جميع الأقاليم الشرقية .

ولكن الهدوء لم يعد إلى البلاد ، إذ ظن الخليفة أنه يستطيع أن يبسط سيطرته من بغداد مرة أخرى فى اتجاه الشرق ، وأطمعه فى هذا تخلصه من السيطرة المباشرة التى كان السلاجقة قد فرضوها على الخلافة ، متبعين فى ذلك طريقة من سبقهم من البويهيين ومن الأتراك الأوائل . ولكن قطب الدين بن علاء الدين ، وكان قد خلف أباه منذ سنة ٥٩٦ هـ فى خوارزم وما يتبعها ، أقدم على اتخاذ خطوة جريئة ، لم يقدم عليها أحد ممن سبقه ؛ إذ جمع مجلسا من العلماء والفقهاء واستصدر منهم فتوى بخلع الخليفة العباسى الناصر لدين الله . واتبع هذا بزحف عظيم فى اتجاه بغداد ألقى الرعب فى قلب الخليفة الناصر ، لولا أن حالت الظروف الجوية والطبيعية دون استمرار الزحف فعاد قطب الدين إلى خوارزم .

وعند هذه المرحلة من تاريخ الخلافة العباسية تذكر بعض مصادر التاريخ أن الخليفة الناصر لدين الله أراد أن يشغل شاه خوارزم عن العراق ، فالتجأ إلى المغول ، الذين كانوا قد بدءوا زحفهم من أواسط آسيا واتجهوا نحو بلاد ما وراء النهر ، يستعين بهم ضد ملك خوارزم ويوجههم إلى حربه .

وسواء صحت هذه الواقعة أم أعوزها البرهان ، فإن التقدم المغولى

كان أمراً واقعاً ونتيجة محتومة لتلاقى حدود المملكتين ، مملكة المغول ومملكة خوارزم ، عند بلاد ما وراء النهر . وقد حدث الاحتكاك بين الجانبين ثم بدأ تقدم الموجات البشرية الهائلة من أواسط آسيا ، ودخلت بخارى ٦١٦ھ ، وواصل جنكيزخان زحفه المخرب المدمر . ثم تتابع سقوط المعاقل الإسلامية واحداً بعد الآخر ، وتشابهت صور الحريق والدمار والقتل والإبادة فى الأمصار الإسلامية الزاهرة .

وفى سنة ٦٥٦ ھ استسلمت بغداد عاصمة الخلافة العباسية للملك هولاكو زعيم المغول . وقتل هولاكو آخر خليفة عباسى ، وهو المستعصم بالله ، عند باب من أبواب العاصمة الحزينة ، مع أكبر أبنائه وبعض خواصه ومعهم ستة من الخصيان . ودمرت بغداد تدميرا ولم يبق من سكانها الذين بلغوا يوما من الأيام نحو مليونين من الأنفس إلا نصف مليون ؛ واستمرت المذبحة قائمة بين جدرانها وفى وسط شوارعها نحو ستة أسابيع .

وتحولت العراق ، مقر الحكومة الإسلامية لخمسة قرون ، إلى ولاية من ولايات الإمبراطورية الفارسية الجديدة تحت سيطرة المغول ، وانقطعت صلة شرقىّ العالم الإسلامىّ بغربيّه .

وتعلقت الآمال بالدولة المصرية القوية ، دولة المماليك ، التى استطاعت أن توقف الزحف المغولى بانتصارها الحاسم فى موقعة عين جالوت سنة ٦٥٨ ھ ، ثم لم تلبث أن ردته عن الشام إلى داخل بلاد فارس . وأصبحت مصر والشام المتحدتين ، مركز الثقل ومحط الأنظار فى العالم الإسلامى . وبدأ بذلك عهد جديد فى تاريخ الإسلام وحضارته .

تعقيب

ولعلنا بعد هذه المحاولة فى دراسة تاريخ الدولة الإسلامية فى العصر العباسى نستطيع أن نبرز بعض الملاحظات العامة مستعينين فى هذا بما قدمناه فى الفصول السابقة .

وأول هذه الملاحظات يتعلق بالأساس الذى اعتمد عليه العباسيون فى الدعاية لفكرتهم ثم فى إقامة خلافتهم . فقد اشتمل هذا الأساس على الاعتراف بحق الفرس فى المساواة الكاملة بينهم وبين العرب فى الحقوق وفى الواجبات تصحيحا للأوضاع الظالمة التى سادت زمن خلافة الأمويين الذين اتهموا بأنهم آثروا العنصر العربى وأوجدوا أنواعا من الطبقية فى المجتمع الإسلامى : « ولقد كانت أموركم ترمضنا ونحن على فرشنا ، ويشتد علينا سوء سيرة بنى أمية فيكم ، وخرقهم بكم ، واستذلالهم لكم ، واستئثارهم بفيئكم وصدقاتكم ومغانمكم . . . » .

فماذا كانت نتيجة هذه السياسة ؟ لقد نجح الفرس فعلا فى تحسين مستواهم الاجتماعى فور إعلان الخلافة العباسية ، وعمل الخلفاء العباسيون لهذا حين قدموا رجالهم الفرس على نظرائهم من العرب فى مناصب الدولة وفى القصر وفى الجيش . ثم أدرك الخلفاء العباسيون بعد فترة غير طويلة خطر هذه السياسة على الخلافة والدولة جميعا فتخبطوا فى سياستهم ؛ فطورا يتتبعون بعض زعماء الفرس ليحدوا من نفوذهم ، أفرادا أو جماعات ، كما حدث مع أبى مسلم ، وابنى سهل ومع البرامكة ، وإن لم يقصدوا بهذا إلى تحسين علاقاتهم بالعرب ؛ وتارة يتيحون الفرصة للعرب كى يستعيدوا شيئا مما كان لهم من

نفوذ ، كما حدث زمنى الرشيد والأمين . ثم وجد العباسيون أن الخطر مازال ماثلا ، وأن النزاع بين الفرس والعرب مابرح متزايدا متفاقما فأرادوا إضعاف الفريقين واستخدموا الأتراك الذين انصرفوا إلى ملاذهم ومسراتهم ونجحوا فى تأكيد سلطانهم ، إلى أمد ، فى الدولة ، وفى بسط سيطرتهم على الخلافة . لقد زالت الطبقية حقا ، ولكن الشعب المسلم تحول إلى مجموعات عنصرية متنافرة لم تلبث بتناحرها وتنازعها أن حولت الدولة المتحدة إلى مزق مهلهلة فى ظل خلافة واهنة حائرة متخبطة فى تلمس الأنصار والأعوان .

ونلاحظ ثانياً أن سياسة الخلافة الأموية فى استقرارها وقوتها وثّقت صلة الخلافة بالدولة حتى أصبحتا شيئين متلازمين ، فالسيطرة الأموية كاملة على جميع أقاليم الدولة ، والولاة فى الأطراف البعيدة وفى الأقاليم القريبة على السواء ينفذون سياسة الحكومة المركزية ويخشون بأسها رغم ما تمتعوا به من استقلال ذاتى فى إدارة شئون أقاليمهم . وبهذا نستطيع أن ندّعى أنّ الخلافة الأموية كانت هى الدولة كما كانت الدولة هى الخلافة . ويختلف الحال عن هذا تمام الاختلاف فى عصر العباسيين الذين حاولوا فى عهدهم الأول أن يشدوا قبضتهم على الدولة فشهد هذا العصر الأول استقلال الأندلس والمغرب الأقصى والمغرب الأدنى واليمن وخراسان . ثم حاول العباسيون أن يسيطروا على رجالهم فى الجيش وفى الوزارة وفى القصر ، فتغلب هؤلاء على الخلافة ونكّلوا بالخلفاء عزلا وسجنا وقتلا وتعذيبا . لقد عجزت الخلافة عن الاحتفاظ بهيبتها والإبقاء على كرامتها ، وأصبحنا نرى بعض الجنود يدخلون على الخليفة ويضعون عمامته فى عنقه ويسحبونه فى الشوارع إلى دار السلطان البويهى الذى كانت له الكلمة العليا فى عصره ، ويدخل عدد

من الجند على خليفة آخر يناقشونه فى بعض شئونهم ويغضبون لتطور المناقشة تحولها عما يريدون ، فيجرون الخليفة من قصره ويوقفونه فى الشمس عارى القدمين ويتعاورونه بحرابهم حتى تنبثق جروحه الكثيرة بالدماء ، ثم يلقون به فى محبسه محروما من الطعام والشراب حتى يموت .

لقد أصبحت الدولة فى واد والخلافة فى واد آخر ، وانقطعت الصلة بين الأقاليم المختلفة بعد أن عجزت الحكومة المركزية عن إقرار سلطانها بطريقة ناجحة ، وبعد أن انصرف رجالها إلى منازعاتهم الداخلية فى سبيل السيطرة وبسط النفوذ ، أو فى سبيل هدف يقل عن هذا بكثير مثل جمع بعض الأموال أو الفوز بمنصب أو بإقطاع .

وثالث الملاحظات أن انصراف العباسيين ، منذ فجر خلافتهم ، إلى تتبع مراكز القوة فى الدولة لإضعافها حتى لاتكون خطرا على البيت العباسى أدّى إلى تركيز الجهود واستخدام الموارد والأموال فى جمع الأنصار وإرضائهم وفى اشتغال الخلفاء بالمشكلات الداخلية التى كانت سياستهم أحد العوامل الرئيسية فى خلقها . وقد أدّى هذا بدوره ، كما رأينا ، إلى توزّع الأقاليم المختلفة بين الولاة الطموحين أو الثائرين الخارجين ، كما أدى إلى تجميد حدود الدولة ، فى العصر الأول ، بالوضع الذى كانت عليه فى أواخر العصر الأموى . وقد اقتصر النشاط الحربىّ ، زمن العباسيين فى العصر الأول ، عند حدود الدولة على ماعرف باسم الصوائف والشواتى ، وهى الغارات المحلية التى تركز معظمها فى منطقة آسيا الصغرى . ثم لم تلبث هذه الحروب المحلّية أن وقعت على كواهل المتطوعة من المجاهدين المرابطين الذين حبسوا أنفسهم فى مناطق الثغور والعواصم على الجهاد فى سبيل الله وعلى التفرغ للدراسة والتعليم فى القلاع والحصون . ثم تطورت الأوضاع

إلى مرحلة جديدة عندما تكونت دويلات كاملة فى مناطق الثغور ، مثل دولة بنى حمدان ، التى قامت ، قدر طاقتها برد غارات الأعداء الذين أتاح لهم حال المسلمين فرصة التوغل فى بلاد الإسلام واقتطاع بعضها من جسم الدولة الإسلامية فى غيبة السيطرة القوية للعباسيين .

ونلاحظ فى أواخر عصر العباسيين ما أصاب الدولة من تدهور كامل انتهى بها إلى تعرضها لخطرين خارجيين عظيمين جاء أولهما من الغرب فى شكل الحملات الصليبية المتابعة التى بدأت بالاستقرار الناجح فى إقليم الجزيرة العراقية وفى الشام . وقد حرّك هذا الخطر الداهم الرأى العام المسلم فى هذه المنطقة الحسّاسة فثار ضد الخلافة وضد الولاة المحليين جميعاً ، ونعى على الخلافة عجزها وأنكر على الحكام انصرافهم إلى منازعاتهم الشخصية . وكان من مظاهر تعبير هؤلاء الثائرين عن سخطهم تظاهرهم فى مسجد السلطان ببغداد وتعطيلهم صلاة الجمعة وتحطيم المنبر وطرد الخطيب ، يقصدون بهذا أن يشعروا أولى الأمر بخطورة الأحوال . وكانت نتيجة هذه الثورة أن تكونت على فترة من الزمن تكتلات محليّة حول بعض الأمراء أخذت على عاتقها ، وبمجهودها ، مهمة مقاومة هذا الخطر الغربى غير منتظرة عوناً أو مساعدة من الخلافة العاجزة المتداعية . ومن أبرز هذه التكتلات جماعة النوريين وأسرة الأيوبيين . وقد قامتا بجهود عظيمة لجمع الكلمة وتوحيد الصفوف ثم لطرد الوافدين المغتصبين .

وثانى الخطرين ذلك القادم من الشرق فى شكل الموجات المغولية المدمرة التى انتهت بالقضاء على خلافة بنى العباس وحولت الأقاليم والشعوب

الإسلامية بين خراسان والعراق إلى أكوام من الحطام والخراب وإلى جماعات من المشردين البائسين .

* * *

وبعد ، فقد ادّعى العباسيون أنهم إنما جاءوا للإصلاح ، وإشاعة العدالة والمساواة ، والحكم بما أنزل الله ، والسّير فى العامة والخاصة بسيرة رسول الله ، بعد أن فشل الأمويون فى تحقيق هذه الأهداف . وأقل ما يمكن الحكم به على سياسة هؤلاء العباسيين أن التوفيق خانهم فتوزّعت الأمة أمما ، وتحولت الدّولة دُولا ، وتفرقت الكلمة «وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَراً مَقْدُوراً » .



اصفهان
فارس
كرمان
سجستان
مكران
بلاد العرب

الملحق الأول

الخلفاء العباسيون

ا ـ خلفاء العصر الأول

(١٣٢ — ٢٣٢ هـ)

---

١ — السفاح	١٣٢ — ١٣٦ هـ
٢ — المنصور	١٣٦ — ١٥٨ هـ
٣ — المهدى	١٥٨ — ١٦٩ هـ
٤ — الهادى	١٦٩ — ١٧ هـ
٥ — الرشيد	١٧٠ — ١٩٣ هـ
٦ — الأمين	١٩٣ — ١٩٨ هـ
٧ — المأمون	١٩٨ — ٢١٨ هـ
٨ — المعتصم	٢١٨ — ٢٢٧ هـ
٩ — الواثق	٢٢٧ — ٢٣٢ هـ

ب - خلفاء العصر الثاني

(عصر نفوذ الأتراك)

(٢٣٢ — ٣٣٤ هـ)

١ — المتوكل	٢٣٢ — ٢٤٧ هـ
٢ — المنتصر	٢٤٧ — ٢٤٨ هـ
٣ — المستعين	٢٤٨ — ٢٥١ هـ
٤ — المعتز	٢٥١ — ٢٥٥ هـ
٥ — المهتدى	٢٥٥ — ٢٥٦ هـ
٦ — المعتمد	٢٥٦ — ٢٧٩ هـ
٧ — المعتضد	٢٧٩ — ٢٨٩ هـ
٨ — المكتفى	٢٨٩ — ٢٩٥ هـ
٩ — المقتدر	٢٩٥ — ٣٢٠ هـ
١٠ — القاهر	٣٢٠ — ٣٢٢ هـ
١١ — الراضى	٣٢٢ — ٣٢٩ هـ
١٢ — المتقى	٣٢٩ — ٣٣٣ هـ
١٣ — المستكفى	٣٣٣ — ٣٣٤ هـ

(وقد شهد بدء عصر نفوذ البويهيين).

جـ - خلفاء العصر الثالث

(عصر نفوذ البويهين)

(٣٣٤ — ٤٤٧ هـ)

---

١ — المستكفى ٣٣٣ — ٣٣٤ هـ

(وقد شهد نهاية عصر نفوذ الأتراك)

٢ — المطيع ٣٣٤ — ٣٦٣ هـ

٣ — الطائع ٣٦٣ — ٣٨١ هـ

٤ — القادر ٣٨١ — ٤٢٢ هـ

٥ — القائم ٤٢٢ — ٤٤٧ هـ

(وقد شهد بدء عصر نفوذ السلاجقة).

د ـ خلفاء العصر الرابع

(عصر نفوذ السلاجقة)

(٤٤٧ — ٦٥٦ هـ)

---

١ ـ القائم	٤٢٢ — ٤٧٦ هـ
(وقد شهد نهاية عصر البويهيين)	
٢ ـ المقتدى	٤٧٦ — ٤٨٧ هـ
٣ ـ المستظهر	٤٨٧ — ٥١٢ هـ
٤ ـ المسترشد	٥١٢ — ٥٢٩ هـ
٥ ـ الراشد	٥٢٩ — ٥٣٠ هـ
٦ ـ المقتفى	٥٣٠ — ٥٥٥ هـ
٧ ـ المستنجد	٥٥٥ — ٥٦٦ هـ
٨ ـ المستضىء	٥٦٦ — ٥٧٥ هـ
٩ ـ الناصر	٥٧٥ — ٦٢٢ هـ
١٠ ـ الظاهر	٦٢٢ — ٦٢٣ هـ
١١ ـ المستنصر	٦٢٣ — ٦٤٠ هـ
١٢ ـ المستعصم	٦٤٠ — ٦٥٦ هـ

الملحق الثانى

بيان ببعض الأحداث فى عصر العباسيين

إعلان قيام الخلافة العباسية	١٣٢ هـ
أبو جعفر المنصور يتولى الخلافة	١٣٦ هـ
ثورة عبد الله بن على	١٣٦ هـ
هزيمة عبد الله بن على أمام جيوش أبى مسلم	١٣٦ هـ
مقتل أبى مسلم	١٣٧ هـ
عبد الرحمن الداخل يؤسس دولة أموية بقرطبة	١٣٨ هـ
ثورة الراوندية	١٤١ هـ
ثورة النفس الزكية بالحجاز ومصرع زعيمها	١٤٥ هـ
ثورة إبراهيم بن عبد الله ، أخى النفس الزكية ، بالبصرة ومصرع زعيمها	١٤٥ هـ
تأسيس بغداد	١٤٥ — ١٤٦ هـ
وفاة الإمام أبى حنيفة النعمان فى سجن المنصور	١٥٠ هـ
ثورة المقنع الخراسانى	١٦١ هـ
موقعة « فخ » واستشهاد الحسين بن على المثلث	١٦٩ هـ
ظهور حركة الأدارسة بالمغرب	١٧٢ هـ
ظهور دولة الأغالبة فى تونس	١٨٤ هـ
نكبة البرامكة	١٨٧ هـ
الحرب الأهلية بين الأمين والمأمون	١٨٤ — ١٩٨ هـ
بدء فتنة خلق القرآن	٢١٢ هـ

خلافة المعتصم وبدء عصر نفوذ الأتراك	٢١٨ هـ
تأسيس مدينة سر من رأى	٢٢١ هـ
نهاية ثورة بابك الخرمى	٢٢٣ هـ
تأسيس الدولة الطولونية فى مصر	٢٥٤ هـ
تأسيس الدولة الصفّارية فى فارس	٢٥٤ هـ
ثورة الزنج فى البصرة وجنوبىّ العراق	٢٥٥ — ٢٧٠ هـ
سقوط الدولة الطولونية	٢٩٢ هـ
سقوط دولة الأغالبة	٢٩٢ هـ
إعلان الخلافة الفاطمية بالمغرب	٢٩٧ هـ
عبد الرحمن الناصر يتخذ لقب « خليفة » بقرطبة	٣١٧ هـ
قيام الدولة الإخشيدية بمصر	٣٢٣ هـ
تأسيس منصب أمير الأمراء	٣٢٤ هـ
البويهيون يدخلون بغداد ويبدأ عهد سيطرتهم	٣٣٤ هـ
نهاية الدولة الإخشيدية بمصر	٣٥٨ هـ
الفاطميون يستولون على مصر ويبدءون تأسيس القاهرة	٣٥٨ هـ
السلاجقة يدخلون بغداد	٤٤٧ هـ
معركة ملاز جرد بين السلاجقة والروم	٤٦٣ هـ
بدء الحملات الصليبية	٤٨٩ هـ
سقوط بيت المقدس فى أيدى الصليبيين	٤٩٢ هـ

عماد الدين زنكى، رأس الأسرة الزنكية، يتولى الموصل ٥٢١ هـ
بدء حركة الإفاقة لإنقاذ البلاد الإسلامية من الصليبيين ٥٢١ هـ
وفاة عماد الدين زنكى ٥٤١ هـ
ولاية نور الدين محمود على حلب ٥٤١ هـ
بدء مسير جيوش نور الدين إلى مصر لتوحيدها مع
الشام والجزيرة ٥٥٩ هـ
نجاح جيوش نور الدين فى الاستقرار بمصر ٥٦٤ هـ
سقوط الخلافة الفاطمية فى مصر ٥٦٧ هـ
تأسيس الدولة الأيوبية ٥٦٧ هـ
معركة حطين وبدء حركة تحرير فلسطين واسترداد
بيت المقدس ٥٨٣ هـ
وفاة صلاح الدين ٥٨٩ هـ
الملك الكامل يسلم القدس للصليبيين ٦٢٦ هـ
سقوط الدولة الأيوبية فى مصر وقيام دولة المماليك ٦٤٨ هـ
سقوط بغداد فى أيدى المغول ونهاية الخلافة العباسية ٦٥٦ هـ

كشاف الموضوعات

تصويب

المرجو مراعاة التصويبات الآتية قبل الشروع فى قراءة الكتاب :

ص		س		مايراد إثباته
٤٢	:	٣	:	داود بن على
٤٢	:	٧	:	داود بن على
٦٥	:	٨	:	برسول ابى جعفر
٧٥	:	٤	:	الخلافة
٨٠	:	١٥	:	السيطرة على الخلافة
١١١	:	١٩	:	والاستعانة بهما
١٥٤	:	٤	:	َفدَ كاً
١٦٨	:	٢١	:	الحسن بن بويه
١٦٩	:	١٤	:	لملذاته
١٧٠	:	١١	:	لواءان

مطبعة الرسالة
٣ شارع حمودة المقاول - عابدين

THE CALIPHATE & THE STATE

UNDER THE 'ABBASIDS

By

M. HILMY M. AHMAD, (Ph.D.)

Lecturer in Islamic History,

Dar al-Ulum College, University of Cairo.

CAIRO

1959